المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من أتعبه السير في دروب الحياة المتشعبة،
وتاه في متاهات الشكوك والأوهام...

إلى كل من سمع نداء الفطرة في أعماقه،
فاشتاق إلى كتابٍ "فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" ليكون له هُدًى وَشِفَاءً...

هذا الكتاب لك،
تأمل فيه، وعش مع معانيه،
واجعله بوصلتك في طريق العودة إلى "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ".

والله َ أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم،
وأن ينفع به كاتبه وقارئه،
وأن يجعله حجة لنا لا علينا يوم نلقاه.

بسم الله الرحمن الرحيم
مذكرة تعريفية بكتاب

"المفاهيم القرآنية من سورة فصلت"

تمهيد: بين يديك رحلة فريدة مع القرآن

في زمن تاهت فيه المفاهيم، واختلطت فيه أولويات الروح والمادة، يبرز كتاب "المفاهيم القرآنية من سورة فصلت" كبوصلة إيمانية فريدة .إنه ليس مجرد كتاب تفسير تقليدي، بل هو رحلة غوص عميقة في جوهر سورة واحدة من القرآن الكريم، لاستخراج كنوزها الدفينة التي تبني الفرد، وتصلح المجتمع، وتقيم الحضارة.

.1محتوى الكتاب وجوهره: ليس تفسيرًا، بل حياة

جوهر هذا الكتاب ليس النقل عن المفسرين بقدر ما هو "التنزيل على الواقع" .هو ينتقل بك من المعنى النظري للآية إلى أثرها العملي في قلبك وسلوكك .يدور المحتوى حول محاور رئيسية:

· تحليل المفاهيم القرآنية الكبرى: كالتوحيد، والوحي، والاستكبار، والاستدراج، والشكر، والتقلب، و اليقين.
· التشريح الدقيق للنفس البشرية: يكشف الكتاب أمراض النفس كالجحود، والبطر، واليأس، والعناد، و الشك) المرية(، مُستخلصًا ذلك من مواقف الكفار والمعرضين في السورة.
· بناء متكامل يبدأ من الذات: يوضح كيف تؤسس هذه المفاهيم لبناء إنسان متوازن، ثم مجتمع متكافل، وصولًا إلى حضارة راسخة.
· التركيز على التطبيق: يُختتم تحليل كل مقطع بـ "دروس عملية" و"كيف نعيش الآية في واقعنا"، محولًا التلاوة إلى برنامج حياة يومي.

.2أهداف المؤلف وأغراضه: إحياء للقلب والعقل

يتجاوز المؤلف الشرح الأكاديمي الجاف إلى أغراض سامية واضحة:

· إعادة تعريف العلاقة بالقرآن: نقلك من كونه كتاب تلاوة وأجر إلى كونه مصدرًا للهداية والشفاء و التذكير الفطري.
· تقديم منهج للتعامل مع تحديات العصر: يستخرج من السورة دروسًا في إدارة الأزمات الدعوية، و التعامل مع الشبهات، ومواجهة الإلحاد الحديث، وكيفية الحفاظ على الطاقة النفسية.
· بناء اليقين: يهدف إلى تعميق اليقين بالله واليوم الآخر من خلال الربط بين آيات الكتاب وآيات الكون) المسموعة والمنظورة.(
· تقديم التزكية بلغة العصر: المزج بين معاني الإيمان العميقة ولغة علم النفس والتربية الحديثة، مما يجعل الحقائق القرآنية حية ومؤثرة في وجدان القارئ المعاصر.

.3أسلوب المؤلف وطريقة طرحه: خطاب للقلب والعقل معًا

يمتاز أسلوب الكتاب بكونه أسلوبًا تحليليًا تربويًا تطبيقيًا، وهذا يتجلى في:

· الوقفات التأملية) التدبُرية(: يبدأ كل مقطع بآية، ثم ينتقل إلى وقفات تفصيلية مع الألفاظ والعبارات ، مستخرجًا دلالاتها النفسية والفكرية.
· اللغة التصويرية والأمثلة التقريبية: يستخدم المؤلف أمثلة يومية) مثل المصباح المنفصل عن الكهرباء ، والطالب في الامتحان (لتبسيط المعاني العميقة وجعلها قريبة من الذهن .هذا الأسلوب يزيل الحواجز بين القارئ والنص القرآني.
· الأسئلة التفاعلية: كثيرًا ما يخاطب القارئ مباشرة بأسئلة مثل: "هل شعرت بذلك؟"، "أين أنت من هذه الآية؟"، مما يُشعر القارئ بأنه معنيٌ بشكل شخصي بالخطاب.
· التحليل البنائي: يقوم بتشريح الآية لاستخراج "الرسائل الفكرية"، و"الرسائل النفسية"، و"الرسائل التربوية"، مما يعطي القارئ فهمًا منظمًا ومتكاملًا.
· التدرج في العرض: يبدأ من تفسير المفردة، ثم المعنى العام، ثم الدلالة النفسية، ثم الدور في بناء الفرد والمجتمع والحضارة، وأخيرًا التطبيق العملي .هذا التدرج يجعل الأفكار المعقدة سهلة الهضم وقابلة للتنفيذ.

هذا الأسلوب يحوّل القارئ من متلقٍ سلبي إلى مشارك فاعل وراغب في التغيير.

.4بما يمتاز به هذا الكتاب عن غيره من التفاسير

هذا الكتاب ليس تفسيرًا بالمعنى التقليدي، بل هو "تفسير تطبيقي حضاري"، وتميزه يكمن في:

· المنهج المتكامل: لا يكتفي ببيان معنى الآية، بل يجاوزه إلى استخراج "ظلالها" و"رسائلها" و"دروسها العملية" في الحياة.
· التركيز على بناء الشخصية: يختلف عن كتب التفسير التي تهتم بالناحية اللغوية أو الفقهية، ليهتم بشكل أساسي بـ "تكوين الإنسان الإيماني"، في عاطفته وفكره وسلوكه.
· الربط بالحضارة والتنمية: يقدم رؤية فريدة في ربط مفاهيم مثل "الاستقامة"، "التوكل"، "الإحاطة الإ لهية" ببناء اقتصاديات ومجتمعات مستقرة وجادة .هذا البعد الحضاري نادر في كتب التفسير.
· الجمع بين الأصالة والمعاصرة: يستند الكتاب إلى أمهات كتب التراث، لكنه يقدم محتواها بلغة معاصرة تفهمها الأجيال الجديدة، وبأسلوب يعالج مشكلاتها الواقعية كاليأس، والقلق، والتيه الفكري.
· التطبيق العملي: يختتم كل محور رئيسي بجزء مخصص لـ "ماذا يريد الله منا؟" و"كيف نعيش الآ ية؟"، وهذه هي الترجمة العملية للقرآن، مما يسد فجوة كبيرة بين العلم النظري والعمل.

.5الهيكل التنظيمي للكتاب وأبعاده

ينتظم الكتاب في أربعة أقسام كبرى، تغطي سورة فصلت بشكل منهجي:

· القسم الأول: حقيقة الوحي وموقف المعرضين: يبدأ من أول السورة، محللًا طبيعة القرآن) تنزيل، كتاب فصلت (ووظيفته) بشير ونذير(، ثم يستعرض أدلة الربوبية في الكون.
· القسم الثاني: مشاهد من يوم القيامة وأسباب الانحراف: يحلل مشاهد الحشر وشهادة الجلود، ويكشف عن آليات الإضلال) القرناء، التزيين (واستراتيجيات الكفار في محاربة الوحي، ثم يصل إلى جذور المشكلة: سوء الظن بالله.
· القسم الثالث: أخلاق الداعية وطبائع النفوس البشرية: يشرح منهج الدعوة) الدفع بالتي هي أحسن، الصبر(، ويكشف أمراض النفس الإنسانية) اليأس، البطر، التقلب(، ويختتم بالسؤال المنطقي الحاسم.
· القسم الرابع: آفاق المستقبل وخاتمة المطاف: يفتح باب الأمل بالعلم والإيمان) سنريهم آياتنا(، قبل أن يختم بالتشخيص النهائي لداء المكذبين:) المِرية في لقاء الله(، مقررًا حقيقة الإحاطة الإلهية بكل شيء.

.6الجمهور المستهدف بهذا الكتاب

هذا الكتاب ليس موجهًا لفئة واحدة، بل هو لكل باحث عن منهج حياة قرآني:

· المتدبر للقرآن: الذي يريد أن يتجاوز القراءة السطحية إلى فهم عميق للآيات وآثارها في حياته.
· الدعاة والمربون: سيجدون فيه كنزًا من الأساليب الدعوية، وفهمًا عميقًا لنفسيات المدعوين، ودروسًا عملية في التربية الإيمانية.
· طلاب العلم الشرعي: يقدم لهم نموذجًا فريدًا في التفسير الموضوعي والتحليلي والتربوي.
· الشباب والباحثون عن اليقين: بلغته العصرية وأمثلته الواقعية، يجيب عن أسئلتهم الوجودية، ويبني فيهم الشخصية القوية الثابتة.
· كل مسلم يبحث عن التغيير: يريد أن ينتقل من الإيمان النظري إلى الإيمان العملي الذي يغير حياته وسلوكه.

.7لماذا يجب أن تقرأ هذا الكتاب؟) وما هي ثمار قراءته؟(

إن قراءة هذا الكتاب ليست ترفًا فكريًا، بل ضرورة لكل من يريد:

· أن يفهم رسالة سورة فصلت كاملة: ليس مجرد آيات متفرقة، بل بناء متكامل يعالج قضية الإيمان والكفر من جذورها.
· أن يحوّل القرآن إلى طاقة حياة: ستتعلم كيف تستخرج من كل آية درسًا عمليًا لعلاج مشكلة تواجهك، أو لتقوية جانب من شخصيتك.
· أن يحصن نفسه من الشبهات: بفهم منطق المعاندين وآليات الشيطان في الإضلال، ستصبح أكثر

مناعة ضد هجمات الشك والتشكيك.
· أن يبني شخصية متوازنة: يجمع فيها بين الخوف والرجاء، والغنى والفقر، والنعمة والشدة، فلا تطغيه نعمة ولا تهده محنة.
· أن يحقق الطمأنينة القلبية: من خلال اليقين الجازم بإحاطة الله ورحمته وعدله، مما يحرره من الخوف من المستقبل والحزن على الماضي.
· أن يكون صاحب رسالة: ستعرف كيف تكون داعيًا إلى الله بوعي وحكمة، وكيف تتعامل مع مختلف أصناف الناس وفق منهج القرآن.

.8خاتمة: دعوة لرحلة العمر

كتاب "المفاهيم القرآنية من سورة فصلت" هو أكثر من مجرد كتاب؛ إنه رفيق درب، ودليل روح، ومفتاح لكنوز سورة عظيمة .إنه ينتقل بك من عالم القراءة إلى فضاء التطبيق، ومن حياة التردد إلى ثبات اليقين .بين دفتيه، ستجد نفسك، وستفهم رسالتك، وستكتشف الطريق إلى السكينة والتمكين في زمن الضجيج والعزلة الروحية.

إنها رحلة لاكتشاف كيف تتحول آيتان قصيرتان إلى "ميثاق حياة"، فكيف بسورة كاملة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة تعريفية بسورة فصلت

.1عدد آياتها

عدد آيات سورة فصلت أربعٌ وخمسون (54) آية في المصحف الشريف) حسب عدّ الكوفيين الذي عليه مصحف حفص.(

.2مكان نزولها

سورة مكية، نزلت على النبي محمد ﷺ في مكة المكرمة، في فترة المواجهة الفكرية والعقدية مع مشركي قريش.

.3ترتيبها

· في المصحف الشريف: السورة رقم.(41)
· من حيث النزول: نزلت بعد سورة "غافر" وقبل سورة "الشورى"، وهي جزء من مجموعة "الحواميم" التي تبدأ ب-) حم.(

.4الأجواء التي نزلت فيها

نزلت السورة في جو من العناد الفكري الشديد والإعراض المتعنت من قبل كفار قريش .لم يقتصر رفضهم على عدم الإيمان، بل تعداه إلى:

· محاولات التشويش المنظمة على القرآن) كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾.(
· إثارة الشبهات والجدال بالباطل) كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ...﴾.(
· التقلب النفسي بين الغرور واليأس، والبطر عند النعمة واليأس والقنوط عند الشدة.
فجاءت السورة لتحلل هذه الظواهر النفسية، وتثبت النبي ﷺ والمؤمنين، وتقيم الحجة عليهم بمنتهى المنطق والعقل.

.5خصائص السورة

· من "الحواميم": تبدأ بالحروف المقطعة) حم(، التي تمثل تحديًا للعرب وإيقاظًا للعقول لتلقي ما بعدها.
· التحليل النفسي العميق: تتميز بغوصها الفريد في تحليل نفسية الكافر والمعرض والمنافق، وكشف جذور أمراضهم القلبية كـ "استحباب العمى على الهدى" والنزغ الشيطاني.
· منهج الإفحام العقلي: تستخدم السورة أسلوب الافتراض العقلي لإلزام الخصم بالحجة) مثل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ...﴾.(
· التكامل بين الكتابين: تجمع بين الحديث عن "الكتاب المسموع") القرآن (و"الكتاب المنظور") الكون ونفس الإنسان(، وتربط بينهما كدليلين على الحق.
· النظرة الحضارية الشاملة: تقدم السورة موادًا لبناء "إنسان" متوازن و "مجتمع" متماسك و "حضارة" شاهدة على الخلق أجمعين.

.6فضائل السورة وما انفردت به

· انفرادها بوصف "الاستقامة" وثوابها المهيب: تنفرد بوصف نزول الملائكة على المستقيمين عند الموت بالبشرى والأمان: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا...﴾.
· آية الدعوة الأعظم: تشتمل على ما يُعتبر دستور الدعاة وأعظم آية في بيان أخلاقهم ومنهجهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾.
· فضح آلية الكفر والإلحاد: تحلل بعمق فريد آلية "استحباب الكفر" وجذوره النفسية، من خلال قصة عاد وثمود وقرناء السوء وغيرها من النماذج.
· الربط الفريد بين القرآن والكون: تقدم وعدًا إلهيًا باستمرار ظهور الأدلة على صحة القرآن عبر الزمن: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

.7علاقة السورة بسورة غافر

كلاهما من سور "الحواميم"، وتعد سورة "فصلت" امتدادًا عضويًا لسورة "غافر".

· بينما تركز "غافر" على أسماء الله وصفاته) غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب (...وتضع النبرة الأ ساسية للصراع بين الحق والباطل.
· تأتي "فصلت" لتؤكد على وضوح الحق و "تفصيله" التام، وتغوص في تشريح الأسباب النفسية و العقلية التي تمنع المعرضين من الانتفاع بهذا الحق الواضح، وتأخذ بيد الداعية إلى كيفية التعامل معها.

.8علاقة افتتاحية السورة بخاتمتها

هناك علاقة تكاملية عجيبة بين مطلع السورة وختامها:

· الافتتاحية: تؤكد أن مصدر الكتاب هو "الرحمن الرحيم" وأنه "فُصِّلَتْ آيَاتُهُ"، أي بلغ الغاية في الوضوح والبيان للعقول المستعدة للتلقي.
· الخاتمة: تعلن أن برهان هذا الكتاب ووضوحه ليس محصورًا في لحظة نزوله فقط، بل سيظل يتجدد ويظهر في الآفاق وفي أنفس الناس عبر الاكتشافات العلمية والتاريخية المستقبلية: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. فبعد أن تكفل "الرحمن" بإنزاله، تكفل بإظهار براهينه إلى أن تقوم الساعة.

.9مفاهيم السورة) كما حددها الكتاب(

تستعرض السورة مجموعة من المفاهيم المحورية، منها:
الذكر والغفلة، الإعراض والإلحاد، الاستكبار عن الحق، الاستقامة، التقوى، الدعوة إلى الله وأخلاقياتها، استحباب العمى على الهدى، النزغ الشيطاني، اليقين مقابل الشك والمرية، السنن الإلهية، والإحاطة الإ لهية.

.10المواضيع الرئيسية التي تحدثت عنها السورة

.1التعريف بالقرآن: بيان مصدره، عظمته، ووضوح آياته.
.2تشريح النفس المعرضة: تحليل أسباب رفض المشركين كالعناد، البطر، اليأس، والكبر.
.3قصص التاريخ: ضرب الأمثال بقصص) عاد وثمود (لنمذجة الصراع وتثبيت المؤمنين.
.4مشاهد الآخرة: عرض حي لمشاهد الحشر، وشهادة الجلود، لإيقاظ القلوب.
.5بيان طبيعة الإنسان: كشف تناقضاته بين الهث وراء الدنيا والاعراض عن الله عند النعمة، والتضرع عند الشدة.
.6دستور الدعوة والحوار: عرض أسس الدعوة، ومنهج الإقناع، وفن مواجهة الخصوم.
.7بناء النموذج الإيماني: رسم معالم بناء الإنسان المؤمن المتوازن، والمجتمع الحي، والحضارة الراقية.

.11مقاصد السورة الكبرى

· تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين في وجه إعراض المشركين وتكذيبهم، وبيان أن سُنن الله لا تتبدل.
· بيان أن القرآن حق مطلق لا يأتيه الباطل من أي جهة، وهو منزل من إله حكيم حميد.
· إقامة الحجة القاطعة على المعرضين باستخدام كل أساليب الإقناع: العقلي، النفسي، والكوني.
· ترسيخ عقيدة البعث والجزاء واليقين بلقاء الله، لإصلاح السلوك الإنساني.
· وضع منهجية كاملة لبناء الحضارة الإنسانية على أساس التوحيد والاستقامة واليقين والعمل الصالح، لتكون الأمة شاهدة على الناس.

بسم الله الرحمن الرحيم
المقطع الاول
القسم الاول
اولا

﴿حمٓ ١ تنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ٢ ﴾

هاتان الآيتان ليستا مجرد افتتاح لسورة، بل هما مفتاحٌ لفهم علاقة السماء بالأرض، ودستورٌ لبناء النفس والمجتمع، ورحلةٌ تنقلك من عجزك البشري إلى رحمة الله التي لا تدركها العقول .فهيا بنا نغوص في أعماق هذه الكلمات، بقلبٍ متأمل وعقلٍ متسائل، كأنها نزلت علينا الآن، وكأننا المخاطبون بها وحدنا.

الوقفة الأولى: ﴿حمٓ﴾ ... رسالة العجز التي تلد الرحمة

اسأل نفسك الآن: لماذا تبدأ السورة بحروفٍ مقطعة هي من صميم لغتنا، "حاء" و"ميم"، حروفٌ ينطقها الصغير والكبير؟ أترون الله عز وجل يضعنا أمام أحرفٍ لا ندرك لها معنى محددًا؟ أم أن في هذا الا بتداء سرًا عظيمًا يزلزل الوجدان؟

الجواب: إنها الصدمة البيانية التي توقظ العقل، وتجلس الإنسان في مقعد الاعتراف بعجزه .العرب الذين بلغوا القمة في البلاغة، والذين كانوا يتباهون بالكلمة، وُضعوا أمام حروفٍ هي ذات الحروف التي تتألف منها أحاديثهم وقصائدهم، ثم قيل لهم: هذا القرآن من جنس هذه الحروف، فإن كنتم في شك من أنه من عند الله فهاتوا مثله! إنه التحدي الصارخ الذي أخرس الألسنة .فلماذا نبدأ بالعجز؟

لأنك حين تقف على حقيقة أن أعظم قدراتك، وأفصح بيانك، وأذكى عقولك، تقف عاجزة أمام كلام الله، حينها فقط تسقط حُجب الكبر، ويحل التواضع، وينفتح القلب ليستقبل .وهنا تتجلى الرحمة التي لا تدركها العقول؛ فالله القادر الذي أفحم خلقه بحروفٍ من لغتهم، هو نفسه الذي سيصف نفسه مباشرة بـ"الرحمن الرحيم" .العجز البشري هو الجسر الذي تعبر عليه إلى الرحمة الإلهية .لقد أرادك الله أن تشعر بضعفك، لا ليسحقك، بل ليُذيقك حلاوة أن يتولاك مَن بيده كل شيء.

دعني أهمس في أذنك رسالة نفسية وتربوية من هذه الحروف: أنت أيها الإنسان، مهما بلغت من علمٍ ومهارة، تذكر دائمًا أن النجاح والتوفيق من الله وحده .لا تغتر بقدراتك، ولا تظن أن ما وصلت إليه هو بذكائك فقط؛ بل قل في كل صباح: "لا حول ولا قوة إلا بالله" .هذا الاعتراف اليومي يجعلك منيبًا، ويحميك من آفة العُجب القاتلة .ألا ترى أن البداية بـ "حم" جعلت النبي ﷺ ومن بعده المؤمنين يرددونها دون أن يعرفوا تأويلها على وجه التحديد، تعبدًا وتسليمًا وحبًا، لأنها من عند الحبيب سبحانه؟ هذه هي العبودية الحقة.

الوقفة الثانية: ﴿تنزِيلٌ﴾ ... لماذا ليست مجرد "كتاب"؟

والآن تأمل معي في وصف القرآن بأنه "تنزيل" .هل تساءلت يومًا لماذا لم يقل الله: "هذا كتاب من الرحمن الرحيم"، بل قال: "تنزِيلُ الرَّحۡمَٰنِ الرَّحِيمِ"؟

أرأيت روعة استخدام المصدر "تنزيل" المرفوع على أنه مبتدأ لخبر محذوف أو مرفوع على الخبرية؟ إنه بناءٌ اسميٌ خالد لا يتقيد بزمن، فـ"التنزيل" هنا ليس حدثًا ماضيًا انتهى، بل حقيقة ثابتة مستمرة .إنك كلما فتحت المصحف، فأنت أمام "تنزيل" حيّ متجدد، كأنه ينزل عليك الساعة من الملأ الأعلى .استخدام المصدر المضاف "تنزيل" بدل الفعل "نزّل" فيه مبالغة عظيمة في تثبيت المعنى وتجسيمه؛ إنه يجعل من فعل الإنزال هويةً للكتاب، فالقرآن هو "التنزيل" ذاته، نبعٌ دافق من العلو إلى الأرض لا يجف.

وما الدلالة التي تلمس شغاف قلبك؟ علوّ شأن القرآن مصدره عُلوّ مصدره .هو "تنزيل" من الله، أي أنه نازل من الأعلى إلى الأدنى ليرفع الأدنى إلى الأعلى! إنه ليس من إبداع البشر، بل هبط من علياء القدس، تنزه عن التحريف والخطأ، مما يستوجب منك الإجلال والتعظيم والتسليم المطلق .كم مرة قرأت كتابًا بشريًا فأعجبتك فكرته ثم اكتشفت خلله؟ أما هذا التنزيل فإنه الكمال المطلق لأنه "من الله".

ثم إن في لفظ "التنزيل" سرًا آخر: فهو يشير إلى نزوله منجمًا مفرقًا، يتنزل بحسب الحوادث ويثبت

فؤاد النبي ﷺ والمؤمنين .أرأيت روعة الرحمة؟ لم ينزل القرآن دفعة واحدة كقانون جامد، بل كان ينزل دفعات ليكون أيسر فهمًا وأعمق تأثيرًا، وكأن السماء كانت تفتح أبوابها كلما احتاجت القلوب إلى غذاء جديد .أليس هذا دليلا ً على أن هذا المنهج مواكب لكل ظروف حياتك، يعالج قضاياك لحظة بلحظة؟

دعني أسألك سؤالا ً يجعلك ترى الفرق: هل فرق عندك بين أن تقول "أرسلت لك رسالة" وبين أن تقول "هذه تنزيلٌ من شخص عزيز إليك"؟ الثانية تجعلك تشعر بالعناية الفائقة والاستمرار .هكذا القرآن: تنزيل دائم، فيه البيان والإيضاح، وليس مجرد نصوص صماء.

الوقفة الثالثة: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ... حين يناجيك مصدر الرحمة

الآن وصلنا إلى اللباب، إلى ما يذيب الجمود من القلوب: لماذا خص الله نفسه بـ "الرحمن الرحيم" في هذا المقام؟ ما معنى هاتين الصفتين العظيمتين؟

"الرحمن" هو ذو الرحمة الواسعة التي تشمل المؤمن والكافر، الطائع والعاصي، في الدنيا، وهي صفة عامة عظيمة ."الرحيم" هو ذو الرحمة البالغة الخاصة بالمؤمنين في الآخرة، أو هي الرحمة الدائمة التي لا تنقطع .فالجمع بينهما هنا يعني أن هذا التنزيل نابع من رحمة لا حدّ لها ولا انقطاع، رحمة عمرت الدنيا وستظل تفيض على أهل الإيمان في الآخرة.

ولكي ترى الصورة كاملة، أسألك: كيف تتجلى دلالة وصف القرآن بهاتين الصفتين؟

· أولًا: الله رحيم بعباده إذ أنزل هذا القرآن هاديًا يرشدهم إلى الحق ويمنعهم من الضلال .تخيل معي غرفة مظلمة يتحسس أهلها الجدران، ثم فجأة ينبثق ضوء ساطع من مصباح لا ينطفئ .هذا هو القرآن: نور أخرجهم به من ظلمات الجهل والحيرة إلى نور الهداية .فكل آية هي شعاع رحمة، ألا تشعر الآن وأنت تقرأ أن الرحمة تحيط بك؟
· ثانيًا: رحمة الله تتجلى في مضمون القرآن ذاته؛ فهو فُرقان يفرق بين الخير والشر، والحق والباطل . معاني الآية وسطورها ليست مجرد معلومات، بل هي كنز الرحمن الذي يضمن لك النجاة والحماية إن أخذت به .إنه دستور السعادة الذي قدِّم إليك على طبق من الرحمة، فهل رأيت تشريعًا أرحم من تشريع يمنع الظلم، ويُحِلّ الطيبات، ويقيم العدل؟
· ثالثًا: والأعجب من ذلك أن الله لم يترك العباد لفطرتهم وحدها، ولا لعهد الذرية المأخوذ على بني آدم، مع أن ذلك قد يكون كافيًا لإقامة الحجة .لكن مشيئته ورحمته شاءتا أن يبعث الرسل ويُنزل الكتب، لئلا يحتج أحد بأنه تاه في غياهب التقاليد والعادات الموروثة عن الآباء والأجداد .إنها رعاية إلهية لا نظير لها، أليست هذه هي قمة الحب؟
· رابعًا: هذا الكتاب حياةٌ للأرواح وشفاءٌ للصدور .ألا ترى وصف الله: ﴿أَوَمَن كانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾؟ القرآن يبعث في النفس مواتها، وفيه العزة والكرامة لمن تمسك به، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .كأنه الحصن الحصين والروضة الغناء التي لا تذبل.

اللمسة البيانية هنا سامية: فذِكر "الرحمن الرحيم" بعد "تنزيل"، وجعلهما في موضع الصلة أو الصفة، يُشعر القارئ بأن التنزيل كله رحمة من أوله إلى آخره، ليس فيه حرف إلا وهو ينضح حنانًا وخيرًا . هل خطر ببالك أن تتصور أن القرآن رسالة توبيخ وتكليف شاق؟ أبعد هذه الصفات! إنه خطاب حب من الرحمن الرحيم، كل أمر فيه هو لخيرك، وكل نهي فيه هو لحمايتك.

فما هي الرسائل التي تسكن قلبك الآن؟

١.الرسالة الفكرية: القرآن لم يأتِ تكليفًا شاقًا، بل نزل رحمةً وهدايةً .كل آية هي رسالة حب، وليست مجرد أوامر جافة .أعد تقييم فهمك للقرآن، واجعل نظرتك إليه تتفق مع مصدره الرحيم.
٢.الرسالة النفسية: استشعر رحمة الله وأنت تقرأ .تخيّل أن الرحمن الرحيم يخاطبك شخصيًا .هذا الشعور يجب أن يُحدث فيك خشوعًا وطمأنينة وسرورًا .ألا تشعر بالأمان وأنت في ظل اسم "الرحيم" ؟
٣.الرسالة التربوية: أن يورث في قلبك الطمأنينة والأمن بالقرآن؛ فهو منزل من الرحمن، وما فيه إلا الخير .إذا تسللت الشكوك، تذكر المصدر .وإذا أثقلتك التكاليف، فاعلم أن الرحيم لا يكلفك إلا بما يطيقك وفيه نجاتك.

والآن إليك الدرس العملي الذي يتسلل إلى حياتك اليومية: قبل أن تفتح المصحف، توقف لبضع ثوان . استحضر أن الله باسميه "الرحمن الرحيم" يخاطبك .لا تقرأ لمجرد إنجاز عدد الصفحات، بل اقرأ باحثًا

عن طمأنينة قلبك، متفائلا ً برحمة الله .قل لنفسك: سأفتش في هذه الآيات عن رحمته، عن نوره، عن شفائه .هذا التحول البسيط يحوّل القراءة من عادة إلى معراج روحاني.

الوقفة الرابعة: قيم الآية ... كيف تبني شخصية المؤمن؟

هذه الآية تزرع فيك قيمًا لو تبنتها لتغيرت حياتك بالكامل:

.1قيمة التعظيم والإجلال للقرآن الكريم: أن توقن أن هذا الكتاب هو كلام رب العالمين، فينتقل من مجرد ورق إلى سلطان، فتحترمه قولا ً وعملا ً ولا تقدم عليه شيئًا .هذا التعظيم يبني فيك شخصية منضبطة لا تستهين بالمعاني العظام.
.2الإيمان بمصدر القرآن: هو تنزيل إلهي مباشر، ليس من قول البشر .هذا يحرر عقلك من التبعية للآ راء البشرية المتقلبة، ويربطك بمصدر ثابت، فتصبح راسخًا لا تزعزعه الشبهات.
.3الرحمة والرأفة: إبراز غاية الإنزال بأنها رحمة بالعباد، ينعكس على سلوكك .فإذا كان الله رحيمًا بك ، فعليك أنت أن تكون رحيمًا مع أهلك وزملائك والناس أجمعين، خصوصًا في معركة الحق والباطل . الرحمة التي تتعامل بها في دعوتك وإصلاحك وفي تزكية نفسك هي صدى لرحمة المنزّل .لا تكن قاسيًا تحت راية الحق، فالذي أنزل الحق هو الرحمن.
.4الثقة المطلقة في المنهج الرباني: هذه القيمة تزرع في النفس السكينة .مهما كانت الظروف عاصفة، تعلم أن الذي شرع لك الطريق هو الرحمن الرحيم، ولن يأمرك إلا بما يصلحك .هذه الثقة تجعلك تمضي مطمئنًا واثقًا متوكلًا، لا تململ ولا تقلق.

الوقفة الخامسة: مفاهيم وأسس ... بناء الفرد والحضارة والإنسانية

لنرتق معًا إلى آفاق أعظم: ما الأسس الحضارية التي تقدمها لنا هاتان الآيتان؟

المحور الأول – المفاهيم الكبرى في حياتنا العملية:
الآية تقدم لك مفهومًا جذريًا: مرجعية الوحي .حياتك كلها تحتاج إلى دستور، ذلك الدستور هو تنزيل من الله، وبالتالي فهو معصوم من النقص والهوى والتحريف .هذا المفهوم يحررك من التيه الفكري.
وأيضًا تقدم مفهوم الرحمة الشاملة، فكل تنمية أو تطوير لا يقوم على رحمة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، هو تطور أجوف .القرآن يحدد لك الغاية من الوجود: أنت هنا لتعمر الأرض بعبادة الله، لا مجرد حياة استهلاكية مادية.

المحور الثاني – المفاهيم التربوية والنفسية والفكرية:
إن وصف التنزيل بأنه من "الرحمن الرحيم" يغرس في النفس البشرية شعورًا بالأمان والأمل .هذا الشعور يبني شخصية متوازنة نفسيًا وروحيًا، لا يطغى فيها الخوف ولا اليأس .فكريًا، أنت تدرك أن مصدر معارفك ليس عقل البشر المحدود، فيتسع أفقك للحقائق المطلقة .تربويًا، تتعلم أن تتعامل مع الناس من منطلق الرحمة، فتنشأ مجتمع متماسك متراحم.

المحور الثالث – الأسس والمقومات لتحقيق التنمية الشاملة:
الآية تؤسس لبناء حضارة قائمة على أساس متين: التنزيل من الرحمن الرحيم.

· مرجعية الوحي كأساس للبناء الفكري والعقائدي: أي بناء حضاري يستمد أسسه من وحي الله يضمن سلامة المنهج من التبعية للأهواء، ومن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .هذا أساس التنمية المستدامة.
· الرحمة كغاية: التنمية القائمة على هذا المنهج ليست تنمية مادية بحتة، بل تنمية تهدف إلى رحمة ا لإنسان وإسعاده في الدارين .إنها تحقيق للمصالح الحقيقية، وليست استغلالًا تحت ستار التقدم.
· التوازن بين الروح والمادة: المنهج الإلهي يوازن بين متطلبات الجسد والروح، مما يمنح الحضارة استمرارية وسلامًا داخليًا.
· الاستخلاف والتعمير كمسؤولية: بما أن المنزل هو الرحمن، فإن الإنسان يُربط بمسؤوليته في إعمار ا لأرض بمنطق الرحمة، لا بمنطق التدمير والجشع .هذا يعزز التكافل والأخوة تحت مظلة رحمة الله، فتبنى مجتمع يحيا بالحب والتضامن.

أرأيت كيف تتحول آيتان قصيرتان إلى ميثاق حياة؟

الوقفة السادسة: ماذا يريد المولى منا؟ ... دروس عملية للحياة

والآن، بعد أن أبحرنا في المعاني، آن وقت التطبيق .ماذا يريد الله سبحانه مني ومنك بعد أن تلونا

﴿حمٓ تنزيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟

أولا ً: مع الحروف المقطعة – وقفة العجز والاعتماد.
هل تذكرت حين قرأت ﴿حم﴾ أن هذه الحروف تتكون منها لغتك ومع ذلك عجزت عن الإتيان بمثل القرآن؟ أراد الله منك أن تقف مع حقيقة عجزك، في جميع شؤون حياتك: في عملك، في دراستك، في قراراتك، أن تعترف أنك مهما أوتيت من قدرات فالتوفيق من الله وحده .التطبيق العملي: حين تنجز مهمة، لا تقل "أنا فعلت"، بل احمد الله الذي وفقك، واستشعر دائمًا "لا حول ولا قوة إلا بالله" .
لا تغتر بقدراتك الشخصية، واجعل هدفك رضا الله، لا مديح الناس.

ثانيًا: "تنزيل من الرحمن الرحيم" – وقفة الدافع والرحمة.
المعنى الذي يجب أن يستقر في قلبك: القرآن الكريم مصدره الرحمن الرحيم، فهو رسالة حب وهداية، وليست أوامر قاسية .التطبيق العملي:

· اقرأ بقلب لا بعين فقط: عند قراءة القرآن، استشعر أن الله الرحيم يخاطبك ليرشدك إلى ما فيه خيرك في الدنيا والآخرة .ابحث في الآيات عن لمحات الرحمة.
· تعامل برحمة: أنزل هذه الرحمة في حياتك .كن رحيمًا مع أسرتك، مع زملائك، مع من تختلف معهم . عامل الناس كما لو أنك تتعامل باسم الله الرحيم .تذكر أن المنزّل تعامل مع عباده بالرحمة، فكيف بك ؟!

ثالثًا: "تنزيل" – وقفة الثقة والطمأنينة.
بما أن المصدر هو الرحمن الرحيم، فكل ما في القرآن حق وصدق ومنفعة وخير محض .التطبيق العملي:

· اطمئن لتوجيهاته: عندما يأمرك القرآن بالصبر، بالأمانة، بالتوكل، بالاستغفار، ثق أن الأخذ بهذه المبادئ حتى لو بدت صعبة أحيانًا، سيؤدي بك في النهاية إلى الرحمة والخير، لأن الآمر هو الرحمن الرحيم.
· اجعله بوصلتك: عند الحيرة في قرار مصيري، ابحث عن الآيات التي تعالج حالتك، واستشر أهل العلم، واعلم أن كلام الرحمن يهدي للتي هي أقوم .ثق أن هذا التنزيل يوجهك خطوة بخطوة.

رابعًا: "تنزيل" – وقفة الهداية الشخصية.
التنزيل يعني أن الله يخاطبك أنت تحديدًا، ويرشدك .التطبيق العملي: اجعل القرآن رفيق دربك اليومي ، تعيش بقلب مطمئن راجٍ رحمة الله، بلسان ذاكر حامد، ومنهج عملي يُستمد من تنزيل الرحمن الرحيم، لتحقق الفلاح في الدنيا والآخرة.

أخي، أختي، إن هذه الآيات تطرق باب قلبك الآن .إنها تقول لك: يا من تشعر بالعجز، هذا تنزيل من أحنّ عليك من أمك، يرشدك إلى طريق لا تشقى بعده أبدًا .يا من تبحث عن الأمان، تعال إلى رحمة الله التي لا حدود لها .افتح المصحف الآن، واقرأ موقنًا أن الرحمن الرحيم يناديك، واجعل هذه المعاني ترن في نفسك: أنا عبد عاجز، لكن التنزيل رفع شأني، والرحمة غمرتني .هوّن على قلبك، وتوكل، وامشِ في نور هذا التنزيل.

ثانيا

يا من ذاقت روحه حلاوة الوحي في مطلع السورة، ووقف بقلب خاشع أمام "حم تنزِيلٌ مِنَ الرَّحۡمَنِ الرَّحِيمِ"، تعالَ نستكمل الرحلة، وندخل معًا إلى عمق جديد، حيث يفتح الله لنا خزائن بيانه، ويكشف لنا عن طبيعة هذا الكتاب الذي بين أيدينا، ليلمس جوهر تكويننا الإنساني، ويعيد تشكيل فكرنا ونفسيتنا، ويرسم لنا معالم عقيدة صافية لا يشوبها غبش.

يقول الله جلّ وعلا بعد أن عرّفنا بنفسه وبكتابه:
﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾

هذه الآية ليست مجرد وصف إضافي، بل هي بيان كامل للدستور الذي سينير حياتك. تخيل معي أنك تملك خريطة لكنزٍ عظيم، فقيل لك: هذه الخريطة واضحة جدًا، ومكتوبة بلغتك التي تفهمها، ولكن بشرط واحد: أن تستخدم عقلك لتفك رموزها. ألا يملؤك هذا حماسًا وطمأنينة في آنٍ واحد؟ هذا هو تمامًا ما تفعله هذه الآية بك، فهي تعلن لك بكل وضوح: هذا "كتاب" عظيم، فُصِّلَت آياته، فلم يعد هناك مجال للحيرة، وهو قرآن عربي يخاطب فطرتك، ولكن الخزائن الحقيقية فيه لا يفتحها إلا "قوم يعلمون" أي الذين يشتغلون بعقولهم وقلوبهم معًا.

فهيا بنا نغوص في أعماق هذه الأوصاف الثلاثة، لنكتشف كيف تمس شغاف قلبك، وتعيد تنظيم فكرك،

وتمنحك دروسًا عملية تنعكس على سلوكك وحياتك كلها.

الوقفة الأولى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ... وضوح يبدد قلق الروح

تأمل معي هذا الوصف البديع: "كتاب فُصِّلت آياته". لماذا جاء الوصف "فُصّلت" بصيغة الماضي المؤنث ليوافق "آياته"؟ إنه يوحي بأن التفصيل قد أُحكم واكتمل، فلم يعد هناك أي نقص أو إجمال مُخل. هذا الكتاب ليس طلاسم ولا ألغازًا تُعجّز العقل، بل آياته قد بُيّنت وفُصّلت أحكامها، فُصلت ألفاظها ومعانيها؛ لا لبس فيها ولا غموض. هل شعرت يومًا بالقلق وأنت تسير في طريق مجهول مليء بـ الضباب؟ هذا هو حال النفس البشرية في أجواء غامضة. إنها تنفر من الغموض، وتبحث عن الوضوح كالماء والهواء.

وهنا تكمن اللمسة النفسية العميقة للآية: النفس البشرية لا تطمئن إلا بالوضوح. قوله "فصلت آياته" يمنحك استقرارًا نابعًا من يقينك أن المنهج الذي تسير عليه واضح المعالم. لا توجد ألغاز تعجيزية، بل تفصيل يوافق الفطرة السليمة. ألا ترى أن الوضوح في الأوامر والنواهي هو عين الرحمة؟ فـالله لم يقل لك: "آمن"، وسكت! بل قال: "آمن بي وبرسولي وباليوم الآخر...". ولم يقل: "صلِّ"، وانتهى! بل فصل لك كيف تصلي، ومتى، وكم عدد ركعاتها. إنه تفصيل يزيل الحيرة، ويورث في قلبك طمأنينة عظيمة.

اسأل نفسك الآن: عندما تعرف بالضبط ما هو المطلوب منك، وما هي الحدود التي يجب ألا تتجاوزها ، وما هي الأعمال التي يحبها الله ويكرهها، ألا تشعر بأمان وثقة؟ إن الله قد بيّن لك في هذا الكتاب الأعمال التي يأمر بها، والأعمال التي يحبها، والأعمال التي يكرهها، والأعمال المحرمة، كل ذلك لتسعى لرضاه وتتجنب سخطه، عن بصيرة لا عن عماية. هذا التفصيل هو الذي أقام الحجة، ومنع العذر، وجعل الطريق إلى الله مستقيمًا لا عوج فيه.

الوقفة الثانية: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ ... وعاء الفكر ولسان الفطرة

ثم يضيف وصفًا يزيد الطمأنينة ويُسقط كل الأعذار: هذا الكتاب ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾. لماذا ركزت الآية على عربية القرآن؟ ألأنه نزل لقوم معينين فحسب؟ كلا، بل لأن اللغة هي وعاء الفكر والمنهج. فالرسالة مهما كانت عظيمة، إن لم تُصب في قوالب لغة واضحة يفهمها المتلقي، ضاعت وضلّت.

تأمل الحكمة: الله يخاطب العرب أولا ً بلسانهم الذي يُتقنونه، ليفهموا ألفاظه ويدركوا معانيه وبلا غته. إنه بيان واضح يزيل كل ذريعة؛ فلا يمكن لأحد منهم أن يقول يوم القيامة: "لم نفهم الألفاظ!". وهذا مبدأ عظيم للحياة: التواصل الفعال يقتضي اختيار اللغة المناسبة والواضحة لضمان وصول الفكرة وتجنب سوء الفهم. كم من أزمات في بيوتنا وأعمالنا سببها كلمة غامضة أو مصطلح مشوش؟ الفكر المشوش هو نتيجة حتمية لمصطلحات مشوشة، والقرآن جاء ليضبط هذه المفاهيم، ليبني فكرًا سليمًا على ألفاظ دقيقة.

وهنا يبرز درس تربوي وعملي بالغ الأهمية: كما أن القرآن عربي واضح لقومه، ينبغي علينا اليوم أن نقدم ديننا للعالم بلغة يفهمونها، بأسلوب العصر ووسائله. الرسالة عالمية، لكن أداة إيصالها يجب أن تكون واضحة. في تعاملك مع أبنائك وزملائك، هل تحرص على الوضوح في تعليماتك؟ هل تتأكد أن الطرف الآخر فهمك كما تريد؟ ألا ترى أن وضوحك هو رحمة بهم ودفع للنزاع؟ هذه الآية تعلمنا أن البيان والدقة في المصطلحات ليس ترفًا، بل هو أساس بناء الفكر السليم وإزالة الأعذار.

الوقفة الثالثة: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ... دعوة صريحة لتحرير العقل

وهنا يأتي الشرط، أو بتعبير أدق، يأتي وصف من سيستثمر هذا التفصيل والبيان: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾. توقف طويلا ً عند هذه الكلمة. لم يقل: "لقوم يقرؤون" ولا "لقوم يسمعون" فقط! بل قال: "يعلمون"، وهي عملية عقلية واعية تتجاوز التلقي السلبي إلى الفهم والتحليل والاستنتاج.

هذا هو البعد الفكري العميق للآية: إنها تعزز الفكر التحليلي، وترفض تعطيل العقل. التفصيل في آيات القرآن يتطلب منك عقلا ً قادرًا على الربط والمقارنة والاستنتاج؛ عقلا ً يبحث عن المعاني، ويستخرج الأحكام، ويربط الفروع بالأصول. أتظن أن القرآن نزل ليكون كتاب تراتيل فقط؟ كلا! إنه كتاب تدبُر وتفكر. حصر الفائدة والهداية في "قوم يعلمون" يعني أن القرآن نور، ولكنه لا يضيء إلا لقلب حي وعقل متقد برغبة الفهم. إنهم الذين اتصلت أرواحهم بالوحي، واستعدت عقولهم لتلقيه، فهؤلاء وحدهم من يجدون في القرآن حياة ونورًا وشفاءً.

أرأيت كيف تدعوك الآية بشكل صريح إلى أن تكون إنسانًا "علميًا" في تعاملك مع دينك وحياتك؟ إنها تدعوك لأن تستثمر في عقلك، وأن تطلب العلم الشرعي الذي يجعلك من هؤلاء "القوم". لا تكن ممن يتبعون الظن والهوى، أو ينقادون وراء الشائعات، بل كن ممن يبحثون عن الحقيقة بأدلتها وبراهينها. هذا هو الدرس العملي الذي يبني مجتمعًا واعيًا، لا يخدعه التضليل، مجتمعًا يتبع الآيات المفصلة و الحقائق العلمية لا الأوهام. إنها دعوة لتكون حياتك واضحة الأهداف، قائمة على الحقائق والأحكام الشرعية لا على التخمين والتبعية العمياء.

الوقفة الرابعة: منهجية تفصيلية لحياة منظمة وروح مطمئنة

والآن، كيف ننزل هذه المعاني إلى أرض الواقع العملي؟ لقد آن الأوان لننظر كيف تبني هذه الآية حياتنا على أسس منهجية دقيقة:

أولا ً: الدقة والتنظيم في الحياة.
كما أن القرآن ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، ينبغي أن تكون حياتك أنت أيضًا قائمة على التفصيل والمنهجية. لا تبدأ عملًا دون تخطيط وتوصيف دقيق للمهام. الوضوح في أهدافك وأعمالك يمنع النزاعات ويزيد إنتاجيتك. في بيتك، هل لأسرتك أهداف واضحة يعرفها الجميع؟ في عملك، هل المهام موزعة بوضوح ؟ القرآن يعلمنا أن العشوائية ليست من منهج الله، فالله الذي فصّل كتابه، يحب من عبده أن يكون منظمًا في شأنه كله.

ثانيًا: وضوح الرؤية يورث الطمأنينة.
في النفس البشرية نزعة للبحث عن اليقين والوضوح. الغموض يورث القلق والتوتر. لذلك، فإن إيمانك بأن أحكام دينك مفصلة وواضحة، يمنحك استقرارًا نفسيًا هائلا ً. أنت تعرف الحلال فتفعله، والحرام فتجتنبه، والمتشابه فتقف عنده بعلم أو تسأل عنه. هذا يجعلك تعيش في أمان فكري وروحي. طبق هذا في حياتك: كن واضحًا مع نفسك ومع الآخرين. وضوح الرؤية الشخصية هو بداية الطمأنينة.

ثالثًا: الاعتزاز باللغة العربية كوعاء للوحي.
لن ننتفع بالقرآن حق الانتفاع ما لم نعش مع لغته. تعلم العربية، والتفكر في ألفاظها، هو جزء من طلب العلم الممدوح في الآية. حاول أن تقرأ في تفسير الكلمات الغريبة، وتأمل في بلاغة التراكيب. هذا يفتح لك أبوابًا من الفهم لا تفتح إلا لمن أتقن المفتاح.

الوقفة الخامسة: بناء عقلية "يعلمون" في عالم يضج بالتشويش

في عصر الشائعات والأخبار المفبركة، تأتي هذه الآية كطوق نجاة للعقل المسلم. إنها تؤسس لعقلية ناقدة تحليلية لا تقبل شيئًا دون دليل. "لقوم يعلمون" تعني أن المؤمن الحقيقي هو باحث عن الحقيقة ، منقب عن البرهان.

. التطبيق العملي: قبل أن تنشر خبرًا، تثبّت .قبل أن تصدق شائعة، حلل .قبل أن تتبع موضة فكرية، اعرضها على كتاب الله المفصّل .هذه الآية تجعلك صاحب "منهج علمي" في تلقي الأخبار والمعلومات . وأيضًا، في تربية أبنائك، لا تطلب منهم الطاعة العمياء، بل علمهم "لماذا" يفعلون و"لماذا" يتركون، كما فصل الله لهم .هذا يبني فيهم القناعة الداخلية والثبات المبدئي.

وأختم معك بهذا السؤال التحفيزي: هل تريد أن تكون من "قوم يعلمون" حقًا؟
إذن، اجعل للقرآن النصيب الأكبر من وقتك. لا تقرأه فقط، بل أمسك بتفسير موجز، واسأل أهل العلم، وناقش، وتدبر. اجعل عقلك متقدًا مع الآيات، وسترى كيف يتحول القرآن بين يديك من مجرد حروف تُتلى إلى كائن حي يخاطبك، ويوجهك، ويريحك. لأنه ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.
فهل أنت منهم؟
ثالثا
يا من ذاقت روحه الأنس بآيات الكتاب، وتنفست عبير اليقين من "تنزيل من الرحمن الرحيم"، واطمأنت نفسه لوضوح "كتاب فُصلت آياته"، تعالَ نستكمل معًا رحلتنا في رياض هذه السورة المباركة. لقد كشف الله لنا عن عظمة كتابه ووضوحه، والآن يقف بنا أمام مشهد أعظم، مشهد يملأ الوجود، لتستيقظ الفطرة، وليتوجه القلب بالحب والشكر والتعظيم. تأمل معي قوله جلّ في علاه:

.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ٥﴾

هاتان الآيتان تمسان جوهر التكوين الإنساني بعمق، وتشخصان أخطر أمراض القلب والعقل، وتقدمان لنا دروسًا تربوية هائلة في فن التعامل مع المعرضين، وفي فهم أسباب الإعراض ذاته.

المقدمة: عندما تكون المشكلة ليست في الغموض وعدم الوضوح بل في القلب!

لقد أخبرنا الله في الآيات السابقة أن هذا الكتاب "تنزيل من الرحمن الرحيم"، وأنه "كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون". ومع كل هذا الرحمة والوضوح والبيان، ماذا كان رد الفعل؟ ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾. هنا تبدأ رحلة جديدة في فهم طبيعة النفس البشرية. المشكلة ليست في البيان، فالله قد بيّن وأحسن البيان. المشكلة ليست في اللغة، فقد أنزله عربيًا واضحًا. المشكلة ليست في الأدلة، فكتاب الله مفصل مليء بالبراهين. المشكلة إذن أين؟ في المتلقي! في القلب الذي أغلق أبوابه، والأذن التي سدت منافذها، والإرادة التي اختارت الإعراض والنفور.

هاتان الآيتان ترسمان مشهدًا مؤثرًا: رسول كريم يدعو قومه بكل حب ورحمة، يحمل لهم رسالة هي عين الرحمة، ومع هذا "أعرض أكثرهم". إنه مشهد يدمي القلب، لكنه في نفس الوقت يبني فينا الوعي بطبيعة المعركة بين الحق والباطل، ويعلمنا كيف نواجه الإعراض بالثبات والعمل.

الوقفة الأولى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ... ميزان الرحمة والعدل في النفس البشرية

تأمل معي هذا الوصف العجيب للقرآن: "بشيرًا ونذيرًا". لماذا جمع بين البشارة والنذارة؟ ولماذا قدّمت البشرى على الإنذار؟ السر في ذلك أن الله يعلم أن النفس البشرية تُخلق من طينتين: الرجاء و الخوف. إنها كالطائر، لا يطير إلا بجناحين. لو كان القرآن كله وعيدًا لياس العباد وقنطوا، ولو كان كله وعدًا لأمنوا واسترسلوا في الغفلة. لذلك، أرادها الله موعظة متوازنة تخاطب قلبك بأسلوبين:

· بشيرًا: ليرغّبك، ويملأ قلبك حبًا وأملا ً وسعيًا حثيثًا إلى الجنة والمغفرة والرضوان. إنه يبشرك بقربه منك، وبأن رحمته سبقت غضبه.
· نذيرًا: ليخوّفك ويحذرك من عواقب الغفلة، ويزجرك عن الهوى، ويجعلك تقف عند الحدود. إنه يحذرك من عدوك الشيطان ومن عذاب النار.

وهذا الميزان هو عين التربية الربانية المتكاملة. ألا ترى كيف أن الله قدّم "بشيرًا" على "ونذيرًا"؟ لأن رحمته سبقت غضبه، ولأن باب الرجاء مفتوح دائمًا، ولأن الحب هو المحرك الأول والأقوى في النفس البشرية السوية.

الدرس العملي والتربوي:
في تعاملك مع الناس، خاصة في التربية والدعوة والتوجيه، اجعل من هذه الآية دستورًا لك. لا تكن دائمًا منذرًا مخوفًا، ولا تكن فقط مبشرًا متمنيًا. امزج الترغيب بالترهيب، وقدّم الترغيب. حين تعلّم ولدك، بشّره بعاقبة الصدق والصلاة والاجتهاد، ثم بلطف حذّره من عاقبة الكذب والكسل. حين تدعو إلى الله، افتح للناس باب الرجاء في سعة رحمة الله قبل أن تخوفهم من عقابه. هذا الأسلوب هو الذي يأسر القلوب، ويبني النفوس بناء متوازنًا.

الوقفة الثانية: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ ... جحود المعروف وتزييف الفطرة

والآن يأتي المشهد الصادم: رغم أن القرآن "بشير ونذير"، ورغم أنه "تنزيل من الرحمن الرحيم"، ورغم أنه "فصلت آياته"، إلا أن أكثرهم أعرضوا! كيف نفسر هذا الإعراض؟
إنها طبيعة الاستكبار والجحود. النفس البشرية إن لم تُزَكّ وتُهذّب، فإنها تؤثر العمى على الهدى. لماذا "أكثرهم" وليس كلهم؟ لأن الله يبقي دائمًا على ثلة من عباده الذين لبوا نداء الفطرة السليمة، وهم "قوم يعلمون" الذين سبق ذكرهم. أما الأكثرون فهم الذين طمسوا على فطرتهم، وآثروا الظلمة على النور. وهنا تكمن رسالة نفسية عميقة لك أيها الداعية: لا تحْزَنْ على إعراض الأكثرين. فطبيعة الحق أن أتباعه في البداية قلة، كما كان حال الأنبياء من قبلك. هذا التطمين الإلهي يريح قلبك، ويزيل

عنك وهم المسؤولية عن هداية الناس جميعًا، فأنت عليك البلاغ المبين، والهداية من الله.

رسالة فكرية:
الإعراض عن الحق الواضح ليس دليلا ً على بطلانه، بل هو دليل على مرض في المُعرِض. فالذين كفروا لم تكن مشكلتهم دليلا ً مفقودًا، بل كانت مشكلتهم شهوةً عمياء أو كبرًا يمنعهم من التسليم. وهذا يبني فيك الثقة المطلقة في أن ما تحمله هو الحق، حتى لو رفضه الناس.

الوقفة الثالثة: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ ... صمم الإرادة لا صمم الأذن

ثم يأتي الوصف الأدق: "فهم لا يسمعون". هل كانوا صمًا لا تسمع آذانهم؟ كلا! إنهم يسمعون الكلمات و الحروف، ولكنهم "لا يسمعون" سماع تدبر وقبول وإجابة. إنه الصمم المعنوي، وهو أشد أنواع الصمم. إنها الأذن التي تعطلت إراديًا عن الاستماع للحق. هذا المرض هو أخطر ما يصيب الإنسان؛ لأنه يغلق كل منافذ الهداية. فالقلب الذي يرفض السماع لا ينفعه وضوح الكلام، والأذن التي سدّت نفسها لا يصلها البيان.

الدرس التربوي:
انتبه! هذا المرض يمكن أن يصيبنا نحن المؤمنين! حين تسمع آية تنهاك عن أمر، ثم تمر عليها مرور الكرام دون أن تتحرك في نفسك لتغيير، فأنت في دائرة "لا يسمعون". حين تكرر خطأ وتعرف أنه خطأ، فأنت تعرض عن سماع الحق. اسمع القرآن وكأنه ينزل عليك أول مرة، وكأنه يخاطبك أنت وحدك، ولا تكن ممن يقرؤون حروفه ولا يتجاوز حناجرهم.

الوقفة الرابعة: تشريح النفس المعرضة ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ...﴾

والآن وصلنا إلى ذروة التحليل النفسي للمعرضين. استمع إلى حجتهم الواهية التي فضحت حقيقة مرضهم:
﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾

انظر إلى هذه الصورة المرسومة بالكلمات:
١.قلوب في أكنة: القلب مغطى بأغطية وأغلفة تمنع وصول النور إليه .إنه اعتراف منهم بأن قلوبهم ليست مستعدة للتلقي، وهذا هو سبب الإعراض الأساسي .إنها ليست مشكلة عقلية، بل مشكلة قلبية . القلب هو الملك، فإذا مات الملك، ضاعت الرعية.
٢.وفي آذانهم وقر: الوَقر هو الثقل والصمم .آذانهم ثقيلة عن سماع الحق، لا تستسيغه ولا تلتذ به . بينما هي خفيفة سريعة لكل باطل!
٣.حجاب بيننا وبينك: وهنا يصلون إلى قمة المكابرة، فيجعلون بينهم وبين الداعية سدًا وحاجزًا .إنها المقاطعة الكاملة، ورفض الحوار، وإغلاق باب التواصل.

ما هي الرسالة النفسية هنا؟
هذه صورة مرعبة لما يفعله الإعراض المتواصل بالقلب. إنه يتراكم حتى يصير غلافًا، ويصير ثقلا ً في السمع، ثم يتحول إلى جدار فاصل. إنها عملية تدريجية! البداية ذنب صغير، ثم إلف للمعصية، ثم ران على القلب، ثم طمس كامل. فاحذر هذا المسلسل المرعب، وراقب قلبك دائمًا!

المفهوم التربوي العملي:
هذا المشهد يعلمك في تربية أبنائك وطلابك ألا تهمل البدايات الصغيرة للانحراف. تعامل مع الذنب الصغير قبل أن يصبح غلافًا على القلب. وكما أنهم اعترفوا بمرضهم، فعليك أنت أن تراقب نفسك وتسألها: هل بدأت أشعر بثقل في الطاعات؟ هل صرت أجد في قلبي نفورًا من سماع الموعظة؟ ساعتها، بادر إلى العلاج بالتوبة والاستغفار ومجالسة الصالحين قبل أن يتحول النفور إلى حجاب.

الوقفة الخامسة: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ ... التحدي السافر والعزيمة على الباطل

ثم يختمون كلامهم بهذا التحدي الوقح: "فاعمل إننا عاملون"! إنهم لا يقولون: دعنا من هذا، بل يتحدون رسول الله ويتوعدونه بأنهم ثابتون على باطلهم، عاملون في طريق الضلال، كما أنه عامل في طريق الهدى. إنها قمة الإصرار والعناد، بعد أن سدوا على أنفسهم كل طرق الهداية.

الدرس العملي لنا:

هذا الموقف يضعنا أمام حقيقة: أن أهل الباطل ليسوا خاملين ولا نائمين. إنهم "عاملون" في نشر باطلهم، مخططون، متحدون، ومستمرون. فهل يليق بأهل الحق أن يكونوا متكاسلين متخاذلين؟ إن قولهم: "إننا عاملون" يجب أن يوقظنا ويشعل فينا الحماس لنكون أكثر عملًا وإتقانًا وتخطيطًا لديننا وحياتنا، لا أن نكتفي بالشعارات. إذا كان أعداء الدين يعملون بهذه الجدية لباطلهم، فكيف يكون عملنا للحق؟

الوقفة السادسة: الرسائل النفسية والفكرية والتربوية من الآيتين

والآن، دعني ألخص لك الرسائل العميقة التي تلمس بها شغاف قلبك:

.١الرسالة الفكرية:

· الإعراض عن الحق ليس مشكلة بيان، بل مشكلة استكبار ومرض قلب.
· وضوح الحجة لا يكفي وحده لهداية الناس، فلا بد من استعداد القلب وتوفيق الله.
· طريق الدعوة مليء بالمكذبين والمعرضين، وهذه سنة كونية، فلا تبتئس.
· الباطل منظم ولديه "خطط عمل"، فيجب أن نتفوق عليه بالتخطيط والجدية.

.٢الرسالة النفسية:

· لا تحمل هم هداية الناس فوق طاقتك، فأنت عليك البلاغ، والقلوب بيد الله. هذا يريح نفسيتك من الضغط.
· لا تحزن ولا تيأس من كثرة المعرضين، فهذا دأب الرسل من قبلك.
· راقب قلبك! الإعراض يبدأ صغيرًا ثم يتحول إلى مرض عضال، فكن يقظًا.

.٣الرسالة التربوية:

· التوازن بين الترغيب والترهيب (بشيرًا ونذيرًا) هو أساس التربية الناجحة.
· الانتباه إلى "سماع القلب" لا "سماع الأذن" فقط، في تعليم أبنائنا. اسألهم دائمًا: ماذا فهمتم؟ وماذا ستغيرون في حياتكم؟
· تدارك الأخطاء الصغيرة قبل أن تتحول إلى "أكنة" على القلوب.

الوقفة السابعة: كيف تحول هذه الآيات طاقة بناء للإنسان والمجتمع والحضارة؟

هذه الآيات ليست مجرد وصف لحالة تاريخية، بل هي منهج لبناء الإنسان المعاصر:

.1بناء إنسان متوازن: بفهم "بشيرًا ونذيرًا"، تعيش بين الرجاء والخوف، فلا تيأس ولا تغتر .هذا هو ا لاستقرار النفسي الحقيقي.
.2بناء مجتمع واع: بفهم أن الإعراض يبدأ من "القلب"، نهتم ببناء قلوب أبنائنا ومجتمعاتنا بالإيمان قبل بناء عقولهم بالمعلومات.
.3بناء حضارة جادة: حين نسمع تحديهم: "إنا عاملون"، ندرك أن الحضارة لا تُبنى بالأماني، بل بالعمل الدؤوب المنظم .أهل الباطل يعملون ٢٤ ساعة لهدم القيم، فأهل الحق أولى بالعمل ٤٨ ساعة لنشر الخير والنور.

خاتمة عملية: ماذا يريد الله منا؟

· أن نوقن أن المشكلة ليست في الإسلام، بل فيمن أعرضوا عنه. فاثبت ولا تشك في طريقك.
· أن نتعامل مع الناس بمنهج "بشيرًا ونذيرًا". كن مبشرًا محببًا، ونذيرًا محذرًا، واجمع بينهما بحكمة.
· ألا نكون من "الذين لا يسمعون" انتقائيًا، نسمع ما يوافق هوى أنفسنا ونعرض عما سواه.
· أن نحمي قلوبنا من "الأكنة" بمداومة الذكر والطاعة، فإن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد، وجلاؤه كتاب الله.
· ألا نجلس مكتوفي الأيدي أمام تحديات المفسدين، بل نواجه عملهم بعمل أشد وأقوى وأذكى، في كل مجال من مجالات الحياة.

يا عبد الله، الكتاب واضح مفصّل، والطريق مستقيم بيّن، والله رحمن رحيم. فهل ستكون من القلة

التي سمعت فأطاعت، أم من الغالبية التي قالت: "قلوبنا في أكنة"؟ القرار لك، والساعة تعمل، فاعمل لنفسك ما ينفعها قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه عمل.

رابعا

يا من خضنا معًا رحلة التأمل في كتاب الله، ووقفنا على عظمة تنزيله، ووضوح آياته، ثم رأينا بأعيننا مشهد المعرضين وهم يغلقون قلوبهم وآذانهم، ويديرون ظهورهم للحق الواضح... يأتي الجواب الإلهي بعد هذا المشهد الحزين مباشرة. وكأن الله يقول لنبيه ﷺ بعد أن أمعن قومه في الإعراض: لا تحزن ولا تبتئس، بل قم وقل لهم ما يزلزل كبرياءهم ويوقظ فطرتهم. قل لهم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٧﴾.

توقف قليلا ً وتأمل هذه الآية وكأنها نزلت عليك لتوها. إنها ليست مجرد توجيه للنبي ﷺ، بل هي دستور شامل لك أيها المؤمن؛ دستور يمس جوهر التكوين الإنساني في أعماقه، فيصلح تصوراته، ويهذب نفسه، ويعيد توجيه عقله وفكره. فهيا بنا ندخل إلى هذه الآية باحثين عن كنوزها، مستخرجين دررها، لنرى كيف تعيد صياغة الإنسان والمجتمع والحضارة من جديد.

المقدمة: رسالة إلى كل باحث عن الحقيقة

بعد أن وصف الله كتابه بأنه "تنزيل من الرحمن الرحيم"، و"كتاب فصلت آياته"، وبعد أن صدمنا بإعراض الأكثرين وهم يقولون: "قلوبنا في أكنة"، يأتي الرد الإلهي الحاسم. إنه توجيه للنبي ﷺ بأن يعلن حقيقة نفسه وحقيقة الرسالة بكل وضوح وتواضع. هذا الرد يضع الأمور في نصابها، ويزيل كل ا لأوهام التي قد يتعلق بها المعرضون. إنهم يطلبون آيات خارقة، أو يريدون نبيًا من جنس الملائكة، فيأتي الجواب: لا. أنا لست ملكًا، بل ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. ولكن، هناك فارق واحد جوهري لا يفهمه إ لا من أوتي لبًا: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾. هذه الآية هي خلاصة العقيدة، ومنطلق العمل، وقاعدة بناء النفس و المجتمع.

الوقفة الأولى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ... درس التواضع وشفافية المنهج

انظر كيف تبدأ الآية بأمر مباشر: ﴿قُلْ﴾. وكأن الله يقول لنبيه: لا تخف، أعلنها صريحة مدوية، ليس في رسالتنا سر ولا غموض. ثم يستخدم أداة الحصر ﴿إِنَّمَآ﴾ ليؤكد الحقيقة وينفي ما عداها. ما هي هذه الحقيقة؟ "أنا بشرٌ مثلكم".

تخيل معي مشهد قريش وهي تطلب من النبي ﷺ أن يفجر لهم الأرض ينابيع، أو أن يسقط السماء عليهم كسفًا. ثم يأتيهم هذا الرد الهادئ الواثق: أنا لست ملكًا ولا إلهًا، بل أنا بشرٌ من لحم ودم، آكل الطعام وأمشي في الأسواق. هذا الإعلان هو في ذروة الصدق مع النفس ومع الناس.

الدلالة النفسية العميقة:
لماذا كل هذا التركيز على بشرية النبي؟ لأن في ذلك تطمينًا عظيمًا للنفس البشرية. فأنت أيها الإنسان حين تسمع أن القدوة والمبلغ عن الله هو بشر مثلك، تشعر بالألفة والقرب. فلو كان ملكًا لقلت: "أنّى لي أن أبلغ ما بلغ، فهو ملك وأنا بشر ضعيف". لكنه بشر، جاع كما تجوع، وحزن كما تحزن، وتألم كما تتألم، ومع ذلك ارتقى إلى أعلى عليين. هذا يملأ قلبك بالأمل: أنا أيضًا أستطيع!

مثال تقريبي:
هل سبق لك أن رأيت شخصًا ناجحًا جدًا فشعرت أنه من كوكب آخر، وأنك لا يمكن أن تكون مثله أبدًا؟ ثم حين اقتربت منه، اكتشفت أنه كان يعاني مما تعاني، وأنه بدأ من حيث بدأت، فشعرت فجأة بطاقة وثقة؟ هذا تمامًا ما يفعله إعلان البشرية. إنه يهدم الحواجز النفسية بينك وبين الكمال.

الدرس العملي الأول:
في دعوتك إلى الله، وفي تعليمك للناس، وفي تربيتك لأبنائك، كن "بشرًا مثلهم". لا تتصنع الكمال المطلق، ولا تضع نفسك في برج عاجي. شاركهم نقاط ضعفك وكيف تتغلب عليها، سيشعرون بالثقة في أنفسهم وفي منهجك. المنهج الإسلامي منهج واضح، قائده بشر، وأتباعه بشر، وطريقه إلى الله معبد للجميع.

الوقفة الثانية: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ... المصدر الإلهي الذي يصنع الفارق

ولكن، هل يعني كونه "بشرًا مثلكم" أنه لا فرق بينه وبينكم؟ كلا! وهنا يأتي الاستدراك العظيم: ﴿يُوحَىٰٓ

إِلَيَّ}. نعم، هو بشر في جوهره الإنساني، لكن الله اصطفاه وفضله بالوحي. هذا هو المصدر الوحيد الذي يمنحه التميز. إنه ليس عبقريًا بذكائه، ولا فيلسوفًا بفكره، ولا مصلحًا اجتماعيًا بخبرته، بل هو نبي يوحى إليه من رب العالمين.

الدلالة الفكرية:
هذه العبارة تبني في العقل المؤمن مفهومًا خطيرًا: مصدر التلقي والمعرفة هو الوحي الإلهي، لا العقل البشري المحض. العقل نعمة، لكنه يخطئ ويصيب. أما الوحي فمعصوم. فكل ما جاء به النبي ﷺ من أخبار الغيب وأصول الشرائع، مصدره السماء.

رسالة عقلية ووجدانية:
هنا تسقط كل الأعذار! عندما يقول لك بشر مثلك: "إنما إلهكم إله واحد"، فهذه ليست فلسفته الخاصة، بل وحي من الله. وحين يكون المصدر هو الله، فالتكذيب لم يعد تكذيبًا لهذا البشر، بل تكذيبًا لله الذي أرسله. أرأيت كيف يرتقي الحوار من مستوى الجدال مع شخص، إلى مستوى الإيمان بالله أو الكفر به؟ هذا يزرع في نفس الداعية هيبة الرسالة، فلا يضيق صدره بتكذيب الناس له، لأنهم في الحقيقة يكذبون من أرسله.

الدرس العملي الثاني:
عندما تواجه شبهة أو فكرة تخالف الدين، اسأل نفسك: ما هو المصدر؟ إن كان المصدر وحيًا، فسلم واتبع. وإن كان المصدر رأيًا بشريًا، فاعرضه على الوحي. هذه القاعدة تحميك من التيه الفكري. وفي حياتك اليومية، عندما تعطي نصيحة أو توجيهًا، اربطه بمصدره الإلهي. لا تقل: "أنا أرى كذا"، بل قل: " الله يقول كذا، ورسوله يقول كذا". هذا يجعل كلامك أقوى وأوقع في النفوس.

الوقفة الثالثة: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ... مركزية التوحيد في إصلاح النفس والمجتمع

هذا هو جوهر الوحي وقمته: "أنما إلهكم إله واحد". هو الخبر العظيم الذي من أجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب. لماذا كل هذا التأكيد؟ لأن التوحيد ليس مجرد كلمة تقال، بل هو النواة التي تنبثق منها كل التصورات الصحيحة عن الوجود والحياة والإنسان.

الدلالة الفكرية والنفسية:
تخيل إنسانًا يعبد آلهة متعددة؛ إلهًا للخير، وإلهًا للشر، وإلهًا للريح... إنه يعيش في قلق وتشتت، يرضي هذا فيغضب ذاك. أما من يؤمن بإله واحد رحمن رحيم، أحد فرد صمد، فإن نفسه تستقر وتطمئن. يعلم أن مربيه واحد، ورازقه واحد، وملجأه واحد.

مثال تقريبي:
هل سبق لك أن عملت في مؤسسة لها مديران متساويان في الصلاحية؟ كل واحد يعطيك توجيهًا مختلفًا! أين ستجد الراحة؟ بالتأكيد ستكون في حيرة وقلق دائمين. هكذا حال القلب الذي يتعلق بغير الله. يشتت نفسه بين الأهواء، والأشخاص، والأصنام. أما القلب الموحد، فيعرف أن له ربًا واحدًا، فيهدأ ويسكن.

الأثر التربوي والعملي:
عندما تثبّت هذا المعنى في قلبك، تتحرر من كل عبودية لغير الله. لا يستعبدك مدير أو مسؤول، ولا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله. هذه هي الحرية الحقة! في تربية الأبناء، لا تكرر عليهم لفظ "قل هو الله أحد" فحسب، بل اغرس فيهم معنى أن الله واحد، فيرونه حاضرًا في كل تفاصيل حياتهم؛ يرزقهم ويشفيهم ويهديهم، فلا يلتفتوا لغيره.

الوقفة الرابعة: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ... بلاغة التعبير القرآني التي تبني الإخلاص

والآن تأتي الثمرة العملية للتوحيد: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾. قف معي طويلا ً عند حرف الجر "إلى"! لم يقل القرآن: "استقيموا" فقط، ولا "استقيموا له"، بل قال: ﴿إِلَيۡهِ﴾. ما السر البياني والتربوي وراء هذا الحرف؟

"استقام على" تعني سار على الطريق دون انحراف، لكنها قد تكون استقامة شكلية، أو استقامة لغرض دنيوي .قد يستقيم الإنسان لأنه يخاف القانون، أو لأنه يريد أن يحافظ على سمعته بين الناس، أو لأ نه تعود على العادات والتقاليد .هذه استقامة، لكنها لا توصل إلى الله .أما ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فتعني: اجعلوا استقامتكم طريقًا سالكًا إليه، موصلا ً إلى بابه الكريم.

اللمسة البيانية:
"إلى" لانتهاء الغاية. فأنت في صلاتك، في صيامك، في صدقتك، في عملك، تسير "إلى" الله. هو مقصدك وغايتك. هذا يلغي الرياء، ويلغي العمل للدنيا، ويجعل كل حركة منك خالصة لوجهه الكريم.

رسالة نفسية وتربوية:
كم منا يصلي لكن قلبه ليس مع الله؟ هذا حصل على حركة الجسد ولم يحصل على ثمرة الروح. الآ ية تصرخ فينا: أخلصوا! انووا الوصول إلى الله بكل عمل تعملونه. عندما تذهب إلى عملك، اجعل نيتك أن تعول أسرتك وتخدم أمتك ابتغاء وجه الله، فتنقلب عادتك إلى عبادة.

الدرس العملي الثالث:
قبل أي عمل، قف واسأل نفسك: إلى أين أنا ذاهب بهذا العمل؟ هل هو "إلى" الله، أم "إلى" مديح فلا ن، أو "إلى" راتب الشهر فقط؟ جاهد نفسك على تصحيح النية، وستشعر بحلاوة الإيمان.

الوقفة الخامسة: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ ... إقرار بالعجز البشري ودواء لآفات الاستقامة

لما كانت الاستقامة الكاملة من غير خلل ولا تقصير غير ممكنة لبشر، وما دام النبي ﷺ بشرًا مثلكم، فقد شرع الله لنا دواءً يعالج به الخلل. أمرنا بالاستغفار. انظر إلى لطف الله: أنت قد تضعف في استقامتك، لكنه يفتح لك باب الرجعة والتطهير دائمًا.

العلاقة بين الاستقامة والاستغفار:
هما جناحان لا يطير المؤمن بدونهما. الاستقامة هي الطريق، والاستغفار هو وقود السيارة الذي يزيل الشوائب. لا تقل: سأستقيم ثم أستغفر! بل استقم واستغفر معًا. قال بعض السلف: "إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة، لأنه لا يزال نصب عينيه، كلما ذكره استغفر وأناب". فصاحب الاستغفار دائم الصلة بالله.

الدلالة النفسية:
هذا الأمر يمنع اليأس. الشيطان يوهمك أنك لست أهلا ً للاستقامة لأنك مذنب. والقرآن يقول لك: بل أنتَ مدعوّ للاستقامة والاستغفار معًا. هذا يعطيك اتزانًا نفسيًا؛ فأنت لا تغتر بعملك فتتكبر، ولا تيأس من تقصيرك فتنقطع. أنت في مد وجزر دائمين مع الله، لكنك تعود إليه دائمًا.

مثال تقريبي:
تخيل سفينة تبحر في البحر. الاستقامة هي الدفة التي تجعلها تسير في الاتجاه الصحيح. لكن لا بد أن تلطمها الأمواج، ويصيب بدنها شيء من الصدأ. الاستغفار هو عملية الصيانة والتنظيف المستمرة لهذه السفينة، لتبقى صالحة للإبحار حتى تصل إلى شاطئ النجاة.

الدرس العملي الرابع:
خصّص لنفسك وقتًا في اليوم، ولو دقائق، تجلس فيها مع نفسك وتحاسبها وتستغفر الله. قل: "رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري". هذا هو سر تجديد الإيمان في قلبك.

الوقفة السادسة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٧﴾ ... تفسير الوعيد وشمولية الزكاة

بعد الأمر بالاستقامة والاستغفار، يأتي التحذير من الطريق المقابل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾. الويل: كلمة عذاب وهلاك ودمار. فقد بين الله الطريقين: طريق الاستقامة إليه، وطريق الشرك المؤدي إلى الويل.

ثم يصف المشركين بوصفين خطيرين:

1. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: وهنا تكمن اعجاز النظم القرآنية! اختلف المفسرون في معنى الزكاة هنا، وكلاهما حق وعميق:
· القول الأول) ابن عباس وعكرمة(: الزكاة هنا هي زكاة النفس، أي توحيد الله والإخلاص له، وشهادة أن لا إله إلا الله .فالزكاة في أصل اللغة هي النماء والطهارة .فالمشرك لم يطهر نفسه من دنس الشرك، فبقيت نجسة خبيثة.
· القول الثاني) قتادة وابن جرير الطبري(: الزكاة هنا هي زكاة المال المفروضة .والمشركون لا يؤدونها ولا يقرون بها .وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين.

· والراجح أن الآية تشمل المعنيين معًا، ولا تعارض بينهما .فالمشرك لا يطهر نفسه بالتوحيد، ولا يطهر ماله بالصدقة .فهو خبث في النفس والمال معًا.
.2{وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ}: وتأتي هذه الصفة لتكون نتيجة للأولى وسببًا فيها .فالمشرك الذي لا يزكي نفسه بالتوحيد، ولا يزكي ماله بالصدقة، هو حتمًا كافر بالآخرة .وكونه كافرًا بالآخرة هو الذي جعله لا يزكي، لأنه لا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا .إنها دائرة مغلقة!

الدلالة الفكرية والتربوية:
الزكاة -بمعنييها- هي قنطرة الإسلام، كما قيل. فهي دليل عملي على الإيمان. من لم يزك نفسه، ظل في دائرة الشرك. ومن لم يزك ماله، فإيمانه ناقص. ولذلك قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة، لأنهم فصلوا بين الإيمان والزكاة، فردهم إلى حقيقة الدين الجامع.

الدرس العملي الخامس:
الزكاة ليست مجرد ربع العشر. إنها مفهوم شامل لطهارة النفس وطهارة المال. اسأل نفسك: هل زكيت نفسك اليوم بالتوحيد والاستغفار؟ هل زكيت مالك بإخراج حق الفقراء؟ إن أردت النجاة من الويل، فاعبر قنطرة الزكاة بمعنييها.

الوقفة السابعة: كيف تبني هذه الآيات الإنسان والمجتمع والحضارة؟

قد يخطر ببالك سؤال: كيف يمكن لآيتين أن تكونا أساسًا لبناء حضارة كاملة؟ والإجابة هي أن أعظم الحضارات تقوم على أعظم الأفكار. وهذه الآيات تقدم للمسلم منظومة فكرية متكاملة:

أولا ً: بناء الإنسان (الفرد):

· إنسان متواضع: لأنه يعلم أن قائده وقدوته بشر مثله، فلا كبر ولا غرور.
· إنسان متصل بالسماء: لأنه يؤمن بأن المصدر هو الوحي، فيثق بمعرفته ولا يتيه.
· إنسان متمركز حول التوحيد: فلا تتوزعه الأهواء والمؤثرات.
· إنسان غائي: يعمل وفي قلبه غاية هي الوصول "إلى" الله، فيرتقي عمله من عادة إلى عبادة.
· إنسان متوازن: يجمع بين السعي للاستقامة والاعتراف بالتقصير بالاستغفار، فلا ييأس ولا يغتر.
· إنسان مزكّ: يطهر نفسه وماله، ويخرج حقوق الغير، فيسمو بنفسه ومجتمعه.

ثانيًا: بناء المجتمع:

· تخيل مجتمعًا كل فرد فيه مخلص لله في عمله .طبيب يعالج "إلى الله"، مهندس يبني "إلى الله"، معلم يدرّس "إلى الله" .مجتمع يسوده الإتقان، وتختفي منه الأمراض الاجتماعية التي يسببها حب الظهور.
· مجتمع قائم على التوحيد، لا يخضع فيه الناس لحكام ولا قوانين وضعية تخالف شرع الله، لأن مصدر التلقي واحد.
· مجتمع يسوده التراحم والتكافل، لأن أبناءه يؤتون الزكاة، فيشعر الفقير أنه أخ للمحسن لا عبد له.

ثالثًا: بناء الحضارة الإنسانية:

· الحضارة التي تقوم على هذا الأساس الفريد تقوم على التوازن بين المادة والروح .إنها حضارة لا تنظر إلى الإنسان على أنه مجرد جسد، بل جسد وروح.
· الاستغفار والاعتراف بالخطأ قيمة حضارية .في الحضارات المادية، الاعتراف بالخطأ فضيحة، أما في حضارتنا، فالاعتراف بالخطأ بداية الإصلاح .وهذا سر تقدمها وتجددها.

الخاتمة: ماذا يريد الله منا وما هي دروس الحياة العملية؟

لقد آن لنا أن نترجل من مركب التأمل النظري إلى يابسة العمل والتطبيق. بعد هذا البيان، ماذا يريد الله مني ومنك؟

.1كن واضحًا مع نفسك ومع الناس: اكسر حاجز الكبرياء .لا تدّعِ الكمال أمام أهلك وأصحابك، ولكن لا تنسَ أن تذكر أن ما بك من خير فهو بتوفيق الله ووحيه ومنهجه، لا بعبقريتك أنت.
.2صحح بوصلتك: قبل أن تبدأ أي عمل، اسأل نفسك: هل هذه الاستقامة "إلى" الله؟ أخلص النية، واحتسب الأجر .العمل الذي لا يراد به وجه الله، وإن كثر، لا وزن له عند الله.

.3لا تترك نفسك للصدأ: مهما كنت صالحًا ومستقيمًا، لا بد لك من خلل .فالزم الاستغفار .هو سلاح ا لأنبياء والأتقياء.
.4طهّر نفسك ومالك: ادفع زكاة نفسك بأن تجدد التوحيد في قلبك صباح مساء .وادفع زكاة مالك لتطهره وتنمي به مجتمعك .لا تكن ممن يكدس المال ولا ينفع به عباد الله.
.5تعامل برحمة: تذكر دومًا أنك "بشر مثلهم" .من أخطأ إليك، عامله بالرحمة واطلب له الهداية .من قصر في حقك، استغفر له .هكذا تكون ربانيًا حقًا.
.6في أوقات الفتن والحيرة: إذا اختلطت عليك الأمور، وغمضت في وجهك المسالك، فعد إلى هذه ا لآية: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ .إياك إياك والالتفات يمنة أو يسرة .استقم إلى الله وحده، واستغفره من ذنوبك، فهو المنقذ والهادي.

يا عبد الله، هذا هو الطريق: بشرية، ووحي، وتوحيد، واستقامة، واستغفار، وزكاة، وإيمان بالآخرة. منهج متكامل، يبدأ من أعماق النفس ليصل إلى آفاق الحضارة. فاستقم إليه، واستغفره، يهدك ويسعدك في الدنيا والآخرة.

خامسا

يا من آنستَ قلبه ببشائر "تنزيل من الرحمن الرحيم"، واطمأنت نفسه بوضوح "كتاب فُصّلت آياته"، وتألمت روحه لقسوة "فأعرض أكثرهم"، ثم انتعشت بأن طريقه هو "الاستقامة إليه"، تعالَ لنقف معًا على مشهد يثلج الصدر، ويُذهب عن النفس عناءها، ويُريك بعين اليقين عاقبة من آمن حقًا.

بعد أن صور لنا الله عز وجل الفريق المعرض، وختم بالويل للمشركين التاركين للزكاة والكافرين بالآ خرة، يأتي الآن بمشهد النور بعد الظلمة. إنه قانون الابتلاء الإلهي: لا يُذكر وعيد إلا ويتلوه وعد، ولا تحذير إلا وبعده تبشير. إنها الرحمة التي تطمئن قلبك وتقول لك: كل تعبك في هذه الدنيا له نهاية سعيدة، وكل عمل صالح لك فيه أجر لا ينقطع.

تأمل قوله جلّ ذكره:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾

هذه الآية القصيرة في مبناها، العظيمة في معناها، هي صكّ النجاة، ووعد الحق الذي لا يُخلف. إنها تمس جوهر التكوين الإنساني في أعمق طبقاته؛ فتخاطب فيه حاجة الفطرة إلى الأمان، والبحث عن الخلود، والتطلع إلى جزاء لا يعتريه نقص ولا انقطاع. فهيا بنا نقف مع هذه الآية وقفات المتأمل المحب، لنستخرج كنوزها، ونجعلها نبراسًا لحياتنا العملية.

الوقفة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ... جذور الشجرة المثمرة

انظر كيف افتتحت الآية بـ "إن"، المؤكدة المطمئنة. "إن الذين آمنوا"... كل شيء يبدأ من هنا: الإ يمان. إنه العقد القلبي الذي يربطك بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا ً. إنه الجذر الذي يغرس في أعماق الروح، ويمدها بغذائها من معين السماء. بدون هذا الإيمان، تكون الأعمال هباءً منثورًا، كشجرة بلا جذور، سرعان ما تذبل.

الدلالة التربوية والنفسية:
الإيمان هو الذي يعطي الحياة معنى وقيمة. فحين تؤمن، يصبح لك هدف أسمى من مجرد الأكل و الشرب. أنت تعمل لرب عظيم، رحيم، كريم. هذا الإيمان يملأ قلبك طمأنينة دائمة: لستَ وحدك في هذا الكون، فالله معك، يسمعك، يراك، يعينك.

الدرس العملي الأول:
تفقد إيمانك دائمًا. اجعل لك وِردًا يوميًا من القرآن والذكر والتفكر، فهذا هو ماء الجذور. اسأل نفسك كل يوم: هل قلبي معلق بالله حقًا؟ هل أزداد يقينًا كلما مر بي يوم؟ الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فحسب، بل هو حقيقة تتجدد وتزيد، فيزيد معها عملك وإخلاصك.

الوقفة الثانية: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ... الثمرة اليانعة التي ترجى بها النجاة

لم تقل الآية: "إن الذين آمنوا لهم أجر غير ممنون"، بل أضافت شرطًا عمليًا هو: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. الإ يمان وحده لا يكفي، لا بد أن يتبعه العمل الصالح ليصبح الإيمان حقيقة واقعة في الأرض. العمل الصالح هو الثمرة التي تدل على حياة الشجرة. الإيمان هو العقيدة، والعمل الصالح هو الشريعة. وهما معًا كالروح والجسد، لا غنى لأحدهما عن الآخر.

الدلالة الفكرية:
هنا تتجلى شمولية الإسلام ولكنه واقعي وعملي. إنه ليس أماني ولا فلسفات مجردة. إنه إيمان يتحول إلى صلاة، وزكاة، وصوم، وصدق، وأمانة، وجهاد، ونفع للناس. لم يطلب منك الله أن تعتزل في محراب وتسبح فقط، بل طلب منك أن تنزل إلى أرض الواقع، وتبني، وتنفع، وتصلح، وتجاهد.

مثال تقريبي:
تخيل طبيبًا يؤمن بالله، لكنه لا يتقن عمله، ولا يقرأ الحديث في تخصصه. إيمانه حبيس في قلبه، لكنه لم يُثمر عملا ً صالحًا يشفي به الناس. وآخر ماهر جدًا لكنه ملحد، لا يحتسب أجره عند الله. ا لأول نقصه العمل المتقن، والثاني نقصه الإيمان. أما البطل الحقيقي فهو من جمع بين الإيمان والإ تقان.

الدرس العملي الثاني:
اجعل إيمانك محركًا لعمل دائم. صلاتك عمل صالح، وزكاتك عمل صالح، وابتسامتك في وجه أخيك، وكف الأذى عن الطريق، وإتقانك في وظيفتك، وتربيتك لأولادك... كلها أعمال صالحة إن نويت بها وجه الله. لا تستصغر شيئًا من المعروف. واسأل نفسك كل مساء: ماذا عملتُ اليوم من الصالحات؟ فإن وجدت خيرًا فاحمد الله، وإن وجدت غير ذلك فاستغفر وأصلح.

الوقفة الثالثة: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ... كنز الدنيا والآخرة

وهنا، بعد الإيمان والعمل، يأتي الجزاء الذي يستحق أن نبذل لأجله كل غالٍ ونفيس: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. دعنا نقف مع كلمتي "أجر" و"غير ممنون" وقفة تحليلية تعمّق اليقين في قلبك.

· "أجر": اختيار لفظ "الأجر" بدل "الثواب" أو "الجزاء"، له دلالة عميقة. الأجر في اللغة هو ما يُعطى مقابل عمل. هذا يعني أن الجنة والنعيم ليسا مجرد هبة جزافية، بل هو شيء تستحقه بعملك، وإن كان هذا العمل لا يساوي شيئًا أمام فضل الله، لكن الله برحمته جعله سببًا. هذا الشعور يرفع من همتك، ويملأك فرحًا، فأنت تأخذ أجرًا أنت سببته بجهدك.
· "غَيْرُ مَمْنُونٍ": هذه هي الدرة الثمينة في الآية. كلمة "ممنون" من "المنّ"، ولها معنيان، وكلاهما يزيدان الأجر كمالا ً:
1. غير مقطوع: أي أجرٌ لا ينقطع أبدًا. ليس كأجر الدنيا، تعمل اليوم وتأخذ جُعلًا، ثم ينتهي. بل هو دائم متصل إلى ما لا نهاية. في الجنة، تشتهي فتُؤتى، وتطلب فتُعطى، ولا خوف من زوال النعيم.
2. غير منقوص ولا يُمَنّ به: أي لا يُمنّ عليك به. يأتيك هذا الأجر عزيزًا كريمًا، لا يذكرك الله بذنوبك، ولا يمنّ عليك بأنه أعطاك. بل هو فضل محض، وعطاء بلا شروط لاحقة. الله أكرم من أن يمنّ عليك إذا أعطاك.

الدلالة النفسية العميقة:
النفس البشرية بطبعها تحب الخلود وتكره الانقطاع. كم تفعل من أعمال في الدنيا، ثم يأتي يوم تخسر فيه ما جنيت، إما بموت، أو بفقدان مال، أو بزوال نعمة. هذا الفناء يورث القلق. أما أجر الآ خرة، فهو "غير ممنون": لا ينقطع ولا ينقص ولا يعتريه كدر. تصور أن كل تعبك، كل صبرك، كل كظمك للغيظ، كل جهادك... سيتحول إلى نعيم مقيم دائم أبدي. هذا اليقين يملأ قلبك سكينة عجيبة، ويجعلك ترى مشاق الدنيا لحظات عابرة، لا تقارن بما ينتظرك.

مثال تقريبي:
مثل الدنيا والآخرة كمثل عاملين، أحدهما يعمل لقاء أجر يومي، إذا مرض يومًا انقطع أجره وبقي جائعًا. والآخر يعمل لدى ملك كريم، كتب له عقدًا مؤبدًا بأجر لا يتوقف، حتى لو نام أو مرض، بل إذا أحسن زاده. أيهما ستختار أن تكون؟ لذا كان الصالحون يقولون: "إنما هي أنفاس تعد، فكلما ذهب نفس ذهب بعضك، فاغتنم ما بقي فيما ينفعك".

الدرس العملي الثالث:
عندما تواجه صعوبة في العبادة، أو تثقل عليك الطاعة، تذكر: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. أجرك ليس هنا، بل هناك. لا تطلب ثمرة عملك فورًا في الدنيا. أنت تعمل لجهة لا يفلس خزائنها شيء، وتعطي بلا مقابل فوري لأن أجرك عند الله غير منقطع. كلما شعرت بالإحباط، قل لنفسك: أنا لا أعمل لأجرٍ ينقطع ، بل لأجر دائم، فاصبري.

الوقفة الرابعة: كيف تبني هذه الآية الإنسان والمجتمع والحضارة؟

قد تتعجب وتسأل: كيف لآية واحدة قصيرة أن تكون أساسًا لبناء كل هذه المعاني الكبيرة؟ والجواب: إن الحضارات لا تُبنى فقط بالعمران المادي، بل تُبنى أولا ً بالنفس البشرية المتوازنة، المفعمة بالأمل، الواثقة في جزائها. وهذه الآية تصنع هذه النفس:

أولا ً: بناء الإنسان (الفرد المتوازن):

.1إنسان آمن: لأنه يعيش وهو يعلم أن له ربًا يحاسبه بالعدل ويكافئه بالفضل .هو ليس هملا ً في هذه الحياة.
.2إنسان عامل منتج: لأنه يعلم أن الإيمان لا يكتمل إلا بالعمل .فهو لا يقعد متواكلا ً، بل يكدح ويبني ويصلح، محولا ً إيمانه إلى طاقة حركية في المجتمع.
.3إنسان ممتلئ بالأمل: تحرره الآية من عقدة الخوف من المستقبل .مستقبله مضمون عند الله بأجر غير ممنون .هذا الأمل يجعله صابرًا على البلاء، ثابتًا عند المحن، لأنه يرى بعين البصيرة ما لا يراه غيره.
.4إنسان مخلص: الأجر "غير الممنون" يعني أنه خالص من شوائب المن والأذى، وذلك يقتضي أن يكون هو أيضًا خالصًا في عمله لله، لا يمنّ على الناس بما يفعل.

ثانيًا: بناء المجتمع الحي:
تخيل مجتمعًا كل فرد فيه يعمل الصالحات، يحتسب الأجر عند الله، ولا ينتظر من البشر جزاءً ولا شكورًا. ماذا ستكون النتيجة؟

· يزدهر العطاء والبذل والتضحية، لأن الباعث هو الأجر الأخروي غير الممنون.
· تقل النزاعات الناتجة عن تمنن الناس على بعضهم، لأن المؤمن يوقن أن أجره على الله لا على الناس.
· ينتشر الإتقان في الأعمال، لأن المؤمن يعمل وفي ذهنه أنه سيُجزى على كل ذرة خير.

ثالثًا: بناء الحضارة الراسخة:
الحضارات المادية تُبنى على أجر دنيوي مقطوع: المال، الشهرة، اللذة. وهذه كلها ممنونة، تنقطع بموت صاحبها أو بزوال أسبابها. أما الحضارة التي تبنيها هذه الآية، فتقوم على أجر غير ممنون، مما يعطيها استمرارية في البذل والعمل، حتى لو تأخرت الثمرة في الدنيا. العلماء يكتشفون، والمخترعون يبدعون، والجنود يجاهدون، والمربون يعلمون، وكلهم يرجون أجرًا لا ينقطع. هذه الحضارة لا تموت، ونورها لا يخبو، لأن محركها الداخلي هو الوعد الإلهي ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

الخاتمة: ماذا يريد الله منا وكيف نعيش الآية واقعًا عمليًا؟

لقد آن الأوان لكي نجعل هذه الآية تنبض حياة في واقعنا. ماذا يريد منا المولى سبحانه وتعالى أن نتعلمه ونطبقه؟

.١اجعل إيمانك متحركًا لا ساكنًا:
لا تكتفِ بأن تقول "أنا مؤمن" وتقف. بل ليكن إيمانك قوة دافعة لكل خير. كل يوم، اسأل نفسك: ماذا سأفعل اليوم من العمل الصالح؟ اجعل لك هدفًا يوميًا، ولو كان بسيطًا: ابتسامة، مُساعَدة محتاج، قراءة حزب من القرآن، صلة رحم. تذكر أن الأجر غير الممنون يشمل كل صغيرة وكبيرة.

.٢لا تنظر إلى حجم العمل، ولكن انظر إلى حجم النية والاحتساب:
قد تظن أن عملك صغير، لكن عند الله قد يكون كبيرًا. فرب درهم سبق ألف درهم، ليس بكثرة المال، ولكن بخلوص النية وصدق الاحتساب. إذا عملتَ، انوِ به وجه الله، واستشعر أنك إنما تعمل لأجر غير ممنون، فيعظم شأنه عندك.

.٣اصبر على البلاء والإحباط:
في طريق العمل الصالح ستواجه العقبات، ستُخذل من الناس، ستشعر بالتعب، وربما لا ترى ثمرة فورية. في تلك اللحظة، ارفع رأسك إلى السماء وقل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾. أجرك ليس من الناس، أجرك عند الله، وهو باقٍ غير منقطع. هذه الآية هي شاحن عاطفي ونفسي يقويك كلما ضعفت.

٤.تحرر من عقدة "المنّ":
إذا فعلت معروفًا لأحد، لا تمنُن عليه. تذكر أن الله لم يجعل أجرك ممنونًا، فكيف تمنّ أنت على الخلق ؟ أعطِ وانسَ ما أعطيت، واجعل قلبك معلقًا بالأجر الرباني لا بالشكر البشري. هكذا ترتقي روحك، وتسلم نفسك من الحقد والغضب.

٥.الاستثمار في مشاريع ممتدة الأجر:
من فهم معنى "غير ممنون" بحث عن الأعمال التي يبقى أجرها بعد موته: صدقة جارية، علم ينتفع به، ولد صالح يدعو له. خطط لحياتك بعقلية الأجر الممتد. ازرع شجرة، علّم طالبًا، انشر خيرًا... فكل هذا يظل لك منه أجر غير ممنون حتى بعد رحيلك عن هذه الدنيا.

٦.عش مطمئنًا:
الأعظم من كل هذا، أن تعيش مطمئنًا. أنت لست في كون عبثي. حياتك لها معنى، وتعبك له قدر. كل دقيقة ألم، كل لحظة صبر، كل دمعة حزن، تدخر لك عند الله في رصيد لا ينفد. مهما بدت الدنيا مظلمة في وجهك، ثق أن الفجر قادم، وأن الأجر غير الممنون في انتظارك. هذه الطمأنينة هي أعظم ثمرة من ثمار هذه الآية في الدنيا قبل الآخرة.

اجعل هذه الآية دستورك، ورددها كل صباح، واستشعر معناها، وسوف ترى كيف تتحول حياتك إلى سير دؤوب إلى الله، مليء بالأمل والعمل والرضا.

القسم الثاني

المبحث الأول

يا من ذاقت روحه حلاوة الوعد القرآني، واطمأن قلبه إلى "أجر غير ممنون"، تعالَ نقف الآن على مشهد كوني مهيب، يخاطب العقل والقلب معًا، لترى كيف يبني القرآن العقلية التجريبية، وكيف يستخدم لغة الحوار والأدلة المادية المُشاهَدة ليقود البشر إلى أعظم حقائق الوجود.

بعد أن بين الله في الآيات السابقة طريقي الإيمان والكفر، وأعلن وعده للمؤمنين ووعيده للمكذبين، يأتي دور السؤال المنطقي الذي يفرضه كل عقل سليم: من هو هذا الإله الذي يستحق العبادة وحده؟ ما الدليل على ألوهيته وربوبيته؟ بدل أن يفرض الله الإجابة فرضًا، يفتح كتاب الكون المفتوح، ويأخذنا في رحلة حوارية عقلية ترى العين وتقنع العقل، لترسخ في القلب حقيقة التوحيد رسوخ الجبال.

يقول الله جل ذكره:
﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٢﴾

استمع إلى هذه الآيات وكأنها تنزل عليك الآن، في عصر العلم والتجربة .إنها تعلمك كيف تحاور الملحد والمشكك، وكيف تخاطب العالم بلغة الدليل المادي التي يفهمها ويذعن لها.

المقدمة: قيام الحجة بالآيات المنظورة والمقروءة معًا

لقد أنزل الله كتابين عظيمين:

- الكتاب المسموع: وهو القرآن الكريم، بآياته المتلوة المحكمة.
- والكتاب المنظور: وهو الكون الفسيح، بآياته المشاهدة الباهرة.

وفي هذه الآيات نموذج رباني بديع للدعوة إلى الله .فبدلا ً من أن يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول للمكذبين: "آمنوا بالله لأنه هكذا أقول!"، أمره أن يقف بهم وقفة العاقل مع العاقل، ويفتح أعينهم على ما يرونه كل يوم: الأرض التي يعيشون عليها، الجبال التي تثبتها، الأرزاق التي تنزل عليها، السماء التي تظلهم .إنه درس عظيم لكل داعية على مر العصور: استخدم لغة العصر ولغة العقل في دعوتك، فالدين لا يخاف من العلم، بل العلم في صالحه.

الوقفة الأولى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ...﴾ أسلوب الاستفهام التقريري الذي يوقظ العقول

لاحظ معي روعة الأسلوب القرآني: افتتحت الآية بـ ﴿قُل﴾، فهو أمر للنبي ﷺ أن يبلغهم هذا الكلام، فيه توثيق وتشريف للنبي كوسيط للوحي .ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ .إنها همزة استفهام، دخلت على "إن" المؤكدة، ثم لحقتها لام التوكيد ﴿لَتَكۡفُرُونَ﴾.

الدلالة البلاغية والعقلية:
الاستفهام هنا ليس استفهامًا حقيقيًا يطلب جوابًا، بل هو استفهام تعجبي إنكاري .كأنه يقول لهم: كيف يصدر منكم هذا؟! أتعقلون ما تفعلون؟! إنه أسلوب يهز الوجدان ويوقظ العقل من غفلته .إن الله ينزل منزلتهم كعقلاء يجب أن يفهموا ويتدبروا، لا كأطفال يلقنون .إنه أسلوب حواري يبدأ بسؤال، و السؤال يدفع العقل إلى التفكير والبحث عن الإجابة.

أهمية هذا الأسلوب للداعية:
أنت أيها الداعية، حين تدعو الناس، لا تبدأ بصب المعلومات صبًا .ابدأ بسؤال! اسأل الملحد: "هل خطر ببالك من خلق هذا الكون؟" اسأل الغافل: "ألم تر كيف تدور الحياة من حولك بنظام بديع؟" .السؤال يفتح مغاليق القلوب ويجعل المتلقي مشاركًا إيجابيًا لا مستقبلا ً سلبياً .القرآن يعلمنا فن الحوار والإ قناع، لا مجرد الإلقاء والإملاء.

الوقفة الثانية: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ لغة الزمن والتدرج التي تخاطب العقلية التجريبية

بدل أن يقول: "بالله"، وصفه بفعله العظيم: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ .إنه يوجه أنظارهم إلى دليل القدرة والعظمة: خلق الأرض .وذكر الزمن "في يومين" فيه إشارة لطيفة إلى التدرج في الخلق، وهذا منتهى ما تدعو إليه العلمانية التجريبية اليوم من التطور البطيء! فالقرآن يثبت أن هذا الكون الفسيح لم يأتِ دفعة واحدة، بل خلقه الله على مراحل مقدرة، وهذا مما يثبت الحكمة والعلم .فالله قادر على أن يخلقها بكن فيكون، ولكنه أراد أن يُري عباده أثر حكمته في التدرج والترتيب.

الدلالة العلمية والعقلية:
هذا يبني في ذهن المؤمن فكرة أن "السنة الإلهية" في الخلق تقوم على التدرج والأسباب، وأنك إن أردت بناء عظيمًا) سواء كان حضارة أو مشروعًا أو نفسًا بشرية(، فعليك بمنهج التدرج والمرحلية .إنها نقلة من مجرد خبر غيبي إلى قانون حياتي.

الدرس العملي للداعية:
عندما تدعو غير المسلمين، اربطهم بما يرونه .ليس بالضرورة أن يقرأوا كتابًا، فانظر معهم إلى "كتاب ا لأرض المنظور" .قل لهم: ألا ترون هذا الكوكب البديع الذي تعيشون عليه؟ فيه الماء والهواء والتربة الصالحة، على مسافة محددة من الشمس، لا قريبة فتحترق ولا بعيدة فتجمد .أيمكن أن يكون هذا كله صدفة؟ إن استخدام لغة الكون ولغة الأرقام والحساب) في يومين، في أربعة أيام (هي لغة يفهمها ويحترمها العالم المعاصر، فينبغي أن نتقنها في دعوتنا.

الوقفة الثالثة: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ دلائل الإعجاز التي تثبت صدق الوحي

انتقل الآن إلى التفصيل الدقيق في خلق الأرض! لاحظ تسلسل الآية الذي يضاهي أدق ما توصل إليه العلم الحديث في وصف مراحل تكوين الأرض.

· ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾: الرواسي هي الجبال الشامخة التي تثبت الأرض، كما في آيات أخرى .وقد أثبت العلم الحديث أن للجبال جذورًا تمتد في الأعماق كالأوتاد، تعمل على حفظ توازن القشرة الأرضية وتمنعها من الاضطراب والميلان .فسبحان الذي أنبأ بهذا قبل أربعة عشر قرنًا! هذا الإ عجاز العلمي يثبت أن هذا القرآن ليس من عند بشر، بل هو ﴿تنزِيلُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.
· ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: البركة هي النماء والدوام .انظر إلى هذه الأرض، إنها مهيأة بكل مقومات الحياة؛ الماء، الهواء، التربة الخصبة، المعادن، النفط ...نعم لا تعد ولا تحصى .كيف اجتمعت كل هذه العوامل الصالحة للحياة في كوكب واحد؟ إنها البركة الإلهية التي تجعلك تسجد شكرًا لا كفرًا.
· ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾: هذه هي الذروة في مخاطبة العقل العلمي ."قدّر" تعني أحصى وحدد وأوجد بنظام دقيق ."أقواتها" جمع قوت، وهو ما يقتاته الإنسان والحيوان .الله قدّر الأرزاق على هذه الأرض بنظام بيئي غاية في الدقة والإحكام .النبات يحتاج إلى تربة وماء وضوء، والحيوان يأكل النبات، والإ نسان يأكل من هذا وذاك .هناك سلاسل غذائية، ودورات بيوجيوكيميائية دقيقة .من الذي قدر هذه الأ قوات؟ هل الطبيعة الصماء؟ أم العليم الحكيم؟

أهمية هذه الآية للعقلية التجريبية:
القرآن هنا لا يسرد قصة أسطورية، بل يضرب أمثلة واقعية كونية هي محل بحث العلم التجريبي . هذه الآية تقول للعالم المعاصر: انظر إلى الجيولوجيا) علم الأرض(، انظر إلى البيئه ، انظر إلى الا قتصاد) تقدير الأقوات(، ألا ترى يد القدرة والعلم؟ هذا هو الأسلوب القرآني: عرض الأدلة التي يعجز العلم عن إنكار دقتها، ثم استنتاج الإيمان منها .فالداعية اليوم يجب أن يتسلح بهذه المعطيات العلمية ليثبت أن القرآن كتاب الله، وأن دعوته قائمة على براهين ساطعة، لا على خرافات.

الوقفة الرابعة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ عرض الدليل الكوني الأكبر

بعد الحديث عن الأرض، يرتقي بالعقول إلى السماء: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ."ثم" للترتيب الزماني، مما يؤكد فكرة التدرج في الخلق .والسماء هنا كانت ﴿دُخَانٌ﴾ .قف طويلا ً عند هذه الكلمة العلمية المعجزة! "الدخان" هو غاز حار مظلم، جسيمات متصاعدة مختلطة .أليست هذه هي أدق وصفة لبداية الكون، أو للسديم الكوني (Nebula) الذي تتشكل منه النجوم والمجرات، كما تقول الفيزياء الفلكية الحديثة؟ من أخبر محمدًا ﷺ في صحراء مكة بهذا؟ إنه الله العليم.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: هذا المشهد المهيب يملأ القلب تعظيمًا للخالق .إنه استعارة تمثيلية بديعة .كأن السماء والأرض تتصفان بالحياة والعقل، فأمرهما الله أن تخضعا لأمره الكوني، فامتثلتا في الحال طائعات .هذا يعلمك أنت أيها المؤمن أن تستجيب لأمر الله طوعًا، كما استجاب الكون كله طوعًا .إنه نداء إلى الفطرة: كن طائعًا مختارًا، لا مضطرًا مُكرَهًا.

الوقفة الخامسة: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ التنظيم والإحكام في الخلق

بعد أن كانت دخانًا، قضاهن سبع سماوات في يومين ."قضى" معناها أحكم وأتم .فهذه السماوات السبع ليست كتلة واحدة، بل طباقًا، كل سماء لها أمرها .إنه نظام كوني قائم على غاية الدقة و التنظيم .هذا التفصيل في خلق الأرض ثم خلق السماء هو ضربة لشرك المشركين الذين يعبدون آلهة عاجزة .فالإله الحق هو من خلق هذا كله وأحكمه .هل تستطيع آلهتهم المزعومة أن تفعل شيئًا من هذا؟ لا، إذن بطلت عبادتها.

الوقفة السادسة: منهجية قرآنية شاملة لبناء الداعية المعاصر والعالم الرباني

لقد حان الوقت أن نستخرج من هذه الآيات منهجًا متكاملا ً للدعوة والحوار مع العالم، خاصة في عصر يقدس العلم والمادة.

أولا ً: المنهج الحواري العقلي في مواجهة الإلحاد والشبهات:
العالم اليوم لا يقنع بالعظات الوعظية المجردة، بل يسأل: "لماذا؟" و"أين الدليل؟" .القرآن يعطيك المنهج الأمثل: أره الدليل في نفسه وفي الآفاق .بدلا ً من أن تقول للملحد: "آمن بالله وإلا دخلت النار!")وهذا حق، لكن له موضعه(، قل له: "انظر إلى عظمة الخلق، أيمكن أن يكون هذا كله بلا خالق؟!" .الأ سلوب القرآني ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ...﴾ يعلمك أن تبدأ بالعرض العقلي التحليلي، ثم تصل إلى النتيجة المنطقية .هذا هو سبيل الإقناع الحقيقي الذي يبني إيمانًا راسخًا، لا إيمانًا هشًا بالتقليد.

ثانيًا: الإعجاز العلمي كجسر دعوي إلى قلوب الملحدين:
الإعجاز العلمي ليس غاية في ذاته، بل هو وسيلة لإثبات صدق القرآن .والإشارات الكونية في هذه الآ يات) رواسي، دخان، تقدير الأقوات (هي حقائق اكتشفها العلم الحديث مؤخرًا .فكلما تقدم العلم، انكشف وجه جديد من وجوه الإعجاز .لذا، يجب على الدعاة أن يتسلحوا بالثقافة العلمية المبسطة، وأن يتخصص منهم من يتقن هذا الباب، ليكون خطابنا للغرب والعالم بلغة يحترمونها، لغة العلم و البرهان.

ثالثًا: الدروس العملية والتطبيقية من الآيات لبناء الذات الدعوية:

.1تعلم لغة العصر: لا تكن داعية منعزلا ً عن الواقع .اقرأ في الاكتشافات العلمية الحديثة، واربطها بأصول القرآن .هذا يغنيك في حواراتك، ويرفع من مصداقيتك.
.2استخدم أسلوب السؤال: في تربيتك لأولادك، في نقاشك مع أصدقائك، لا تلقن .اسأل: كيف يحدث البرق؟ من يرزق الطير في السماء؟ أسلوب السؤال يوقظ العقل ويثير حب المعرفة.
.3قم برحلات تأملية: اخرج مع أهلك أو طلابك إلى الطبيعة .انظروا إلى الجبال، إلى السماء، إلى الزرع .تأملوا معًا، وقولوا: "هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه" .هذا النوع من التربية هو

الذي يصنع العقلية الإيمانية التجريبية الواعية.
.4وازن بين الدليل النقلي والدليل العقلي: لا تهمل أحدهما لصالح الآخر .فالقرآن جمع بينهما، فكن جامعًا .استدل على وجود الله بالآيات الكونية في أفئدة الشباب المتأثرين بالمنهج التجريبي، فهذه لغتهم.

الخاتمة: كيف نبني الإنسان والحضارة بقاعدة "التفكر في الكون"؟

بهذه الآيات ينبني إنسان من طراز فريد:

· إنسان متفكر: عقله في حركة دائمة مع الكتاب المنظور، فلا يمر على آية كونية إلا وتساءل: ما الحكمة؟ ما الدليل على الخالق؟
· إنسان موقن: كلما رأى عظمة الصنعة، ازداد يقينه بعظمة الصانع، فلا تزلزله الشبهات.
· إنسان داعية بطبعه: يرى الحقيقة واضحة جلية في كل ذرة ومجرة، فيمتلئ حماسة لدعوة غيره إليها، لأنه يرى بأم عينيه ما يثبت قوله.

أما المجتمع والحضارة التي تقوم على هذا المنهج، فهي حضارة العلم والإيمان معًا .إنها الحضارة التي أخرجت ابن الهيثم، والبيروني، والخوارزمي؛ علماء كان دافعهم للبحث العلمي هو تلمس إعجاز الخالق في خلقه .على العكس من الحضارة الغربية التي فصلت العلم عن الدين، فتحول علمها في كثير من ا لأحيان إلى أداة دمار .حضارتنا هي حضارة التسخير للكون بمقتضى الأمر الإلهي: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .نعم، إننا نستخدم الدليل العلمي لنبني إيمانًا، ثم نستخدم هذا الإيمان لنبني علمًا نافعًا وحضارة راقية تسير في الأرض بالقسط و الرحمة.

ثانيا

دليل الحدث التاريخي

المبحث الأول

يا من أبحرنا معًا في آيات الله المسموعة والمنظورة، ووقفنا مبهورين أمام عظمة الخلق في الأرض و السماء، تعالَ نقف الآن على آية تحمل في طياتها تحذيرًا ربانيًا عميقًا، وتذكيرًا بسنن كونية ثابتة لا تتبدل. بعد أن عرض الله الأدلة الكونية القاطعة على وحدانيته وقدرته، ووجّه الأنظار إلى بديع خلقه، يأتي الآن دور التذكير والتحذير، ليكتمل بناء العقيدة في النفس بين الرجاء والخوف.

يقول الله جل ذكره:
﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾

لاحظ كم هي موجزة هذه الآية في لفظها، لكنها عميقة في معناها! إنها تنقلك نقلة نوعية من مشهد الخلق البديع إلى مشهد الدمار المروع، من رحمة الخالق التي تتجلى في النعم إلى بطشه الذي يتجلى في النقم، لتكتمل بذلك صورة الإله الحق في قلبك؛ فهو ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهو أيضًا ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن أعرض وكذّب. في هذه الآية تتجلى سنة إلهية عظيمة، وتظهر أهمية قراءة التاريخ بعين الإيمان لا بعين العصبية. فهيا بنا نغوص في أعماقها.

الوقفة الأولى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ ... شرط يفتح أبواب التاريخ والمستقبل

تأمل كيف تبدأ الآية بحرف الفاء في قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾. إنها فاء التفريع، وكأن الله يقول لنا: بعد كل هذه الأدلة الساطعة التي عرضناها في خلق الأرض والسماء والجبال والأرزاق، وبعد أن قامت الحجة ووضحت المحجة، وأشرقت شمس البيان، إن أعرضوا بعد هذا كله، إن أصروا على عنادهم وكفرهم، فماذا بقي لهم؟ لم يعد هناك عذر، ولم يبق لهم مجال للانتظار. فمصيرهم محتوم، وسنة الله في أمثالهم ماضية لا محالة.

هنا تتجلى رحمة الله حتى في إنذاره! فهو لم يعاجلهم بالعقوبة فور إعراضهم، بل أمر نبيه ﷺ أن ينذرهم. والإنذار هو الإعلام بموطن الخطر قبل وقوعه، وهو إمهال وإعذار. إنها فرصة أخيرة تقدمها لهم الرحمة الإلهية قبل أن ينزل بهم البأس.

الدرس العملي الأول:
عندما تدعو غيرك وتراه يعرض، لا تقنط ولا تتوقف عن النصيحة فورًا. استمر بأساليب الترغيب، واستخدم الترهيب والإنذار بقدر وبحكمة. ذكره بعواقب الإعراض في الدنيا والآخرة، فالإعراض عن الحق ليس نهاية المطاف للداعية، بل قد يكون بداية لمرحلة جديدة من أساليب الدعوة.

الوقفة الثانية: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ﴾ ... لماذا الصاعقة تحديدًا؟

والآن، تدبر معي اختيار كلمة ﴿صَٰعِقَةٗ﴾. لماذا لم يقل: "عذابًا" أو "زلزالا ً" أو "ريحًا"؟ لماذا الصاعقة تحديدًا؟

الصاعقة هي ظاهرة كونية مرعبة، فيها نار محرقة وصوت مفاجئ يصم الآذان، وموت يأتي من السماء بلا سابق إنذار. إنها تمثل أمرين في غاية الخطورة:
١.القوة المطلقة التي لا تُرد: فلا أحد يستطيع أن يتقي صاعقة أو يدفعها.
٢.المفاجأة التي لا تُتوقع: فهي تأتي بغتة، فلا مهرب ولا ملجأ.

والأهم من ذلك، أن الذين أعرضوا عن آيات الله في خلق السموات والأرض، يُهدّدون بعذاب من جنس هذه الآيات! فالسماء التي كانت آية على قدرة الله وعظمته، تتحول إلى مصدر للعذاب الصاعق. إنه تهديد بلغة العصر العلمي أيضًا؛ فالصاعقة معروفة ومشاهدة، وقوانينها الفيزيائية المدمرة مفهومة. إنها ليست عقوبة أسطورية غامضة، بل شيء يخافه الإنسان المعاصر كما خافه الإنسان القديم، إن لم يكن أكثر.

الدرس العملي الثاني:
في إنذارك للناس، استخدم الأمثلة الواقعية المعاصرة التي يفهمونها ويخافونها. قل لهم: انظروا كيف دُمرت حضارات ظنت أنها لا تُقهر! انظروا كيف أهلك الله أقوامًا بالزلازل والفيضانات والأوبئة بسبب طغيانهم وكفرهم. هذه هي "صواعق العصر"، وهي تسير على نفس سنة الله التي لا تتبدل.

الوقفة الثالثة: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ ... لما هاتان القبيلتان بالذات؟

وهنا تأتي الصدمة التاريخية التي توقظ الغافل! فالصاعقة ليست مجرد تهديد نظري، بل هي حقيقة واقعة لها نماذج عاشتها أجيال سابقة: ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾. فلنقف طويلا ً: لماذا خصّ الله عادًا وثمود بالذكر هنا؟

أولا ً: هما من أقدم وأعظم القبائل العربية البائدة، وكانت آثارهما باقية شاهدة في الجزيرة العربية حتى زمن النبي ﷺ. قريش كانت تمر بديارهم في رحلاتها إلى الشمال والجنوب، وترى بأعينها مساكنهم المهدمة، وتسمع أخبارهم المتواترة. فالتذكير بهم هو إيقاظ للوجدان، فهم ليسوا مجرد حكايات أسطورية من بلاد بعيدة، بل تاريخ حي شاهده الناس.

ثانيًا: المعجزة في هذا الاختيار أن الله يريد أن يلفت أنظار قريش إلى أن الدم والنسب لا يشفعان. عاد وثمود ليسوا مجرد أقوام غابرين، بل هم أجداد عرب. ولكن الله لم يرحمهم بقرابتهم، فليست العبرة بالأنساب بل بالإيمان والعمل الصالح. وهذا هو الدرس الخطير!

الرسالة النفسية والعقلية: النظرة الإيمانية للتاريخ:
هنا نصل إلى نقطة حساسة ومهمة في فهمنا للتاريخ. كثير منا ينظر إلى الأمم الغابرة بنظرة اعتزاز لأ نهم "أجدادنا". وكأن الانتماء العرقي يفرض علينا احترامهم مهما فعلوا. لكن القرآن يعيد صياغة هذه النظرة من جذورها. إنه يريد منا أن ننظر إلى عاد وثمود وإلى أفعالهم بالكراهية والبغض في الله، لأ نهم كانوا كفارًا، ولأنهم رفضوا منهج الله، وآذوا رسله، فاستحقوا أن يهلكهم الله. فلا يكون النظر إليهم بالاعتزاز لأنهم أسلافنا من حيث الدم، بل هم آيات ونماذج للكفار الذين رفضوا منهج الله، فأهلكهم الله.

الدرس العملي الثالث:
راجع نظرتك للتاريخ والآثار. عندما تقرأ عن حضارات بائدة، انظر إليها بعين الاعتبار والعظة. لا تنبهر بقوتها المادية فتأسف عليها، بل قل: الحمد لله الذي أهلك الظالمين، وجعلهم آية للعالمين. في تربيتك لأبنائك، وعند ذكر قصص الأقوام السابقة، ازرع في قلوبهم محبة المؤمنين وبغض أفعال الكافرين ومواقفهم من الحق. فسمع المؤمن ونظرته تختلف عن سمع الكافر ونظره، فالمؤمن ينظر للأشياء من حيث حكمها عند الله. فالعلاقة الأساسية ليست علاقة دم، بل علاقة دين.

الوقفة الرابعة: سنة الله التي لا تتبدل ... قانون الاستخلاف في الأرض

إن تخصيص عاد وثمود بالذكر مع سبقهم في الزمن، يؤسس لقاعدة عظيمة هي: سنن الله في الكون.

ما هي هذه السنن؟
هي القوانين الثابتة التي أجرى الله عليها هذا الكون والحياة. ومن أهم هذه السنن: سنة الله في المكذبين. إنهم يُمهلون، وتعرض عليهم الآيات، ويُرسل إليهم الرسل، فإن أصروا وأعرضوا واستكبروا، جاءهم بأس الله بغتة وهم لا يشعرون. هذه السنة ﴿لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾.

إن إدراك هذه السنن يورث في النفس طمأنينة عظيمة، ويجعل المؤمن يعيش في وئام مع نواميس الوجود. أنت لست في فوضى، بل في كون تحكمه قوانين إلهية عادلة. الباطل له صولة ثم يزول، و الحق قد يُستضعف ثم يعلو. من رفض آيات الله وجحدها وآذى رسله، فإن مصيره إلى الهلاك والزوال ، مهما طال به الزمن.

أهمية السنن في بناء العقلية المسلمة:
فهم السنن الإلهية يحررك من النظرة السطحية للأحداث. أنت لا تنظر إلى انتصار الباطل المؤقت على أنه النهاية، بل تعلم أنها جولة، وأن النصر النهائي للحق بموجب السنة. هذا يعطيك صبرًا استراتيجيًا، ويمنحك ألا تنهار عزيمتك أمام قوة الكافرين المؤقتة. أنظر إلى عاد وثمود، كم كانت قوتهم؟ وها هم الآن أثر بعد عين.

الدرس العملي الرابع:
عندما ترى ظالمًا يتمادى في ظلمه، لا تقلق ولا تيأس. تذكر سنة الله. قم بواجبك في الإنكار والدعوة والإصلاح، واترك العاقبة لله، فهو يمهل ولا يهمل. ثق بأن سنة الله نافذة، وأن الظلم لا يدوم.

الوقفة الخامسة: كيف يكون الاتعاظ الحقيقي؟ الاندماج العاطفي مع النص

الكثيرون يقرؤون قصص القرآن قراءة خالية من المشاعر. لكن الله يريد منا شيئًا أعمق. عندما تقرأ عن عاد وثمود، لا تقرأ كمتفرج محايد، بل تفاعل! ادمج مشاعرك مع النص القرآني.

· اندمج شعوريًا مع المؤمنين: تخيل حال هود وصالح عليهما السلام، وهما يدعوان قومهما بالحكمة و الموعظة الحسنة .اشعر بألمهما عندما كذّبَا وأهينَا .تخيل حال المؤمنين القلة المستضعفين معهما، وهم يصبرون ويثبتون على الحق في وجه الطغيان .أحببهم في الله، واعتز بهم، وتمنّ لو كنت معهم.
· انظر إلى الكافرين ببغض: ابغض أفعالهم) كفرهم، استكبارهم، أذيتهم للرسل، جحودهم بالنعم (في الله .لا تنظر إليهم كأبطال أو كمجرد "أجداد" نعتز بهم .هذا الموقف القلبي غايته أن تحدد موقعك بوضوح: أنت مع هود، لا مع عاد .أنت مع صالح، لا مع ثمود.

هذا الاندماج العاطفي هو الذي يحول قراءة القصص القرآني من مجرد تحصيل معرفي إلى تربية إيمانية تطهر القلب وتصقل الوجدان.

مثال تقريبي:
تخيل أنك تشاهد فيلمًا وثائقيًا عن جريمة إبادة، وترى المعتدين وهم يدمرون ويقتلون الأبرياء. ستشعر بالكراهية تجاه المعتدي، والتعاطف العميق مع الضحية. هذا طبيعي. فكيف لا تشعر بمشاعر أشد عندما تقرأ عن معتدين على رسل الله وأنبيائه، وعن أناس رفضوا أعظم هداية، وآذوا أفضل الخلق؟ هذه المشاعر ليست مجرد عواطف، بل هي من صميم الإيمان.

الدرس العملي الخامس:
عندما تقرأ قصص الأمم السابقة، لا تسردها سردًا تاريخيًا جافًا. استحضر المشاهد في ذهنك. صوّر ح ال المؤمنين، وبشاعة أفعال الكافرين، ثم اربط ذلك بواقعك. قل لنفسك: ماذا لو كنت مكانهم؟ أين موقعي من هذا الصراع الدائر بين الحق والباطل في زمني؟ بهذه الطريقة تتحول القصة من أحداث ماضية إلى برنامج عمل روحي لك.

الخاتمة: ماذا يريد المولى منا؟ وكيف نعيش الآية واقعًا عمليًا؟

بعد هذا البيان، ماذا يريد الله منا في هذه الآية؟

.1أن نكون على وعي تام بسننه في الكون: فلا نغفل ولا نغتر .الحياة محكومة بقوانين إلهية، و النجاة في فهمها والعمل بمقتضاها.
.2أن نستجيب لآياته المسموعة والمنظورة: قبل فوات الأوان، وقبل أن تأتي صاعقة من صواعقه فلا

مرد لها.
.3أن ننظر إلى التاريخ الإنساني بنظرة إيمانية: فنوالي من والى الله، ونعادي من عادى الله، لا بنظرة عرقية أو قومية.
.4أن نثق في وعد الله، ونحذر من بطشه، ونعيش بين الرجاء والخوف: لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وأنت أيها الداعية، تذكر أن هذه الآية تعطيك أداة هائلة في دعوتك. لقد أعطتك نموذجًا في استخدام التاريخ، والسوابق، وسنن الحياة التي يدركها كل عاقل حتى لو كان ماديًا. استخدمها لتوقظ القلوب من غفلتها، ولتزرع في النفوس يقينًا راسخًا، وحبًا للحق وأهله، وبغضًا للباطل وجنده. حينها، نكون قد أخذنا من الآية أعظم ما فيها، وحولناها من مجرد نص مقروء إلى طاقة إيمانية محركة للفرد وللأمة، وبناء حضارة تقوم على الإيمان بالله واتباع سننه في الأنفس والآفاق.

المبحث الثانى

يا من وقفنا معًا على مشاهد القدرة في الخلق والإنذار بالصواعق، وتأملنا كيف أن سنن الله لا تتبدل، تعالَ الآن لنغوص في آية تكشف لنا السر العميق لرفض الأمم للحق، وتضع بين أيدينا المفاتيح لفهم طبيعة المعركة الفكرية بين الرسل وأقوامهم عبر التاريخ.

بعد أن حذّر الله المكذبين بصاعقة كصاعقة عاد وثمود، يأتي الآن دور المشهد التفصيلي لموقف هؤلاء الأقوام من رسلهم. إنه مشهد ينقلنا من الإجمال إلى التفصيل، ومن العاقبة إلى السبب، ليرينا لماذا استحقوا تلك الصاعقة، وكيف كانت ردة فعلهم التي تجسد نموذج الكفر في كل زمان ومكان.

يقول الله جل جلاله:
﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾

تأمل هذه الآية وكأنها مرآة ترى فيها وجه كل معرض عن الحق في كل عصر، وكأنك تسمع فيها منطقهم المتكرر، وحججهم الواهية. إنها ليست مجرد حكاية عن الماضي، بل هي درس استراتيجي في فهم العقلية المعارضة لدين الله، وفيها بناء فكري ونفسي عميق للمؤمن في زمن المواجهة.

الوقفة الأولى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ واللفظ الجامع "الجميع"... صورة كاملة للنموذج المتكرر

لاحظ كيف بدأت الآية: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾. إنها تعود بنا إلى اللحظة الحاسمة، لحظة مجيء الرسل. وكلمة "الرسل" هنا تطلق على جنس الرسل الذين جاءوا عادًا وثمود، أي هود وصالح عليهما السلام، لكنها في نفس الوقت تفتح الباب على مصراعيه لتشمل كل رسول مع كل أمة.

استخدم القرآن لفظ "الجميع" في موضع آخر عند الحديث عنهم، ليجعل من هذا المشهد نموذجًا عامًا لكل من هو على شاكلتهم من الكفار في كل زمان ومكان. إن عادًا وثمود ليسا مجرد حادثتين تاريخيتين منعزلتين، بل هما "مثال" يتكرر. فكل كافر في عصرنا، حين يرفض الرسل ويرفض الدعوة بالحجج نفسها، فهو جزء من هذا "الجميع". إنه ينضم إلى قافلة الكافرين عبر التاريخ، وتسري عليه السنن نفسها. فهم هذه القاعدة يجعلك تنظر إلى الأحداث الجارية بعين مختلفة، فترى "عاد" و"ثمود" العصر يتحركون بنفس المنطق والمبررات.

الوقفة الثانية: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إحاطة الدعوة وقيام الحجة

ثم يصف كيفية مجيء الرسل: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾. هذا التعبير البديع يعني أن الرسل جاءوهم من كل جانب، وأتوهم بكل أنواع الأدلة والبراهين التي تقنع العقل وتملأ القلب.

· من بين أيديهم: أي ما يشاهدونه أمامهم من آيات كونية، وحجج عقلية، وأدلة على صدق الدعوة.
· ومن خلفهم: أي بما أخبروهم به من أخبار الأمم السابقة، وما كان في الكتب السابقة من بشارات، ومن تحذيرات من مغبة الكفر.

لقد أحاطتهم الدعوة من كل جانب، فلم يبق لهم عذر. هذا يبني في نفس المؤمن فكرة أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد أن تقوم عليه الحجة البالغة. إنها عدالة إلهية مطلقة. وفي نفس الوقت، يعلم الداعية أن مهمته أن يحيط المدعوين بكل صنوف البيان والدليل حتى لا يبقى لأحد حجة بعد ذلك.

الدرس العملي الأول:
في دعوتنا، لا نكتفي بدليل واحد. استخدم القرآن، والمنطق، والعلم، والتاريخ، والموعظة الحسنة. أحط الناس بالأدلة من كل جانب. كن متنوعًا في أسلوبك، لتصل إلى العقول قبل القلوب.

الوقفة الثالثة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ خلاصة دعوة جميع الرسل

وهنا يأتي جوهر الدعوة التي حملها الرسل: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. إنها كلمة التوحيد، وهي أساس دعوة كل نبي ورسول. لم تختلف رسالة نوح عن إبراهيم عن موسى عن عيسى عن محمد عليهم الصلاة و السلام في هذا الأصل الجامع: أن تخلص العبادة لله وحده.

لكن ما معنى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؟
العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. إنها ليست مجرد صلاة وصيام، بل هي منهج حياة كامل. إنها أن تطيع الله في كل صغيرة وكبيرة، في شؤون حياتك كلها، في أخلاقك، في اقتصادك، في سياساتك. وهذا هو مدار الصراع بين الرسل وأقوامهم؛ ليس مجرد نزاع نظري، بل هو نزاع حول: من له حق الأمر والطاعة؟ من الذي يُشرّع؟ من الذي يُعبَد ويُطاع؟ إنها قضية الحاكمية والسيادة في حياة البشر.

الوقفة الرابعة: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ إنكار بشريّة الرسول... سخرية الكافرين المتكررة

والآن تأمل معي ردة فعلهم، إنها تجمع بين أمرين خطيرين يوضحان طبيعة الكفر:

أولا ً: إنكار أن يكون الرسول بشرًا مثلهم.
قالوا: "لو شاء ربنا لأنزل ملائكة". هكذا بكل بساطة! إنهم يرون أن الرسول يجب أن يكون ملكًا لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتزوج. إنهم يستنكرون أن يكون الوحي منزلًا على رجل منهم. هذا هو ا لاعتراض المتكرر في القرآن: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

ما سر هذا الاعتراض؟
إنه الكبر والغرور. فهم يريدون أن يحتجب الله عنهم، ولا يخاطبهم إلا بواسطة ملائكية لا تشبههم. لكن رحمة الله تقتضي أن يكون الرسول بشرًا مثلهم، ليتمكنوا من الاقتداء به، وليكون قدوة عملية واقعية. كيف تقتدي بملك لا يعيش هموم البشر؟ كيف تتأسى بمن لا يشعر بجوعك وألمك وهمومك؟ بشرية الرسل هي أساس واقعية الدعوة وإمكانية التطبيق. إنها نعمة وليست عيبًا.

إنهم يحاولون النيل من شخص الرسول، وجعله موضع سخرية واستهزاء. وهذا أسلوب الكفار في كل زمان: حين يعجزون عن مواجهة مضمون الرسالة، يلجؤون إلى تجريح شخص المُرسَل. إنه سلاح الضعفاء المفلسين.

الدرس العملي الثاني:
توقع هذا وأنت تدعو إلى الله. سيُسخَر منك، وسيُنتقص من قدرك، وسيُقال: من أنت حتى تتكلم في الدين؟ أنت إنسان عادي! تذكر أن رسل الله أنفسهم قوبلوا بهذا، فاصبر واثبت. واعلم أن واقعيتك وبشريتك هي سر تأثيرك، لأن الناس يرون فيك نموذجًا حيًا للإيمان، لا مثالًا نظريًا لا يُلمَس.

ثانيًا: اعترافهم بالربوبية وإنكارهم للألوهية.
لاحظ قولهم: "لو شاء ربنا". إنهم يقرون بأن للكون "ربًا"! إنهم يعترفون بأن هناك خالقًا ومدبرًا ورازقًا متصرفًا في هذا الوجود. هذا هو "توحيد الربوبية"، وهو الإقرار بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحيي المميت. المشركون في الجاهلية كانوا يقرون بهذا، واسألهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

فما المشكلة إذن؟
المشكلة أنهم يرفضون "توحيد الألوهية". إنهم يقرون بأن الله "رب"، لكنهم لا يقرون بأنه "إله" يجب أن يُعبد وحده، وأن يُطاع وحده، وأن يُحتكم إلى شريعته وحده. فليس كل من أقر بأن الله خالق كل شيء يكون عابدًا له حق عبادته. العبادة هي الطاعة، والامتثال لأمره ونهيه، والتحاكم إلى شرعه، والحب والخوف والرجاء فيه وحده.

هذه هي القضية المركزية إذن!

الكفار عبر التاريخ ينكرون "ألوهية الله" أي استحقاقه وحده للعبادة والتشريع، بينما قد يعترفون "بربوبيته". ولذلك، فالمؤمن الحق لا يمكن أن يكون موحدًا وإن أقر بأن الله وحده خالق كل شيء، إذا لم يشهد أن لا إله إلا الله، فيقر بأنه وحده المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادته وحده لا شريك له. ا لإله هو المعبود الذي يستحق العبادة بطاعته والخضوع له، وليس مجرد إله بمعنى القادر على الا ختراع كما يظن البعض.

الدرس العملي الثالث (في غاية الأهمية):
احذر أن تظن أن الإيمان يقتصر على الإقرار بوجود الله أو بأنه الخالق! كثير ممن ينتسبون للإسلام اليوم يعيشون "توحيد ربوبية" دون "توحيد ألوهية" كامل. يصلون لله، لكنهم يحتكمون في دنياهم لقوانين البشر! يطلبون الرزق من الله، لكن قلوبهم معلقة بالأسباب والمناصب! يسألون الله الشفاء، لكنهم يتطيرون ويتشاءمون! اسمع قولهم: "لو شاء ربنا" وانظر إلى أفعالهم... مع من يقفون؟ إن التوحيد الكامل هو أن تفرد الله بالعبادة بكل معانيها: في خوفك ورجائك، في طاعتك وتحاكمك، في حبك وبغضك. هذه هي قضية الصراع بين المؤمنين والكافرين عبر العصور.

الوقفة الخامسة: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ طبيعة الكفر: تغطية الحق وستره

ثم يأتي الإعلان الصريح بالرفض: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. لاحظ كلمة "كافرون". الكفر في اللغة العربية يدل على معنى "الستر والتغطية". فالفلاح الذي يضع البذرة في التراب ويغطيها يسمى كافرًا، لأنه يسترها. هؤلاء لم يكتفوا بعدم الإيمان، بل هم يجحدون ويكذبون ويحاولون ستر الحق وإخفاءه. إنهم لا يريدون أن يظهر الحق وينتشر، فهم يعملون جاهدين على تغطيته وطمسه بكل وسيلة.

وهذه هي طبيعة الكفار في كل زمان: يقابلون الرسل بالأذى والاستهزاء، ويقابلون الرسالات بالإنكار و الجحود والتكذيب، قاصدين منع ظهور الحق وإخفاءه وتغطيته. هذا التحليل يعطيك صورة واضحة عن طبيعة المعركة؛ إنها ليست معركة ضد الإسلام فحسب، بل هي محاولة لطمس كل حق وكل فضيلة.

الدرس العملي الرابع:
تأهب لهذا! عندما ترى حملات التغريب والتشويه والتشكيك، افهم أنها الوجه المعاصر لـ"الكفر" بمعناه اللغوي. إنهم يريدون تغطية نور الله. لكن سنة الله أن النور لا يُغطى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. فلا تحزن ولا تهن، وكن أنت كاشفًا للحق، مظهرًا للدين بقولك وعملك.

الجوهرة المفقودة: كيف تبني هذه الآية الإنسان والمجتمع والحضارة؟

قد تتعجب: كيف نبني حضارة من آية تصور حدثًا تاريخيًا قديمًا؟ إليك الإجابة:

أولا ً: بناء الفرد المؤمن الواعي:
هذه الآية تمنحك "بوصلة فكرية" لتحليل الواقع من حولك. أنت تتعلم منها:

· معرفة: أن الصراع بين الحق والباطل صراع حول "مركزية العبادة والتشريع".
· مهارة: مهارة تحليل الخطاب الكافر، وكشف المغالطات المنطقية (كالتذرع ببشرية الرسول لرد رسالته).
· خبرة: خبرة في التعامل مع الرفض، وفهم أن التجريح الشخصي دليل عجز الخصم.

ثانيًا: بناء المجتمع المتضامن:
حين يفهم أفراد المجتمع أن مشروعهم هو "ألا يعبدوا إلا الله"، أي أن تكون حياتهم كلها وفق منهجه، وأن أعداءهم هم من يحاولون "تغطية" هذا النور، يترابط المجتمع ويتوحد. يفرق بين من يعترف بربوبية الله فقط (وهذا حال الكثيرين)، وبين من يحقق ألوهيته في كل شؤون الحياة.

ثالثًا: بناء الحضارة والتنمية البشرية:
الحضارة التي تنهض على هذا المفهوم للتوحيد، تكون حضارة محررة للإنسان. لا يستعبد فيها الإنسان لأخيه الإنسان، لأن العبودية لله وحده. لا يخضع فيها لقوانين ظالمة، لأن التحاكم لله وحده. التنمية البشرية في هذا السياق ليست مجرد تنمية اقتصادية، بل هي حركة شاملة لتحرير الإنسان من كل الطواغيت ليعبد الله وحده، فيسعد في الدنيا والآخرة.

الخاتمة: ماذا يريد الله منا وكيف نعيش الآية عمليًا؟

بعد هذا البيان، ماذا نتعلم، وماذا نطبق؟

1.أدرك طبيعة المعركة الفكرية: لا تنخدع .أعداء الدين في كل عصر يستخدمون نفس الأسلحة: إنكار بشرية الدعاة، والاعتراف بالخالق مع رفض شريعته .كن يقظًا لهذا، ووقّ أبناءك منه.
2.حقق "لا إله إلا الله" في حياتك: لا تكتف بالقول .اسأل نفسك: هل أنا مطيع لله في كل أمري؟ هل أحتكم إلى شرعه في خصوماتي، في تجارتي، في سياستي؟ هل أنا وحداني الاتجاه في حبي وبغضي وولائي وبرائي؟ هذه هي الترجمة العملية للآية.
3.واجه كفر العصر "بإظهار" الحق: إذا كان الكفر يعني التغطية، فالإيمان يعني الإظهار .أظهر نور الإسلام بأخلاقك، بإتقانك، بعدلك، بقوة حجتك .كن فردًا من جند الله في كشف الحق الذي يحاولون ستره.
4.اصبر وتأسّ بالرسل: طريق الدعوة مليء بالتكذيب والاستهزاء .هكذا قوبل صالح وهود ومحمد عليهم السلام .فاثبت، ولا تجعل سخريتهم تحبطك .تذكر أن العاقبة للمتقين، وأن سنة الله في هلاك المكذبين ماضية لا محالة.

يا من تقرأ هذه الآيات، إن التاريخ يعيد نفسه، والسنن لا تتبدل. كن من فريق الرسل، وارفع راية "ألا نعبد إلا الله" في كل مجال من مجالات حياتك، وسترى كيف يصنع الله بك، وكيف ينصرك كما نصر أولياءه من قبل.

المبحث الثالث

يا من أبصرتَ بعين القلب سنن الله في الأمم، ووقفتَ على منطق الكافرين في رفضهم الحق، تعالَ نواصل رحلتنا مع آيات تبني العقل والروح معًا. بعد أن كشف الله لنا عن حجج عاد وثمود الواهية في الآية السابقة، يأتي الآن المشهد التفصيلي المهيب لعاد، ليكون عبرة حية، ونموذجًا تطبيقيًا لسنة الله التي لا تتبدل. إنها آيات تجعلك ترى بعين اليقين كيف يسقط الطغاة، وكيف تنهار الحضارات التي اغترت بقوتها ونسيت خالقها.

تأمل معي قول الله جل ذكره:
﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾

المقدمة: تشريح انهيار الحضارات المادية

هاتان الآيتان ليستا مجرد خبر عن قوم هلكوا، بل هما قانون إلهي عام لكل أمة تركن إلى قوتها المادية وتستكبر عن منهج الله. إنهما يقدمان لنا المقاصد والأفكار الرئيسية التالية:
١.الاستكبار واحتقار الحق هو بداية النهاية لكل طاغية وحضارة مادية.
٢.القوة المادية وهم يغتر به من ينسى مصدر القوة الحقيقي.
٣.منطق القرآن العقلي يرد على الغرور بالدليل المنطقي: "الخالق أقوى من المخلوق".
٤.الجحود بالآيات هو أصل المشكلة، فهو يغلق العقل عن رؤية الحق.
٥.عذاب الخزي في الدنيا يناسب جريمة الاستكبار؛ فمن تكبر أذله الله.
٦.عذاب الآخرة أشد وأبقى، وهو العدالة المطلقة التي لا مفر منها.

فهيا بنا نقف مع هذه الدلالات وقفات المتأمل المتيقظ.

الوقفة الأولى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.. حين يتحول النجاح إلى وبال

تأمل كيف بدأت الآية بـ "أما" التفصيلية: بعد الإجمال في ذكر صاعقة عاد وثمود، يأتي التفصيل ليُريك كيف حدث ذلك. وأول ما ذُكر عن عاد هو الاستكبار. إنه أصل الداء. "استكبروا" أي طلبوا الكبر وتكلفوه وتزينوا به، وليس مجرد شعور داخلي، بل تحول إلى سلوك عملي في الأرض.

الدلالة النفسية العميقة:
لماذا يستكبر الإنسان؟ لأن النعم تتالت عليه فظن أنها من ذاته. لقد آتاهم الله قوة بدنية هائلة، وأجسامًا طوالا ً، وحضارة عمرانية، فاغتروا بذلك. وهذا يلمس جوهرًا في النفس البشرية: الغفلة عن

المُنعِم عند توالي النِّعَم. إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

مثال تقريبي:
تخيل تاجرًا بدأ صغيرًا ثم كثر ماله. بدل أن يزداد شكرًا، بدأ ينظر للناس باحتقار ويقول: "من أين لهم أن يصلوا لما وصلت إليه؟". هذا قليل من كثير مما فعله عاد.

الدرس العملي الأول:
عندما تنجح في دراستك، أو تترقى في عملك، أو يزيد مالك، راقب قلبك! اسأل نفسك: هل شعرت ولو للحظة أنك أفضل من غيرك بسبب هذا النجاح؟ إن وجدت ذلك فاستغفر الله فورًا. اربط كل نعمة بمنعمها، وردد دائمًا: "هذا من فضل ربي".

الوقفة الثانية: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾... الاغترار بالمادة وإعلان الاكتفاء الذاتي

وهنا يعلنونها صريحة مدوية: "من أشد منا قوة؟!". إنه ليس سؤال استفهام، بل استفهام إنكاري للتحدي. إنهم يقولون: لا أحد يقدر علينا! إنها قمة الغرور والنرجسية الحضارية. لقد نسوا أن هذه القوة منحة من الله، وأن الله قادر على سلبها في لحظة.

الدلالة الفكرية:
هذا هو منطق كل حضارة مادية عبر التاريخ. عندما تصل إلى ذروة قوتها التقنية والعسكرية، تظن أنها في مأمن من كل شيء. واليوم، نرى حضارات تتفاخر بقنابلها وصواريخها وتقنياتها، وكأنها بذلك تسأل: "من أشد منا قوة؟". هذا الشعور الزائف هو مقدمة الانهيار.

مثال تقريبي:
انظر إلى ناطحات السحاب الشاهقة، وإلى الطائرات التي تخترق السماء، وإلى الذكاء الاصطناعي الذي يذهل العقول. كم من البشر اليوم ينظر إلى هذا ويقول في نفسه: "لقد صرنا أقوياء، لا يغلبنا شيء!"؟ هذا شعور عاد بنسخته المعاصرة.

الدرس العملي الثاني:
لا تنبهر بالقوة المادية لأعداء الله وأعداء دينه. هي قوة مؤقتة وزائلة. اعلم أنك أنت المؤمن بقوتك الضعيفة، لكنك متصل بالقوة المطلقة (الله)، فأنت أقوى منهم حقيقة. في تعاملك مع تحديات الحياة، خذ بالأسباب المادية لكن لا تتكل عليها؛ بل توكل على الله، واثقًا أن تدبيره فوق كل تدبير.

الوقفة الثالثة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾... عبقرية الرد القرآني المنطقي

وهنا يأتي الرد الإلهي الذي يخاطب العقل مباشرة. لاحظ الأسلوب: "أَوَلَمْ يَرَوْا". هذا استفهام تعجبي تقريري يوقظ العقل من سباته. أما الدليل فهو دليل منطقي سببي:

· المقدمة الأولى: الله هو الذي خلقهم (وهذا مسَلَّم به، وهم يعترفون به).
· المقدمة الثانية: الخالق بالضرورة أقوى من مخلوقه، لأنه أوجده من عدم.
· النتيجة: إذن، كيف تغترون بقوتكم وتنسون قوة خالقكم؟!

الدلالة العقلية والتربوية:
هذا الأسلوب يعلمك كيف تحاور المغرورين. لا تردّ العاطفة بالعاطفة فقط، بل استخدم المنطق. قل لهم: القوة التي تملكونها من أين أتت؟ أليست من المادة التي خلقها الله؟ الأجسام التي تتباهون بها، أليس الله هو الذي صورها؟ فكيف تتصورون أن قوة المخلوق يمكن أن تقف أمام قوة الخالق؟

الدرس العملي الثالث:
إذا شعرت يومًا بالغرور، خذ نفسك إلى هذا الدليل العقلي. تأمل في خلقك، وفي ضعف أصلك (من نطفة). ستجد كِبرك يذوب، لأن عقلك يوقن أن قوة الله فوق كل قوة. استخدم هذا المنطق في تذكير غيرك أيضًا بالرفق والحكمة.

الوقفة الرابعة: ﴿وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾... أصل الداء: تغطية الحق وستره

هنا يكشف الله عن جذر المشكلة: الجحود. لماذا استكبروا؟ لأنهم جحدوا بآيات الله. الجحود ليس

مجرد جهل، بل هو إنكار الحق مع العلم به، وهو أشد أنواع الكفر. لقد رأوا آيات الله في الأنفس والآفاق وفي دعوة هود عليه السلام، لكنهم -كما تعلمنا سابقًا- ستروا هذا الحق وغطوه كيلا يظهر. إنها عملية متعمدة لطمس نور الفطرة.

الرسالة النفسية والعقلية:
الكفر لم يأتِ فجأة، بل كان نتيجة تراكم لجحود الحق. بدأوا بتجاهل الآيات، ثم إنكارها، ثم محاربتها. هذه سنة: إذا غفل القلب عن آية، سهُل عليه جحود ما بعدها. فاحذر أن تمر على آية من كتاب الله أو آية في الكون دون أن تتفاعل معها، فيكون ذلك أول طريق الجحود.

الدرس العملي الرابع:
راجع موقفك من آيات الله التي تسمعها. كل آية تقرؤها، كل موعظة تسمعها، كل مشهد كوني تراه... هل تتلقاه بالتسليم والتعظيم، أم بالإعراض والفتور؟ إياك أن تتعود على "سماع" القرآن دون تأثر، فهذا التعود هو حجاب رقيق قد يتحول إلى جحود.

الوقفة الخامسة: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾... عندما يتحول النسيم إلى جندي مدمر!

والآن، تأتي نهاية القوة المادية المزعومة. أرسل الله عليهم "ريحًا صرصرًا". لاحظ جمال التعبير: "ريح" لا "رياح"، مما قد يشير إلى ريح عذاب لا ريح رحمة. "صرصرًا" أي شديدة البرودة، شديدة الصوت، تحمل معها الهلاك والدمار. لقد سخّر الله أضعف عناصر الطبيعة -في نظرهم- ليدمرهم! الهواء الذي كانوا يتنفسونه ويظنون أنهم سادة عليه، تحول إلى أداة للموت.

الدقة الوصفية: "في أيام نحسات" أي مشؤومات عليهم، متتابعات العذاب. سبعة أيام وثمان ليالٍ حسومًا كما ورد في سورة الحاقة. إنه تخطيط إلهي دقيق لإذاقتهم العذاب.

الدلالة العقلية والعلمية:
الريح التي يظنها الإنسان مجرد ظاهرة مناخية، هي جند من جنود الله. إذا أراد الله، جعلها تحمل الخير والمطر، وإذا أراد جعلها تحمل الدمار. العلم الحديث يستطيع الآن قياس سرعة الرياح في الأعاصير، ويرى كيف تدمر مدنًا بأكملها في ساعات. فهل رأيت كيف تتجلى قدرة الله في ما نظنه "طبيعة"؟ إنها جنود مسخرة بأمره.

مثال تقريبي:
تخيّل أن أقوى دولة في العالم، بكل تقنياتها، تقف عاجزة أمام إعصار تسونامي أو زلزال يستمر لثوان. هذه القوى الطبيعية التي لا نملك منها شيئًا، هي من جند الله. أين ذهبت قوة أولئك الذين قالوا "من أشد منا قوة"؟!

الدرس العملي الخامس:
لا تخف من أي قوة بشرية مهما بلغت، فالذي خلقك هو الذي يملك كل شيء. لا ترهبك ترسانة الأعداء، فالله قادر على أن يرسل عليهم أضعف خلقه فيهلكهم. ضع ثقتك في الله وحده، وتذكر هذه الصورة كلما هالك مشهد القوة المادية للظالمين.

الوقفة السادسة: ﴿لِنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾... جزاء الاستكبار إذلال وفضيحة

تأمل قوله: "عذاب الخزي". لم يقل "عذاب الألم" فقط، بل "الخزي". الخزي هو الذل والفضيحة والهوان. إنه عذاب نفسي معنوي قبل أن يكون جسديًا ماديًا. هؤلاء الذين قالوا بتكبر "من أشد منا قوة؟"، أُذيقوا الذل والهوان، فدمّرت مساكنهم فوق رؤوسهم، وصاروا عبرة لمن بعدهم. الجزاء من جنس العمل؛ تكبروا فأذلهم الله.

الدلالة النفسية والتربوية:
النفس البشرية تعشق العزة وتكره الذل. والله يذيق المتكبرين عذاب الخزي في الدنيا قبل الآخرة، ليريهم أن العزة الحقيقية هي في طاعته، وأن ما هم فيه من كبر هو عين الذل. هذه سُنّة: من تكبر على الحق، أذله الله في أعز ما يملك.

الدرس العملي السادس:

إن أردت العزة الحقة، فاطلبها من طريقها الوحيد: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. لا تطلب العزة بمالك أو منصبك أو ذكائك، فقد تكون هذه هي طريق إذلالك. تواضع لله في خلواتك وجلواتك، يرفعك ويمنحك عزة لا يمسها ذل.

الوقفة السابعة: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾... عدالة الله المطلقة وختم الفصل

وأخيرًا، يغلق الباب على أي أوهام: "ولعذاب الآخرة أخزى". مهما كان عذاب الخزي في الدنيا فظيعًا، فإن عذاب الآخرة أشد إهانة وذلا ً. في الدنيا قد يموت الكافر فينتهي ألمه، أما في الآخرة فالعذاب دائم.

ثم تأتي الجملة الأخيرة: "وهم لا ينصرون". لا أحد يستطيع أن يدفع عنهم عذاب الله. حين جاء أمر الله، لم تنفعهم قوتهم التي تباهوا بها، ولا أعوانهم، ولا أندادهم. لقد تُركوا وحدهم أمام بطش الجبار.

الدلالة الفكرية:
هذا هو قانون الاستخلاف العكسي: الأمم التي تستكبر وتجحد تُهان وتُخذل. إنها سنة لا تتبدل. وتذكر أن عذاب الدنيا ليس القسطاس الذي يطمئن له المؤمن، بل اليقين بأن الطاغية مهما علا في الدنيا، فإن "عذاب الآخرة أخزى"، وهناك لن يجد ناصرًا.

الدرس العملي السابع:
لا تفرح كثيرًا إن رأيت الظالم يموت بلا عقاب دنيوي كافٍ، فهذه ليست نهاية المطاف. تذكر أن هناك آخرة، وأن الله يمهل ولا يهمل. وإذا رأيت عذابًا ينزل بأمة من الأمم، فاعتبر وتذكر ذنوبك، وخف من عقاب الله في الدنيا والآخرة. هذا الخوف الصحي هو الذي يجعلك تلتزم حدوده.

كيف تبني هذه الآيات الإنسان والمجتمع والحضارة؟ (الرسائل والمفاهيم والتوجيهات)

أولًا: الرسائل الفكرية والعقلية

· توازن الأسباب: القوة المادية ليست كل شيء، بل هي سبب يجب أن يقترن بإيمان وشكر.
· منطق السببية: القرآن يعلمك الاستدلال العقلي: وجود الخلق دليل على الخالق، وقوة المخلوق لا شيء أمام قوة الخالق.
· قانون سقوط الحضارات: الحضارة التي تنفصل عن أخلاقها ودينها تحمل بذور فنائها في كبريائها وجحودها.

ثانيًا: الرسائل النفسية

· التحرر من الخوف: لا ترهب القوى المادية، فالذي أهلك عادًا قادر على إهلاك غيرهم.
· التحصين من الغرور: كلما تذكرت أن "الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة"، تطامنت نفسك وتواضعت.
· الراحة النفسية: أيقن أن الظالمين لا بد من جزائهم، في الدنيا أو في الآخرة، فتهدأ نفسك من غيظك عليهم.

ثالثًا: الرسائل التربوية والعملية (المعرفة والمهارات والخبرات)

· مهارة التحليل: تتعلم كيف تحلل صعود وسقوط الحضارات والأفراد من خلال سنن الله.
· مهارة الحوار: تتعلم كيف تحاور المغرورين بالمنطق القرآني الهادئ: "أو لم يروا...".
· خبرة التعامل مع القوة: تكتسب خبرة أن التكبر مقدمة الانهيار، فتجتنبه في حياتك الشخصية و المهنية، وتنشئ مجتمعًا متواضعًا عزيزًا بالله لا بالقوة المادية.
· معرفة بالنفس: تفهم أن لحظات النجاح هي أشد لحظات الخطر على القلب، فتتسلح بالشكر.

الخاتمة: ماذا يريد الله منا وكيف نعيش الآيات واقعًا عمليًا؟

بعد هذه الرحلة، ما هي الدروس العملية التي نخرج بها؟

.1طبّق منطق "أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ" في حياتك: كلما رأيت قوة أو نعمة، تذكر فورًا أنها من الله .قل: "الله الذي

أعطاني هو القادر على سلبها".
.2حاسب نفسك من الاستكبار الخفي: هل ترفض نصيحة لأنها من شخص أقل منك مكانة؟ هل ترى نفسك أفضل من الآخرين؟ هذه بذور عاد في قلبك، فاقتلعها.
.3كن متواضعًا في نجاحك: إن كنت مديرًا، معلمًا، أو صاحب منصب، تعامل برفق .تذكر أن قوتك لا شيء.
.4عند رؤية مصائب الدنيا: لا تكن مجرد متفرج، بل اعتبر! قل لنفسك: لولا ستر الله لصرتُ مثلهم . جدد توبتك وخوفك من عذاب الخزي في الدنيا والآخرة.
.5في تربية الأبناء: ازرع فيهم أن القوة الحقيقية ليست في العضلات أو المال، بل في الإيمان و التواضع والصلة بالله القوي المتين.

يا من تقرأ هذه الآيات، تذكر أن التاريخ يعيد نفسه، وقوانين الله لا تتبدل. كل متكبرٍ مصيره إلى خزي، وكل متواضعٍ مصيره إلى عز. فاختر لنفسك أي الطريقين أحق أن تسير فيه، وكن على يقين بأن "القوة لله جميعًا"، وبأنه "من تواضع لله رفعه".

المبحث الرابع

يا من أبصرتم بعين البصيرة مصارع المستكبرين من عاد، تعالوا الآن لنقف على مشهد آخر، مشهد لا يقل روعة وعبرة، بل لعله أشد قربًا إلى النفس وأعمق في تحليل أسباب الهلاك. إنه مشهد ثمود، القوم الذين أُوتوا آية مبصرة، ومع ذلك اختاروا العمى بأنفسهم. إنها آيات تكشف لك أخطر ما في النفس البشرية: كيف يمكن أن يتحول الحب من أداة هداية إلى أداة هلاك، وكيف تفسد الشهوة و الغضب والعقل إن لم تُضبط بتقوى الله.

تأمل معي قول الله جلّ في علاه:
﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٧ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩﴾

هذه الآيات تمس جوهر التكوين الإنساني من الداخل، وتحلل أمراض النفس وأسباب انحراف قواها (الحب، الشهوة، الغضب) وقواها العقلية. إنها تُريك أن المشكلة لم تكن في وضوح الحجة، بل في فساد الإرادة، وأن الهلاك كان نتيجة حتمية لانحراف "الحب" عن مساره.

المقدمة: حين تصبح النفس عدوة نفسها

بعد أن قصّ الله علينا خبر عاد، وهم الذين استكبروا بقوتهم المادية، ينتقل بنا الآن إلى قوم ثمود، ليكشف عن علة أخرى من علل الهلاك. إن ثمود لم تكن مشكلتهم الأساسية إنكار القوة كما فعلت عاد، بل كانت مشكلتهم انحراف المحبة والإرادة. لقد أوتوا آية مبصرة واضحة هي "الناقة"، فكانت هذه الآ ية اختبارًا لقوى النفس الباطنة. فماذا حدث؟ لقد اختاروا بأنفسهم العمى على الهدى! إنهم يمثلون نموذج من فسدت "قوة الحب" عنده، فأحب ما يضره، وكره ما ينفعه.

المقاصد والأفكار الرئيسية:

.1الهداية الإلهية الشاملة: الله يهدي الجميع بآياته، فلا أحد بلا حجة.
.2فساد الإرادة) الحب والشهوة(: المشكلة ليست في العقل وحده، بل في انحراف "الحب" الذي يوجه الإرادة.
.3خطورة "استحباب العمى": إنه اختيار واعٍ للباطل نتيجة فساد الذوق الروحي.
.4الجزاء من جنس العمل: الصاعقة تهين من اختاروا الهوان، والنجاة تكون لأهل الإيمان والتقوى.
.5التقوى كضابط للقوى النفسية: هي وحدها التي تحفظ سلامة الحب والشهوة والعقل.
.6هداية القبول مقدمة لهداية التوفيق: حين تحب الهداية وتقبل عليها، يمدك الله بتوفيقه.

الوقفة الأولى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾... الحجة الكاملة والآية المبصرة

انظر كيف بدأت الآية: "وأما ثمود فهديناهم". الهداية هنا هي هداية الدلالة والبيان، أي أرشدناهم وأوضحنا لهم طريق الحق. لقد أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، وأعطاهم آية حسية مادية مذهلة: الناقة. يقول الله في موضع آخر: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾. إنها آية مبصرة، يرونها بأعينهم، تخرج من الصخرة، وتشرب الماء، ولها يوم شرب معلوم. لم تكن قضية عقلية مجردة، بل كانت شيئًا ماديًا ملموسًا يشهدون به. لقد كانت الناقة "هداية" مجسمة تسير على الأرض.

الدلالة العقلية والتربوية:
الله لا يهلك أحدًا إلا بعد إقامة الحجة الكاملة. ثمود أوتوا من الأدلة ما يكفي ليس لإقناع العقل فحسب، بل لإذعان القلب. وهذا يعلمك أن الشكوى ليست من نقص الأدلة، فنحن لا نعاني من قلة الحجج، بل من قلة القلوب القابلة.

الدرس العملي الأول:
عندما تقرأ القرآن، وتسمع المواعظ، وترى الآيات الكونية، اعلم أن هذه "هداية" من الله لك. قد قامت عليك الحجة كما قامت على ثمود، بل أشد. فلا تقل: "لم أجد من يرشدني!". واسأل نفسك دائمًا: ما موقفي من هذه الهدايات التي تغمرني كل يوم؟

الوقفة الثانية: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾... تشريح انحراف قوة الحب والشهوة في النفس

وهنا مكمن الخطر، وجوهر المأساة! لم يقل: "فلم يهتدوا"، بل قال: "فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ". لاحظ صيغة "استحبوا"! إنها تدل على أنهم طلبوا الحب، وبحثوا عنه، ثم استقروا عليه. لقد أصبح العمى محبوبًا لديهم، وأصبح الهدى مكروهًا! كيف حدث هذا الانقلاب الخطير في النفس؟

لفهم ذلك، علينا أن نحلل قوى النفس البشرية. لقد أعطى الله الإنسان ثلاث قوى أساسية:

.1قوة العقل: للإدراك والتمييز.
.2قوة الغضب: لدفع الضرر والدفاع عن الحق.
.3قوة الحب والشهوة: لجلب النافع والالتذاذ به.

قوم ثمود، بما أوتوا من الناقة، قامت عليهم الحجة في "العقل"، فعرفوا الحق. لكن المشكلة كانت في "قوة الحب والشهوة". لقد فسدت هذه القوة! بدلًا من أن تتجه محبتهم ورغباتهم نحو الأعمال الصالحة التي فيها سعادتهم، توجهت رغباتهم نحو الأعمال الفاسدة. فضلوا الشهوة المنحرفة على امتثال أوامر الله التي فيها السعادة الحقيقية. لقد أحبوا ما يضرهم، وكرهوا ما ينفعهم. وهذا هو أصل كل انحراف.

مثال تقريبي:
تخيل مريضًا يصف له الطبيب دواءً مرًا لكنه شافٍ، ويحذره من طعام لذيذ لكنه سم قاتل. المريض بعقله يفهم كلام الطبيب، لكن شهوته للطعام اللذيذ تجعله "يستحب" السم على الدواء. هذا هو بالضبط ما فعله ثمود! الناقة كانت دواء مرًا (لأنها تقيد حريتهم في الماء)، والكفر والطغيان كان السم اللذيذ (لأنه يطلق أهواءهم). فاختاروا السم!

الدرس العملي الثاني:
انظر إلى حياتك الخاصة. كم من مرة عرفت فيها الحق بعقلك، لكن "شهوتك" و"حبك" للشيء المعين جعلاك تختار غيره؟ لماذا تؤجل التوبة مع علمك أنها واجبة؟ لماذا تترك الصلاة مع يقينك بفرضها؟ لماذا تقع في الحرام مع معرفتك بعاقبته؟ الجواب: لأن "الحب" فسد في تلك اللحظة، فأحببت الراحة، أو أحببت الشهوة العاجلة، على حساب محبة الله. هذا هو "استحباب العمى" نسأل الله العافية! فالزم أن تجعل محبتك لله هي المحرك الأول.

الوقفة الثالثة: بين هداية القبول وهداية التوفيق... القبول مقدمة التوفيق

وهنا يبرز مفهوم عظيم من هذه الآية: الفرق بين هدايتين.

· هداية الدلالة والبيان: وهي التي ذكرها الله بقوله: "فهديناهم" أي أرشدناهم وأوضحنا لهم. هذه الهداية تشمل المؤمن والكافر، وقد قامت على ثمود.
· هداية التوفيق والقبول: وهي أن يشرح الله صدرك للحق، ويجعلك تحبه وتقبل عليه. هذه الهداية لم ينلها ثمود! لماذا؟ لأنهم لم يريدوها! لقد أعرضوا بادئ ذي بدء، فلم يستحقوا التوفيق.

القاعدة: القبول مقدمة التوفيق. عندما تحب الهداية وتقبل عليها بقلبك، يستحق قلبك هداية التوفيق من الله. أما إن أعرضت و"استحببت العمى"، فإن الله يخذلك ويتركك لما اخترت. إنها سنة إلهية دقيقة! الله لا يمنح توفيقه إلا لمن أحب الهدى وطلبه بصدق.

الدرس العملي الثالث:
لا تنتظر أن يأتيك التوفيق وأنت نائم أو معرض! التوفيق يبدأ منك أنت، بأن تصدق في طلب الهداية ، وأن تجاهد نفسك على محبة الخير وكره الشر. قل دائمًا: "اللهم حبّب إليّ الإيمان وزيّنه في قلبي، وكرّه إليّ الكفر والفسوق والعصيان". هذا الدعاء هو طلب لهداية القبول، التي إن نلتها نلت التوفيق.

الوقفة الرابعة: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾... الجزاء من جنس العمل المهين

والآن، تأتي النتيجة المرعبة: "فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ". لاحظ كيف شدد الله على وصف العذاب بأنه "الهون". الهون هو الذل والفضيحة والإهانة. لماذا هذا الوصف بالذات؟ لأن جريمتهم كانت "استحباب العمى" أي اختيار الذل والضعة عوضًا عن العز والشرف. من يتنازل طوعًا عن إنسانيته وعقله ويختار أن يكون كالأنعام، يستحق أن يكون مصيره الهوان. فالأعمال القبيحة توجب الدمار. الجزاء من جنس العمل: اختاروا لأنفسهم الهوان، فأذاقهم الله عذاب الهوان.

الدلالة النفسية:
هذا يبين لك أن المعاصي ليست مجرد "مخالفات قانونية"! إنها في حقيقتها ذل للنفس وإهانة لها. من يركع للشهوة، ويذل للحرام، هو في الحقيقة يُهين إنسانيته قبل أن ينزل به عذاب الله. كلما عصيت الله، شعرت بهوان داخلي، بضعة وذلة في القلب. هذه الذلة المعنوية مقدمة لعذاب الخزي في الدنيا و الآخرة إن لم تتب.

الدرس العملي الرابع:
عندما يأمرك الله بأمر، فاعلم أنه يريد عزك ورفعتك. وعندما ينهاك عن شيء، فاعلم أنه يحميك من الذل والهوان. انظر للطاعة على أنها تاج عز، وللمعصية على أنها حبل هوان. هذا التصور يغير دوافعك بالكامل، ويجعلك تحب الطاعة لأنها عزة، وتبغض المعصية لأنها ذل.

الوقفة الخامسة: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾... التقوى ضابط القوى النفسية

وهنا، لطفًا من الله ورحمة، لا يختم قصة ثمود بالهلاك وحده، بل يذكر الناجين: صالح والذين آمنوا معه. انظر إلى الوصف: "الذين آمنوا وكانوا يتقون". لم يكتف بذكر الإيمان، بل أضاف التقوى! الإيمان هو الأصل، والتقوى هي الثمرة العملية التي تحفظ الإيمان.

التقوى هي الوسيلة الوحيدة لتربية الإرادة وضبط المشاعر. فما هي التقوى؟ هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بفعل الأوامر واجتناب النواهي. المتقون هم الذين ضبطوا قوى نفوسهم الثلاث:

· ضبطوا العقل فلم ينحرف بهم إلى الجحود، بل استخدموه في التفكر.
· وضبطوا الغضب فلم يغضبوا لانفسهم بل للحق.
· وضبطوا الحب والشهوة فاتجهت مشاعرهم نحو ما يرضي الله، لا نحو ما يغضبه.

فشتان بين فريقين: فريق استحب العمى فهلك، وفريق اتقى الله فنجى.

الدرس العملي الخامس:
اسأل نفسك كل يوم: أين مشاعري؟ ماذا أحب؟ ماذا أكره؟ هل حبي وبغضي يوافق حب الله وبغضه؟ إن وجدت في نفسك ميلًا لما يغضب الله، فاعلم أن "التقوى" في هذا الجانب قد ضعفت، فقوّها بمجاهدة النفس. التقوى ليست مجرد شعور، إنها جهاد مستمر لضبط قوى النفس.

الوقفة السادسة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾... المشهد الختامي للمسار المنحرف

تأتي هذه الآية لتغلق الدائرة. بعد أن رأينا كيف انحرفت قوى النفس في الدنيا، نرى الآن النهاية الحتمية في الآخرة. "أعداء الله" هم الذين استحبوا العمى، واستكبروا، وجحدوا. أما "يوزعون" فمعناها يحبس أوّلهم على آخرهم، ويُساقون سوقًا إلى النار. إنه مشهد الذل المطلق الذي لا مفر منه.

هنا تظهر حقيقة أن صراع الإنسان ليس مجرد صراع فكري خارجي، بل هو صراع مع نفسه أولا ً. كل من جعل نفسه عدوًا لله باتباعه الشهوات الفاسدة، سيكون مصيره هذا الحشر المهين. والآية تجعلك تسأل نفسك: في أي صف ستكون؟ أفي صف "أعداء الله" بسبب استحباب العمى، أم في صف "المتقين" الذين نجاهم الله؟

كيف تبني هذه الآيات الإنسان والمجتمع والحضارة؟ (الرسائل والمفاهيم والتوجيهات)

أولا ً: الرسائل الفكرية والعقلية

· فهم طبيعة الهداية: الهداية نوعان (دلالة وتوفيق)، والثانية مشروطة بالقبول.
· دور العقل والعاطفة: الإيمان ليس مسألة عقلية بحتة، بل هو امتزاج العقل بالحب والإرادة السليمة.
· جدلية الحب والعمل: الأعمال تنبع من "الحب"، فإن صلحت المحبة صلحت الأعمال، وإن فسدت فسدت.
· السنن السببية: الهلاك نتيجة طبيعية لانحراف قوى النفس، كما أن النجاة نتيجة طبيعية للتقوى.

ثانيًا: الرسائل النفسية

· التشخيص الذاتي: الآيات تعطيك مرآة ترى فيها قوى نفسك، وتكتشف أيها بدأ يفسد.
· التحذير من "استحباب" المعصية: مجرد الوقوع في المعصية شيء، لكن "محبتها" دمار أكبر.
· الأمل في النجاة: التقوى ليست مستحيلة، وهي المفتاح العملي الموثوق للخروج من كل ضيق.
· تزكية المشاعر: اجعل محبتك لله هي البوصلة الوحيدة لكل مشاعرك الأخرى.

ثالثا: الرسائل التربوية والعملية

· تربية الإرادة: علم نفسك وأبناءك أن تؤثروا ما يحبه الله على ما تشتهيه الأنفس.
· مهارة مراقبة القلب: تمرّن يوميًا على فحص قلبك وسؤاله: ما الذي استحببته اليوم أكثر، الهدى أم العمى؟
· مفهوم "العزة بالطاعة": ازرع في مجتمعك أن الشرف الحقيقي في التقوى، وفي طاعة الله، لا في اتباع الهوى.

أبعاد الآية وآفاقها

البعد الأول: البعد الإنساني (الفردي)
الآية تفتح لك آفاقًا لفهم ذاتك، وتكشف لك أن أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك إن لم تزكها. إنها تدعوك إلى مشروع عمره العمر: إعادة هندسة المحبة القلبية لتكون لله وبالله وفي الله.

البعد الثاني: البعد الاجتماعي والحضاري
المجتمع الذي يكثر فيه "مستحبو العمى"، الذين يقدمون اللذة على المبدأ، يكون مجتمعًا آيلًا للسقوط. أما المجتمع الذي يربي أبناءه على "استحباب الهدى"، أي على محبة الفضيلة والعلم والعدل، فهو مجتمع يبني حضارة راسخة.

البعد الثالث: البعد القانوني والسنني
هذه الآيات تؤسس لقانون: الباطل مهما بدا قويًا ومحببًا للنفوس، فإن نهايته صاعقة الهون. وسقوط الحضارات لا يكون بسبب ضعف خارجي فقط، بل بسبب فساد داخلي يبدأ من انحراف "الحب" الجماعي.

البعد الرابع: البعد التربوي المستقبلي
في عصر الشهوات والإغراءات، تعلمنا الآية أن تحصين الشباب لا يكون فقط بتحصين عقولهم بـ الشبهات، بل بتحصين قلوبهم بالحب. ازرع فيهم حب الصلاة، حب القرآن، حب العفة، تجدهم تلقائيًا يكرهون الرذيلة. هذه هي التربية الوقائية.

الخاتمة: ماذا يريد الله منا وكيف نعيش الآيات واقعًا عمليًا؟

بعد هذه الرحلة في أعماق النفس، ما الذي يريده الله منا؟

.1شخّص محبتك: كل يوم، اسأل نفسك بصدق: ماذا أحب؟ فيمَ أرغب؟ اكتب قائمة بمحبوباتك، وقارنها بمحبوبات الله .أين أنت من قول القائل: "اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك"؟

.2جاهد نفسك على "استحباب الهدى": إذا وجدت في نفسك كرهًا لطاعة، أو حبًا لمعصية، فلا تستسلم .جاهد نفسك على أن تقلب هذا الشعور .أكثر من الدعاء بأن يحبب الله إليك الإيمان.
.3لا تتهاون بـ"صغائر" انحراف القلب: الميل القلبي نحو الحرام ليس صغيرًا، بل هو بداية الانحراف الكبير .عالجه فورًا بالاستغفار وفعل ضده.
.4ابنِ حياتك على التقوى: التقوى هي ضابطك .في كل قرار، اسأل: هل هذا الفعل يجعلني أقرب إلى النجاة أم إلى الهلاك؟ تذكر دائمًا: المتقون هم المنجون، لا المتمنون ولا المدّعون.
.5انظر إلى آيات الله المبصرات: حولك في الكون، وفي كتاب الله، وفي نفسك .هي رسائل هداية .لا تكن كمن استحب العمى، بل افتح عينيك وقلبك .كن من "الذين آمنوا وكانوا يتقون"، تنجوا مع الصالحين، وتسعد في الدنيا والآخرة.

يا من تقرأ هذه الآيات، إن الطريق واضح، والآيات مبصرة، والخيار بيدك. فهل "تستحب" العمى فتضل وتشقى، أم "تستحب" الهدى فتهتدي وتنجو؟ القرار لك الآن، فاختر لنفسك قبل فوات الأوان.

ثالثا

مشهد يوم القيامه

المبحث الأول

يا من أبصرتم بعين البصيرة كيف أسلمت ثمود نفسها للهلاك حين استحبت العمى على الهدى، تعالوا ننتقل معًا نقلةً تهز الوجدان .لقد أرانا الله مصارع الغابرين في الدنيا، وكأنه يقول لنا: هذه ليست النهاية! إن ما رأيتموه من صاعقة عاد وثمود ليس إلا أنموذجًا مصغرًا، وعذابًا معجلًا .أما المشهد الأعظم، والموقف الأجلّ، فهو آتٍ لا ريب فيه.

تأمل معي قول الله جل جلاله، وهو ينقلك نقلة شعورية من هذه الدار الفانية إلى دار البقاء:
**﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ٢٠ ﴾.

أشعر بوقع هاتين الآيتين على قلبك! إنهما لا تخبرانك خبرًا مجردًا، بل تنتزعانك من غفلتك، وتقذفان بك في أرض المحشر، لتقف حافيًا عاريًا، وتنظر ماذا أعددت لهذا اليوم .إنه انتقال كوني هائل، من زمن العمل إلى زمن الجزاء، من دار الأسباب إلى دار الحساب .فلنعش هذه اللحظات بكل جوارحنا، ولنستحضر المشهد كأننا نراه رأي العين.

الوقفة الأولى: من قصَص الدنيا إلى مشهد الحشر ..لماذا هذا الانتقال المفاجئ؟

لاحظ كيف قفز بنا السياق القرآني من الحديث عن عاد وثمود وما حلّ بهم من صواعق في الدنيا، إلى مشهد الحشر الأعظم في الآخرة .ما سر هذا الانتقال؟

إنه انتقال تربوي عظيم، ينقلك من الخاص إلى العام، ومن الجزاء المعجل إلى الجزاء المؤجل .لقد جعل الله ما حل بعاد وثمود آية وعبرة، ولكنه يريدك ألا تظن أن القصة انتهت بموتهم! كلا، فموتهم وهلاكهم ما هو إلا بداية العذاب الحقيقي .وكأن الآيات تقول لك: لا تظنن الذين كفروا سبقونا، إنهم إلينا لا يفوتون، وموعدهم النار، وهناك المشهد الأكبر.

الدلالة النفسية والتربوية:
الله يريد منك أن تتجاوز بفكرك وخيالك ومشاعرك حدود دنياك الضيقة .أنت تعيش الآن في عالم الشهادة، ترى الظالم يصول ويجول، وترى المطيع يبتلى، وقد يحزنك هذا المشهد .فينقلك الله إلى عالم الغيب، ليريك النهاية الحتمية .إنه يريد أن يزرع فيك يقينًا راسخًا بأن الدنيا ليست دار قرار، وأن العدالة المطلقة آتية لا محالة .هذا الانتقال يمنحك طاقة صبر هائلة، ويجعلك تعيش في الدنيا بجسدك، ولكن بقلب معلق بالآخرة.

الدرس العملي الأول:
عندما ترى ظلمًا أو طغيانًا، فلا تحصر نظرك في المشهد الدنيوي فقط .انتقل فورًا بقلبك إلى "يوم الحشر" .تخيل مصير الظالم هناك، وتخيل ثواب المظلوم .هذا التمرين الذهني والقلبي يريح نفسك، ويمنعك من اليأس، ويجعلك تستمر في طريق الحق بثبات.

الوقفة الثانية: ﴿يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ...حين يتحول الإنسان إلى عدو لله!

تأمل هذا الوصف المرعب: "أعداء الله" .إنهم ليسوا مجرد "كافرين" أو "مجرمين"، بل هم "أعداء" لله رب العالمين! كيف يصير العبد الضعيف عدوًا لخالقه القوي؟ لقد كانوا في الدنيا يحاربون أولياء الله،

ويكرهون دينه، ويستهزئون برسله، ويحاولون طمس نوره .إنهم باتخاذهم هذا الموقف، أعلنوا العداوة صراحة.

فانظر كيف أن الله يصفهم بهذا الوصف في ذلك اليوم، ليفضح حقيقتهم، وليبين أن جريمتهم ليست مجرد خطأ أو سهو، بل هي عداوة متعمدة للحق وأهله.

الدرس العملي الثاني:
راجع ولاءاتك ومواقفك .هل في حياتك ما يجعلك تصطف في صف "أعداء الله"؟ احذر أن تواليهم أو ترضى بفعالهم .وتذكر أن الله ولي الذين آمنوا، فكن وليًا لله، تكن من حزبه المفلحين، لا من أعدائه المحشورين إلى النار.

الوقفة الثالثة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ...مشهد الذل والتفريق المهين

ثم يصف كيفية سوقهم: "فهم يوزعون" .ما أبلغ هذه الكلمة وأوجزها! يقال "وزع" أي حبس وكفّ .و المعنى هنا أنهم يُحبس أولهم على آخرهم، ويُجمعون، ثم يُساقون إلى النار سوقًا عنيفًا.

لكن انظر إلى التدقيق القرآني العجيب! لقد ورد في الأثر والتفسير أنهم لا يساقون جميعًا في كتلة واحدة، بل يوزعون جماعات جماعات .تحشر كل جماعة مع مثيلاتها: الزناة مع الزناة، الطغاة مع الطغاة، السكارى مع السكارى، المرابون مع المرابين، المنافقون مع المنافقين .كل فئة توزع مع من شاركها في جريمتها! إنه مشهد الفضيحة الكبرى، حين يُقرن المرء بنظرائه في الجريمة، فيزداد خزيًا على خزي.

المثال التقريبي:
تخيل أنك في مسيرة ضخمة، لكنهم لا يسيرونك مع الصالحين، بل يفرزونك مع مجموعة معينة . وينادى: أين الظلمة؟ فيُجمعون .أين أكلة أموال اليتامى؟ فيُساقون .أين شاهدو الزور؟ فيُدفعون.
تأمل معي هذا السؤال الذي يخترق قلبك:
في أي جماعة ستُوزع في ذلك اليوم؟ مع أي فوج ستُحشر؟ هذا ليس سؤالًا نظريًا، بل هو سؤال مصيري وسلوكي! انظر إلى سلوكك اليوم، إلى ما تكرره في خلواتك، إلى ما تتلذذ به، فستعرف لجناح أي طائر من طيور المعاصي أنت!

الدرس العملي الثالث:
افحص نفسك الآن، لا غدًا! هل هناك ذنب تتساهل فيه؟ هل هناك معصية تألفها؟ تصور للحظة أنك تقف في طابور أهل هذه المعصية، تخزى بجوارهم في عرصات القيامة .أرأيت كم هو مخزٍ ذلك المشهد؟ اقطع حبل هذا الذنب الآن، وتب إلى الله، لتنتقل من صف الهالكين إلى صف الناجين.

الوقفة الرابعة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ...الوصول إلى قعر المأساة

وتستمر الرحلة في سرد المشهد: "حتى إذا ما جاءوها" أي حتى إذا ما بلغوا النار ووصلوا إليها .إنها لحظة الحقيقة المطلقة .في الدنيا، كانوا يكذبون بها، ويسخرون من أخبارها، أما الآن فهم على أعتابها ، يرون بأعينهم لهيبها، ويسمعون زفيرها وشهيقها.

يا الله! كم كانوا في الدنيا يجادلون: "أين هي النار؟ متى هي؟ لا نراها!" .والآن، ها هم يرونها رأي العين، فلا ينفعهم جدال ولا هروب.

الدرس العملي الرابع:
لا تنتظر حتى "تأتيها" لتصدق! بل صدق بها الآن وأنت بعيد عنها آمن .إن الإيمان بالغيب هو علامة صدقك .استحضر مشهدها في كل مرة تدعوك نفسك فيها لمعصية: أتريدني أن أكون ممن "جاءوها"؟

الوقفة الخامسة: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ...حين تنقلب أعضاؤك إلى خصوم!

وهنا تأتي الذروة، والمشهد الذي يخلع القلوب: "شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون" .إنهم في قمة الحيرة والذهول .من يشهد عليهم؟ ليس ملك من الخارج، بل أقرب الأشياء إليهم! جوارحهم وأعضاؤهم التي كانت وسيلتهم للمتعة والجريمة في الدنيا.

تأمل عظمة هذا المشهد القرآني الذي يخاطب أعماق النفس البشرية:
.١السمع: الذي كان يصغي للغيبة، للنميمة، للأغاني المحرمة، للاستهزاء بالدين .ينطق الآن ويقول: كنتُ أستمع للحرام!
.٢البصر: الذي كان ينظر للعورات، ويتلذذ بمشاهدة المحرمات، ويتصفح الحرام .ينطق ويقول: كنتُ أرى المعاصي ولا أغض طرفي!
.٣الجلد: الذي باشر الحرام، الذي تعرق في المعصية، الذي تحرك بحثًا عن الشهوات الفاسدة .ينطق ويشهد! إنه ليس جلدًا واحدًا، بل "جلود" لتشمل كل موضع من بدنك.

الدلالة التربوية العميقة:
الشهود الذين يشهدون على أعمالك هم أقرب المقربين إليك! لقد كانوا جزءًا منك، ولكنك أنت الذي سلطتهم على الحرام، وأنت الذي استخدمتهم في ما يغضب الله .إنهم لم يختاروا ذلك، بل سُيّروا بأوامرك أنت.

تأمل هذا المثال التقريبي الخطير:
تخيل أنك سكنت في بيتك أفاعي وثعابين سامة .أنت الذي أطعمتها وسقيتها ورعايتها .وأنت تظنها مسالمة، أو تظن نفسك قويًا عليها .لكنك غفلت! كبرت تلك الأفاعي، وقويت، وعند أول فرصة، تنهشك وتلدغك، وتصيبك في مقتل! هكذا بالضبط جسدك وأعضائك! أنت مسؤول عنهم، وعن تربيتهم وإعدادهم .إن ربيتهم على الطاعة والخير، شهدوا لك يوم القيامة .وإن أهملتهم وأطعمتهم الحرام، انقلبوا لك أعداءً يلدغونك بشهادتهم عليك.

الدرس العملي الخامس) في غاية الأهمية(:
لا تتساهل في تربية جسدك وأعضائك! كل يوم، أنت تطعم عينيك وسمعك وجلدك .ماذا تطعمهم؟ إن كنت تطعمهم الحرام والشهوات، فاعلم أنك تربي ثعابين ستلدغك يوم القيامة .وإن كنت تطعمهم الطاعة وغض البصر وحفظ السمع، فأنت تربي ملائكة تشهد لك بالخير .كل لحظة تفكر: ماذا أفعل الآ ن بسمعي؟ ماذا أفعل ببصري؟ ماذا أفعل بجلدي؟
هذا المشهد يريد أن يربيك لترى نهاية إهمال تربية الأعضاء وعدم تزكيتها .إن تلبية رغباتها بلا ضوابط الشرع، سيجعلها عدوًا لك يوم القيامة، تلدغك وتشهد عليك فتوبقك.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات

الرسائل الفكرية:

.١العدالة الإلهية المطلقة: لا يُظلم أحد يوم القيامة، فالحجة تقوم على الإنسان من أقرب شيء إليه: نفسه.
.٢فناء الدنيا: الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، والمصير الحتمي إلى حساب دقيق.
.٣تحول العلاقات: العلاقات في الآخرة تختلف جذريًا، فالحبيب قد يصير عدوًا، والعدو قد يشهد لك أو عليك.

الرسائل النفسية:

.١الخوف المحفز: هذا المشهد يزرع في النفس خوفًا صحيًا يدفعها للعمل وتصحيح المسار.
.٢الشعور بالمسؤولية الذاتية: تدرك أنك مراقب من داخل نفسك، فلا يمكن أن تخفي شيئًا، فهذا يورث الإخلاص في الخلوات.
.٣الندم الاستباقي: بدل أن تندم يوم القيامة، تندم اليوم وتتوب، فتسلم من الشهادة التي تفضح.

الرسائل التربوية والعملية:

.١مراقبة الجوارح: تربية عملية على مراقبة السمع والبصر والجلد في كل لحظة.
.٢التزكية اليومية: مشروع يومي لتربية الأعضاء على الطاعة: سمع يسمع القرآن، بصر يقرأ في كتاب الله، جلد يصلي ويصوم ويتصدق.
.٣بناء مجتمع مسؤول: مجتمع يدرك أفراده أن كل أفعالهم مسجلة، فيسود فيه الحياء والأمانة.

كيف تبني هذه الآيات الإنسان والمجتمع والحضارة؟

أولا ً: بناء الإنسان) الفرد(:

تبني فيه "الوعي الذاتي" في أرقى صوره .إنسان يعلم أن جوارحه ستشهد عليه، فيصبح رقيبًا على نفسه بنفسه .لا يحتاج لشرطي خارجي يمنعه من المعصية، بل يكفيه استحضار هذا المشهد .وهذا هو قمة النضج الإيماني.

ثانيًا: بناء المجتمع:
تخيل مجتمعًا كل فرد فيه يستشعر أن سمعه وبصره وجلده شاهد عليه .ستقل الجرائم، ويسود الحياء، وتكثر الأمانة، لأن الخوف من الفضيحة الكبرى يوم القيامة أشد من الخوف من أي عقاب دنيوي .إنه مجتمع يبتعد عن الغيبة والنميمة والنظر للحرام، فيطهر من الأمراض الاجتماعية.

ثالثًا: بناء الحضارة والتنمية البشرية:
الحضارة الحقيقية لا تقوم على التقدم المادي فقط، بل على إنسان متوازن، يعرف غاية وجوده .هذه الآيات تعطي الإنسان غاية: النجاة من هذا المشهد .فيعمل ويبدع ويتقن، ولكنه يفعل ذلك كله في إطار التقوى والخوف من الحساب، فتقوم حضارة مباركة لا حضارة مادية جوفاء.

الخاتمة: ماذا يريد المولى منا وكيف نعيش الآيات واقعًا عمليًا؟

بعد هذه الرحلة إلى أرض المحشر، ماذا يريد الله منا؟
١.انظر إلى جسدك كأمانة لا كوسيلة للمتعة فقط: هو شاهد لك أو عليك .ربّيه اليوم على الطاعة، ليسلم لك غدًا.
٢.تفكر كل يوم: مع أي جماعة سأوزع غدًا؟ هذا التفكر يغير مسار يومك بالكامل.
٣.أقِم على نفسك الحجة الآن: قبل أن يقيمها الله عليك يوم القيامة .حاسب نفسك قبل أن تحاسب.
٤.اسجد وقل: "اللهم إني أسألك أن تجعل سمعي وبصري وجلدي شاهدي لي لا عليّ" .إنها تربية للجوارح قبل فوات الأوان.

يا من تقرأ هذه الآيات، انظر إلى يدك، إلى عينك، إلى جلدك .هذه الأعضاء التي تطيعك الآن، ستأمرها فلا تطيعك غدًا إلا بما سطرت فيها .فارحم نفسك اليوم، واملأ صحائف أعضائك بنور الطاعة، لتكون لك نورًا على الصراط، لا نارًا تشهد عليك بين يدي الرحمن.

المبحث الثانى

الجدل والخصام بين الانسان واعضاءه السمع والبصر والجلود التى تشهد عليه

يا من وقفنا معًا على مشهد الحشر، ورأينا الأعضاء تشهد على أصحابها، تعالوا نغوص أكثر في أعماق هذا المشهد المهيب. لقد رأينا أن السمع والبصر والجلود تنطق وتشهد، والآن يأتي القرآن ليرينا الحوار الذي يدور، والخصام والنزاع بين الإنسان وأعضاء جسده. إنه مشهد ينبغي أن يقشعر له بدنك، لأن تراه بعين اليقين، وتسمع بأذن قلبك ما يدور فيه.

تأمل معي قول الله سبحانه:
**﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ٢٣﴾

هذه الآيات لا تخبرنا خبرًا فقط، بل تنقلنا إلى قلب المحكمة الإلهية، وتسمعنا صوت الخصام، لنرى ماذا يقول الإنسان، وبماذا تجيب أعضاؤه، ولنكتشف أصل الداء الذي أوقعه في هذه الورطة العظمى.

الوقفة الأولى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ مشهد المواجهة الصادمة

بعد أن تنطق الجلود والأعضاء وتشهد، يصدم الكافر صدمة العمر. إنه يلتفت، ذاهلا ً مذعورًا، إلى جلده وسمعه وبصره، ويسألهم سؤال المتعجب المستنكر: "لم شهدتم علينا؟!".

تأمل معي كلمة "لِمَ" هذه الاستفهام التعجبي يحمل في طياته ألف معنى! إنه سؤال المطعون من أقرب الناس إليه. وكأنه يقول لهم:

· ألم أكن أحرص عليكم في الدنيا؟
· ألم أكن أحميكم من كل أذى؟
· ألم أسهر على راحتكم ومتعتكم وجمالكم؟
· فكيف تتحولون اليوم إلى ألد أعدائي؟ كيف تشهدون عليّ وتلقون بي إلى النار؟

هنا يبرز الخصام والنزاع الداخلي الذي يحدث في ذلك الموقف! العلاقة التي كانت قائمة على المسالمة والخدمة المتبادلة في الدنيا، انقلبت فجأة إلى عداوة وخصومة. الإنسان الذي كان يدلل جسده، ينظر الآن إليه نظرة الخائن! والأعضاء التي كانت وسيلته للمتعة، صارت سببًا في تعاسته الأبدية.

الدرس العملي الأول:
انظر اليوم إلى علاقتك بجسدك وأعضائك. هل أنت في خصام معهم أم في وئام؟ الوئام الحقيقي هو أن تقودهم إلى طاعة الله، فيشهدوا لك. أما إن أطعتهم في المعاصي، فاعلم أنك تبني خصومة المستقبل. اسأل نفسك: هل مشيت بقدميك إلى المسجد أم إلى الحرام؟ هل تكلمت بلسانك بالخير أم بالغيبة؟ الجواب يحدد هل سيسألك جلدك غدًا: "لِمَ شهدت عليك؟" أم سيقول لك: سررت بك!

الوقفة الثانية: المنطق الخادع للإنسان.. دفاعٌ يفضحه الواقع

وراء قوله: "لِمَ شهدتم علينا؟" يكمن منطق خفي يستحق أن نستخرجه ونحلله. هذا السؤال يعبر عن عتب دفين، يكشف كيف كان يفكر هذا الإنسان في الدنيا. لقد كان يعتقد أنه باستعمال أعضائه في الشهوات إنما يُحسن إليها، بل إنه "يضحي" من أجلها!

كم من الناس اليوم يفكر بهذا المنطق الأعوج نفسه؟

· يقول أحدهم: "أنا لا أستطيع أن أغض بصري عن هذه المحرمات، لأني أخاف على نفسي من الكبت والحرمان!"
· ويقول آخر: "أنا أتعامل بالربا والمال الحرام، لأني أريد أن أوفر لعائلتي ولنفسي حياة جميلة كريمة، وأخشى علينا من الفقر والمسكنة!"
· ويقول ثالث: "أنا أغش في تجارتي، لأجمع ثروة أضمن بها مستقبل أولادي، وأجنبهم شظف العيش!"
· وآخر يهتم بجمال جسده ونضارة جلده: "أنا أذهب إلى أماكن الاختلاط المحرمة، وأتعطر وأتجمل، لأني أريد أن أظهر بأحسن صورة، وأحافظ على جمالي!"

أرأيت هذه الحجج؟ إنها كلها تصب في قالب واحد: "فعلت الحرام لأجلك أيها الجسد! حرصت عليك وخفت عليك من المشقة!". وهذا هو عين ما سيقوله الكفار لجلودهم: "لقد عملنا ما عملنا في الدنيا لأجلكم، كي تذوقوا اللذة والمتاع!".

الدرس العملي الثاني:
راجع فورًا أي سلوك خاطئ تمارسه بحجة "الخوف على نفسك" أو "الحرص على مستقبلك" أو "الاهتمام بجمالك". هذه ليست رعاية، بل هذه خديعة شيطانية! الرعاية الحقيقية لنفسك وأعضائك هي أن تطعمها من حلال، وتكسبها بالطاعة، وتصونها عن النار. لا تخدع نفسك بأن المعصية رحمة بك، فما نهى الله عنه إلا وفيه مفسدة لك، وما أمر به إلا وفيه سعادتك.

الوقفة الثالثة: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾: رد الجلود الذي يخرس الألسنة

ويأتي الجواب من الجلود والأعضاء! إنه رد في غاية القوة، يخرس صاحبه، ويسكت كل حججه. تأمل قولهم: "أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ".

إنهم لا ينسبون النطق والشهادة إلى أنفسهم، بل يفوضون الأمر كله لله. وكأنهم يقولون لصاحبهم:

· لا تعاتبنا نحن! فلسنا الذين اخترعنا هذه الشهادة!
· إن الذي أنطق كل شيء في هذا الكون هو الذي أنطقنا.
· نحن مسخرون بأمره، كنا في الدنيا مسخرين لك، واليوم نحن مسخرون لله رب العالمين.
· إن كنت تريد أن تعاتب، فعليك أن تعاتب نفسك التي أوقعتنا وإياك في هذا الموقف.

الدلالة العقدية العميقة:
هنا يبرز مفهوم "القدرة الإلهية المطلقة". الله الذي خلقك أول مرة، والذي أنطق كل شيء، هو الذي جعل أعضاءك تنطق اليوم. هذا المشهد يغرس في نفس المؤمن عظمة الله، ويجعله يستحضر هذه القدرة في كل لحظة: "إن الله قادر على أن ينطق جلدي ليشهد عليّ، فكيف أعصيه؟!". هذا التواضع لله والخضوع لقدرته هو جوهر الإيمان.

الدرس العملي الثالث:
عش حياتك وأنت تستشعر أن الله "أنطق كل شيء". لا تظن أنك في خلوتك بعيد عن الرقابة، فالله هو الذي سلط عليك أعضاءك ليشهدوا. وإذا أردت ألا ينطق جلدك بما يسوءك غدًا، فاملأه اليوم بأعمال لا تخجل منها: سجود، وقراءة قرآن، وصدقة. عندها، إن نطق جلدك غدًا، فلن ينطق إلا بجميل.

الوقفة الرابعة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ...﴾ الكشف عن جذر المشكلة: الظن السيئ بالله

ثم تواصل الأعضاء كشفها للمأساة الحقيقية: "وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ". إنهم يقولون: أنتم لم تكونوا تخافون منا، ولم تفكروا أصلا ً أننا سنشهد عليكم! لقد كنتم تظنون أن الأمر سيمر بسلام.

فما هو أصل المشكلة إذن؟
تجيب الآية التالية: "وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ". هنا انكشف الداء العضال! إنه الظن السيئ بالله!

لماذا كانوا يستترون من الناس ولا يستترون من الله؟ لأنهم وقعوا في ظن خاطئ أن الله لا يعلم كل ما يفعلون. هم يعلمون أن الله يعلم بعض الأمور، لكنهم ظنوا أنه لا يعلم تفاصيل الخلوات، ولا خفايا النوايا، ولا ما يدور في الظلام. هذا الظن السيئ هو الذي جرأهم على المعاصي. لقد عاملوا ربهم معاملة الغافل الجاهل، لا معاملة العليم الخبير.

الدرس العملي الرابع:
اسأل نفسك بصدق: هل تستحي من الناس أكثر مما تستحي من الله؟ هل تخاف من كاميرا المراقبة ولا تخاف من نظر الله؟ هذا هو عين الداء! اعلم أن الله يعلم السر وأخفى. إياك أن يظن قلبك أن الله غافل أو جاهل بما تفعل. هذا الظن هو الذي يُردي صاحبه. صحح ظنك بربك: إنه يعلم كل صغيرة وكبيرة، وهو القادر على كل شيء.

الوقفة الخامسة: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بيان علة الهلاك و الخسران المبين

ثم يأتي الحكم النهائي، والبيان القاطع لسبب الهلاك: "وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ". "أرداكم" أي أهلككم وألقاكم في الردى. فالسبب المباشر لدخولهم النار لم يكن مجرد أعمالهم الظاهرة، بل كان هذا الظن الفاسد هو الذي أوقعهم.

إنهم خسروا كل شيء: خسروا حياتهم، خسروا أهليهم، خسروا فرصتهم في النجاة، والأدهى أنهم خسروا أنفسهم. الخسارة أن يورد الإنسان نفسه إلى النار! الخسارة أن يوصل الإنسان جسده إلى الحريق بالإعراض عن الله.

فهنيئًا لمن ربح نفسه، وتعسًا لمن أرداها بهذا الظن السيئ.

الدرس العملي الخامس:
انظر إلى حالك اليوم! هل أنت مع من صححوا ظنهم بالله، فأحسنوا العمل وأخلصوا، فيكونون من الفائزين؟ أم أنك تسير على طريق من ظن أن الله لا يعلم، فأرداه ظنه؟ لا تجعل ظنك السيئ هو سبب شقائك الأبدي. أحسن الظن بربك، واعمل على هذا الأساس.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيات (مع مفاهيم عملية لبناء الإنسان والحضارة):

الرسائل الفكرية:

1. مفهوم الظن بالله: العمل الصالح يثمر من حسن الظن بالله، والمعصية تثمر من سوء الظن به.
2. شمول العلم الإلهي: الله يعلم كل صغيرة وكبيرة، ولا تخفى عليه خافية.
3. حقيقة الاستتار: الإنسان لا يمكنه أن يستتر من خالقه.

الرسائل النفسية والتربوية:

1.الخوف من الخصومة مع الجسد: ازرع في نفسك الرهبة من أن تكون أعدى أعدائك هي جوارحك التي بين جنبيك.
2.تصحيح الدوافع: راقب لماذا تفعل ما تفعل؟ هل هو إرضاء لله، أم "حرص" مزعوم على الجسد ينتهي إلى معصية؟
3.مراقبة الظن بالله: استبدل كل فكرة تقول: "الله لن يحاسبني على هذا الشيء الصغير"، بفكرة: "ربي يعلم، وسيجازيني".

مفاهيم لبناء الحضارة والتنمية البشرية:

· مجتمع "الأعضاء الشاهدة": مجتمع يدرك أفراده أن كل حركة مسجلة، فينتج مجتمعًا يسوده الأمان والإتقان.
· حضارة "حسن الظن بالله": حين يحسن الناس ظنهم بربهم، يتحولون إلى الإبداع والعمل الصالح، وتقوم حضارة على الإيمان والإحسان.

الخاتمة: كيف نعيش الآيات واقعًا عمليًا؟

بعد هذا المشهد العظيم، ماذا يريد المولى منا؟

1.تذكر أنك في خصام أو وئام مع جسدك: اختر أي الحزبين أنت .هل سيكون جلدك وسمعك وبصرك شاهدًا لك أم عليك؟
2.أصلح ظنك بربك قبل كل شيء: اجلس في سكون الليل، وخاطب ربك: "إني أحسن الظن بك، فأعني على أن أحسن العمل".
3.وازن بين خوفك من الناس وخوفك من الله: إذا هممت بمعصية، فاستحضر أن نظر الله إليك أعظم من نظر الخلق.
4.في تربية الأولاد: لا تخوفهم فقط من عذاب الله، بل ازرع فيهم مراقبة الله، وحسن الظن به، وعلمهم أن أعضاءهم ستنطق؛ فسيكرهون المعاصي حبًا في النجاة.

اجعل هذه الآيات زادك، وتذكر دائمًا أن أعضاءك التي تخدمك اليوم ستكون غدًا خصمك أو شفيعك، فاملأ صحائفها بما يسرك لا بما يسوؤك.

المبحث الثالث

يا من عشنا معًا مشاهد الحشر المهيبة، ورأينا الخصام العجيب بين الإنسان وجوارحه، وسمعنا شهادة الجلود والأسماع والأبصار، واكتشفنا أن الظن السيئ بالله هو الذي أردى أولئك الأشقياء، تعالَ الآن نقف على آية تختم هذا المشهد العظيم، وتضع النقطة الأخيرة في قصة أولئك الذين استحبوا العمى على الهدى.

تأمل معي قول الله جل في علاه:
﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾

هذه الآية ليست مجرد خبر، بل هي إعلان ختامي يصدر من المحكمة الإلهية العادلة. إنها تصف الحالة النفسية لأهل النار بعد أن أفحمتهم شهادة جوارحهم، وبعد أن اعترفوا بذنوبهم. إنها تكشف عن الحقيقة المرة التي تنتظر كل من أصر على الكفر والعناد: إنه باب الأمل الذي أغلق إلى الأبد، إنها اللحظة التي يدرك فيها الإنسان أن الفرصة قد ضاعت، ولن تعود أبدًا.

المقدمة: حين يصبح الصبر نقمة لا نعمة!

تخيل معي إنسانًا في الدنيا يمر بمصيبة فيصبر، فنقول له: "صبرك سيفرج همك، صبرك سيرفع درجتك". الصبر في الدنيا باب للفرج، وطريق للأجر. أما في هذه الآية، فنحن أمام مشهد مختلف تمامًا. "فإن يصبروا" هنا لا تعني الصبر الذي يرجون منه خيرًا، بل هو صبر على العذاب لا طائل تحته ولا مفر منه. وفي المقابل، "وإن يستعتبوا" أي يطلبوا الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا ويعملوا صالحًا، "فما هم من المعتبين" أي لا يجابون إلى ما طلبوا، ولا يعطون ما سألوا.

المقاصد والأفكار الرئيسية:

.1إغلاق باب التوبة نهائيًا بعد الموت.
.2الصبر في الآخرة ليس فضيلة، بل هو اضطرار لا خيار معه.
.3طلب الرضا والعودة) الاستعتاب (لا ينفع بعد فوات الأوان.
.4مشهد اليأس المطلق هو أشد أنواع العذاب النفسي.
.5قيمة الفرصة في الدنيا: باب التوبة مفتوح الآن.
.6حتمية الجزاء الإلهي العادل.

فهيا بنا نعيش وقفات هذه الآية بكل جوارحنا.

الوقفة الأولى: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾... الصبر الذي لا أجر فيه!

انظر كيف تبدأ الآية بحرف الفاء "فإن". إنها فاء التفريع، تعطف هذا المصير على ما سبق من شهادة الجلود، وبيان سوء ظنهم بالله. بعد كل ذلك، قيل لهم: "فإن يصبروا". الصبر هنا ليس اختيارًا منهم، بل هو اضطرار وقسر. هم في النار، والعذاب يغمرهم من كل جانب، فليس لهم إلا أن "يصبروا" أي يتحملوا. لكن هل ينفعهم هذا الصبر؟ هل يخفف عنهم؟ هل يكتب لهم به أجر؟

كلا! ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ النار هي المثوى، أي المسكن والمقر الدائم. صبروا أم جزعوا، النتيجة واحدة: النار مثوى لهم. هذا هو معنى اليأس الكامل.

الدلالة النفسية العميقة:
في الدنيا، الصبر فضيلة لأنه يرفع الدرجات ويكفر السيئات. الصبر في الدنيا مقرون بالأمل والرجاء. أما في الآخرة، فالصبر مجرد تحمل للألم بلا ثمرة، لأنه لا عمل هناك ولا تكليف. هذا الفارق يريك أن الدنيا دار العمل والأمل، والآخرة دار الجزاء فقط.

مثال تقريبي:
تخيل طالبًا في قاعة الامتحان. الوقت ما زال متبقيًا، فيجتهد ويصبر على مشقة التفكير، ويرجو النجاح. هذا صبر محمود. أما طالب آخر غش، فكشف أمره، وطُرد من القاعة، وفصل من الجامعة نهائيًا. ثم يقول: "سأصبر". صبره هذا لا يعيده إلى الجامعة! إنه صبر اضطرار لا خيار معه. هذا مثال مصغر لحال أهل النار.

الدرس العملي الأول:
اغتنم صبرك اليوم! كل تعب تتحمله في الطاعة، كل شهوة تصبر عنها، كل ألم تبتلى به، هو صبر مأجور، صبر يرفعك عند الله. تذكر أن صبر الدنيا يعقبه فرج، ويعقبه أجر. لا تدع الأيام تمر وأنت لا تستثمر صبرك.

الوقفة الثانية: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾... المنزل الأبدي الذي لا رحيل عنه

تأمل كلمة "مثوى". المثوى في اللغة هو مكان الإقامة الدائمة والاستقرار. لم يقل الله: "النار مكان لهم" بل قال "مثوى". هذا يعني أنهم مقيمون فيها، لا يموتون فيها ولا يحيون، لا يخرجون منها أبدًا. وكلمة "مثوى" في سياق النار تزيد المشهد ألمًا؛ لأن الثواء في العذاب هو عين البلاء.

اللمسة البيانية:
تقديم "النار" على "مثوى لهم" يفيد الحصر والتأكيد. فالنار وحدها هي المثوى، لا سواها. ليس لهم دار أخرى، ولا منتقل عنها. هذا الإعلان القرآني يقطع أي وهم، ويسقط أي رجاء في النجاة.

الدلالة الفكرية:
هذه الآية تؤسس لعقيدة الخلود. إنها توضح أن مصير الكافرين ليس عذابًا مؤقتًا، بل هو دائم لا ينقطع. وهذا يزيد المؤمن يقينًا بأن أعظم استثمار هو ما كان للدار الآخرة، وأن الدنيا مهما طالت فهي متاع قليل.

الدرس العملي الثاني:
كل مشروع في حياتك، كل بيت تبنيه، كل وظيفة تسعى إليها، اسأل نفسك: "أين مثواي الدائم؟". إن كنت تظن أن المثوى هو تلك الدار الفاخرة أو تلك الوظيفة المرموقة، فأنت واهم. مثواك الحقيقي إما الجنة وإما النار. فأين أنت من الاستعداد لهذا المثوى الأبدي؟

الوقفة الثالثة: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾... طلب العتبى حين لا ينفع الندم

ثم ينتقل المشهد إلى محاولة يائسة: "وإن يستعتبوا". ما معنى يستعتبوا؟ الاستعتاب هو طلب العتبى، أي طلب إزالة العتب وإرضاء الخصم. في سياق الآية، المعنى أنهم يطلبون من الله أن يرضى عنهم، أو يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليتوبوا ويعملوا صالحًا.

تخيلهم الآن في لهب النار، يتقلبون في عذابها، فينادون ربهم: "ربنا أخرجنا منها نعمل صالحًا!". هذا هو الاستعتاب! إنهم يتوسلون، يرجون، يطلبون فرصة أخيرة.

لكن انظر إلى حكمة الله وعدله: متى كان هذا الطلب؟ إنه بعد انتهاء زمن العمل، وبعد أن قامت عليهم الحجة، وشهدت عليهم جوارحهم. لقد كانوا في الدنيا يستعتبون فلا يعتبون. تدعوهم الرسل فلا يستجيبون. يأمرهم الله فلا يطيعون. والآن، في وقت الجزاء، جاءوا يطلبون!

مثال تقريبي:
تخيل تاجرًا محتالا ً كانت تأتيه النصائح والتحذيرات مرارًا وتكرارًا: "اتق الله، لا تغش، لا ترب، تب إلى الله!". فيهزأ ويسخر ويستمر في غيه. ثم يأتي يوم يخسر فيه كل شيء، ويدخل السجن، فتجده يصرخ ويبكي: "أريد فرصة أخرى! سأكون أمينًا!". لكن القانون لا يرحم. هكذا بالضبط، بل أفظع، حال أهل النار.

الدرس العملي الثالث:
لا تؤجل التوبة! الشيطان يقول لك: "استمتع الآن، وتب لاحقًا!". لكن هل تضمن أن تبلغ "لاحقًا" هذه؟ كم من إنسان قال: "سأتوب غدًا" فجاءه الموت بغتة! باب الاستعتاب مفتوح لك الآن! الآن! لا بعد ساعة! تب الآن، وارجع إلى ربك الآن، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه استعتاب.

الوقفة الرابعة: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾... سد الأبواب وقطع الآمال

ويأتي الرد الإلهي الحاسم القاطع: "فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ". "المعتبون" هم الذين يُجابون إلى طلبهم، وتُقبل معذرتهم، ويُعطون ما سألوا من الرضا والرجعة. لكن هؤلاء، ليسوا من المعتبين أبدًا. لقد رُدّ طلبهم، وأغلقت دونهم الأبواب.

الدلالة التربوية:
هذا هو "اليأس المطلق". اليأس في اللغة هو القنوط وانقطاع الأمل. وأشد أنواع العذاب هو العذاب النفسي المصحوب باليأس. الإنسان يتحمل الألم الجسدي إذا كان يرجو الشفاء، لكن ألم الجسد مع يأس الروح هو الهلاك بعينه. وهذا هو حالهم: عذاب جسدي بالنار، ويأس نفسي من الخروج منها.

الرسالة النفسية:
هذه الآية تقول لك: الدنيا هي دار الأمل، والآخرة هي دار العمل الذي انتهى أمده. أصلح ما بينك وبين الله الآن، ما دمت في زمن "الاستعتاب" النافع. لا تكن ممن يطلب العتبى غدًا فلا يكون من المعتبين.

الدرس العملي الرابع:
كلما تساهلت في ذنب، تذكر هذه الآية: "فما هم من المعتبين". كم من كلمة حق أهملتها، كم من صلاة تكاسلت عنها، كم من صدقة بخلت بها؟ غدًا، ستتمنى لو تعود لتعمل، ولكن لن ينفعك الندم. فاجعل ا لآن زمن العمل، قبل أن تصبح من المتمنين الذين لا يجابون.

كيف تبني هذه الآية الإنسان والمجتمع والحضارة؟

الرسائل الفكرية:

· حقيقة دار الجزاء: إنها دار عدل لا رحمة فيها لمن كفر، بخلاف الدنيا التي وسعت رحمته فيها كل شيء.
· سنة الأمل والعمل: الأمل في الدنيا محفز للعمل، أما في الآخرة فقد انتهى العمل فلا ينفع الأمل.
· الوقت رأس مال الإنسان: العمر هو فرصتك الوحيدة، وكل لحظة تمر لا تعود.

الرسائل النفسية:

· الخوف من اليأس الأبدي: هذا المشهد يهز النفس لئلا تفرط في فرصة الدنيا.
· التحفيز بالزمن: شعورك بأن "باب التوبة قد يغلق" يجعلك تسارع إلى الخيرات.
· السكينة للمؤمن: من أحسن في دنياه، يسمع هذه الآية فتطمئن نفسه، لأنه ليس من أهل هذا المصير، بل هو في أمان.

الرسائل التربوية والعملية:

· تربية النفس على المبادرة: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد.
· تربية النفس على الخوف من سوء الخاتمة: أن تختم حياتك وأنت على معصية، فتصبح ممن لا يستعتبون.
· استثمار الصبر اليوم: كل صبر في الدنيا هو تجارة رابحة، فلا تضيعه.

أبعاد الآية وآفاقها:

البعد الفردي (الإنساني):
تبني فيك إنسانًا مستعِدًا للقاء الله، يوقن أن الدنيا مزرعة الآخرة، فيزرع فيها الخير ليجنيه غدًا، ولا يكون من الخاسرين.

البعد الاجتماعي:
مجتمع يدرك أن الفرص محدودة، وأن العدالة قادمة، فيسارع أفراده في الخيرات، ويتنافسون في الطاعات، وتعم البركة.

البعد الحضاري:
حضارة إسلامية تقوم على "العمل" و"الأمل" في الدنيا، و"اليقين" في الآخرة. إنها حضارة لا تغرق في المادية، لأنها تعلم أن المصير إلى الله، فتتقن وتبدع وتعدل.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي؟

بعد هذا المشهد، ماذا يريد الله منا؟

.1استعتب الآن: لا تنتظر! استعتب الله بالتوبة النصوح .قل: "رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي، وارحمني، وتب عليّ".
.2صبر اليوم ولا صبر الغد: اصبر على طاعة الله، واصبر عن معصيته، واصبر على أقداره .هذا الصبر هو الذي ينفعك .أما صبر الغد فلا ينفع أحدًا.
.3تذكر مشهد اليأس: كلما حاولت نفسك الأمارة بالسوء أن تزين لك معصية، تخيل نفسك واقفًا بين يدي الله، وقد أغلقت دونك أبواب الرحمة، وقل لنفسك: "أما من توبة؟ أما من فرصة؟!"، ثم اسجد وتب، لتكون من المعتبين اليوم، لا من المحرومين غدًا.

يا من تقرأ هذه الآيات، باب الرحمة مفتوح، والمنادي ينادي: "يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله". لكن اعلم أن هذا الباب سيغلق يومًا ما، فادخله اليوم مسرعًا، قبل أن يأتي يوم ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

المقطع الثاني

المبحث الأول

يا من أبحرنا في آيات الله، ووقفنا على مصارع الغابرين، ورأينا الخصام يوم الحشر، وشهدنا اليأس المطلق حين يغلق باب التوبة، تعالَ الآن نقف على آية تكشف لنا السر الخفي، والسبب العميق الذي أوصل أولئك إلى هذا المصير المشؤوم. إنها آية تحلل العلاقات الإنسانية والغيبية، وتضع يدك على أخطر ما يهدد إيمانك واستقامتك: قرناء السوء.

تأمل معي قول الله جل في علاه، وهو يزيح الستار عن كواليس الإغواء:

**﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ٢٥﴾

هذه الآية ليست مجرد خبر عن الماضين، بل هي إنذار لك أيها الحي الذي ما زال في زمن المهلة. إنها تكشف لك كيف تبدأ رحلة الانحراف، ومن أين تأتي الضربة التي تعطل العقل وتفسد الفطرة. تذكر، لقد بدأت السورة ب: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، والآن ترى بأم عينك عاقبة هذا الإعراض! هيا بنا نغوص في هذه الآية لنفهم خطورة التزيين، ودور الأصدقاء، وسنة الله في الذين يرفضون هداه.

الوقفة الأولى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾... عندما تكون العقوبة من جنس العمل!

لاحظ كلمة "قيّضنا". إنها فعل رباني عظيم. التقييض هو التقدير والتمكين والتسليط. فالله سبحانه وتعالى، بسبب إعراضهم عن القرآن ورفضهم لهداه، عاقبهم في الدنيا قبل الآخرة بأن هيّأ لهم وسلط عليهم قرناء سوء. من هم هؤلاء القرناء؟ إنهم شياطين الإنس والجن، "غاوين" أي ضالين مضلين، مهمتهم الأساسية: تزيين القبيح وتقبيح الحسن.

الدلالة التربوية العميقة:

هذه سنة إلهية خطيرة! الإعراض عن هدى الله، ورفض سماع الحق، يوجب عقوبة عاجلة في الدنيا: تسليط قرناء السوء عليك. عندما تدير ظهرك للقرآن، وعندما تقول: "قلوبنا في أكنة"، فإن الله يخذلك، ويوكل بك من يزين لك الضلال. إنه الجزاء من جنس العمل: رفضت قرناء الخير (الرسل والملائكة والهداة)، فسُلط عليك قرناء الشر (شياطين الإنس والجن). رفضت الوحي الذي يهديك، فارتميت في أحضان الوساوس التي ترديك.

الدرس العملي الأول:

انظر إلى حالك اليوم: هل تعيش مشكلة إدمان على ذنب معين؟ هل ترى أن طاعة الله ثقيلة على قلبك؟ اسأل نفسك بصدق: متى بدأ هذا؟! غالبًا ما تكون البداية إعراضًا عن مجلس علم، أو هجرًا للقرآن، أو تفريطًا في صلا ة. هذه العقوبة تتسلل إليك وأنت لا تشعر. فالزم باب الله، واعتصم بكتابه، لتكون في حصانة من أن يُقيّض لك قرناء السوء.

الوقفة الثانية: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾... غسيل الدماغ الذي يعطل العقول

وهنا نصل إلى عمل هؤلاء القرناء الخبيث: التزيين. ما معنى التزيين؟ إنه ليس مجرد الوسوسة، بل هو عملية

خداع شاملة، تجعل صاحبها يرى القبيح حسنًا، والحسن قبيحًا. إنه عمل خبيث يعطل خواص التمييز في العقل البشري.

· ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: يزينون لهم حاضرهم، فيجعلون المعصية التي يرتكبونها الآن تبدو لهم كأنها قمة المتعة و الجمال.

· ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ويزينون لهم ماضيهم، فينسون قبح ما فعلوا، ولا يراجعون أنفسهم، ولا يتوبون. بل ربما جعلوهم يفتخرون بمعاصيهم السالفة!

وبهذا، يُحاصر الإنسان. فلا هو يتوب من الماضي، ولا هو يقلع عن الحاضر. يظل في هذه الانتكاسة حتى يصبح في قبضة الشيطان، ولسانًا ينطق به، ويدًا يبطش بها.

المثال التقريبي الخالد:

تخيل حفرة كبيرة مليئة بالقاذورات والوحل، ورائحتها نتنة، ومنظرها مقزع. يأتي الشيطان وصحبه، فيغطون هذه الحفرة بالورود والرياحين والأزهار الجميلة. يمر المخدوع، فيرى الورود فيعجب بها، ويستمتع بمنظرها، ويظن أنه واقف في روضة! لا يشم الرائحة الكريهة، ولا يرى الوحل تحت قدميه. إنه مخدوع، لا يرى الحقيقة! هكذا بالضبط فعل القرناء بهؤلاء: زينوا لهم المعاصي، فغطوا قبحها ووحل عواقبها بزينة اللذة العابرة.

الدرس العملي الثاني:

لا تصدق كل ما يلمع! أي شهوة تزين لك، أي معصية تستهويك، قف لحظة واسأل: ماذا تحت هذا الغطاء الجميل؟ قشّر الوردة، وانظر تحتها. كل معصية، مهما بدت جميلة، فهي حفرة موحشة. صاحب الصالحين الذين يبصرونك بعيوبك، ولا تنخدع بمن يصفق لك على معاصيك.

الوقفة الثالثة: جذور المشكلة... الكبر والتقليد والجهل والهوى

لقد بدأت قصة هؤلاء بالإعراض عن القرآن. ولكن ما الذي جعلهم يعرضون؟ إنه مزيج قاتل من الكبر والتقليد الأعمى والجهل والهوى.

١. الكبر والغرور: أنفة من اتباع بشر، كما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾.

٢. التقليد الأعمى: التمسك بالموروث من الآباء والأجداد دون عقل ولا دليل، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾. هذا التقليد مثل المستنقع الآسن الذي تتكاثر فيه شياطين الجن والإنس.

٣. الجهل: الهوى وحده لا يكفي لارتكاب السيئات، بل لا بد من الجهل. فالجاهل لا يعرف الحق، ولا يدرك عواقب الباطل. والقرآن ملأ العلم والهدى، فالإعراض عنه يعني اختيار الجهل.

٤. الهوى: وهو الميل إلى الشهوات. هذا الهوى هو الثغرة التي ينفذ منها الشيطان.

عندما تجتمع هذه العناصر (كبر، تقليد، جهل، هوى)، يكون الإنسان فريسة سهلة للشيطان. يجد مدخلا ً واسعًا إلى قلبه وعقله، فيبدأ في التزيين، ويعطل خواص التمييز.

الدرس العملي الثالث:

فتش في قلبك! هل تجد فيه ذرة كبر تمنعك من قبول الحق؟ هل تعيش سجين موروثات وعادات تخالف الشرع؟ هل تستسلم لجهلك فلا تطلب العلم؟ هل تتبع هواك في كل شيء؟ إن وجدت شيئًا من هذا، فاعلم أنك تعطي الشيطان مفتاح بيتك. حصن نفسك بالتواضع، واتباع الدليل، وطلب العلم، ومجاهدة الهوى.

الوقفة الرابعة: تدرج الشيطان وخطواته للسيطرة على الإنسان

القرناء لا يأتون مرة واحدة. إنهم يتدرجون بك، خطوة خطوة، حتى يسيطروا عليك تمامًا. كما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله، إن الشيطان يقف للإنسان بسبع عقبات، يصعده فيها درجة درجة:

١. عقبة الكفر: فإن نجا منها بالإيمان...

٢. عقبة البدعة: فإن نجا منها باتباع السنة...

٣. عقبة الكبائر: فإن نجا منها بالتقوى...

٤. عقبة الصغائر: فإن نجا منها بالاستغفار...

٥. عقبة المباحات: فيشغله بها عن المستحبات...

٦. عقبة الأعمال المفضولة: فيشغله بها عن الأعمال الفاضلة...

٧. وأخيرًا، يسلط عليه جنده ليؤذوه ويصدوه عن الخير.

هكذا يتدرج القرناء بالإغراء والإغواء والوساوس، حتى يصبح للإنسان لسانًا ينطق به الشيطان، ويدًا يبطش بها. عندها، يكون قد استحق الهلاك، وتحل عليه سنة الله الثابتة.

الدرس العملي الرابع:

لا تستهن بأي خطوة من هذه الخطوات! لا تقل: "هذا ذنب صغير!". فالصغائر تجر إلى الكبائر، والمباحات تجر إلى المكروهات. راقب درجتك على هذا السلم، واجتهد في الصعود في مراتب الإيمان، لا النزول في دركات الشيطان.

الوقفة الخامسة: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ...﴾ سنة الله الواحدة

بعد أن تم تزيين القبيح لهم، وغرقوا في غيهم، جاءت اللحظة الحاسمة: "وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ". أي وجب عليهم كلمة العذاب، وثبت عليهم حكم الله. فما هو هذا القول؟ إنه سُنته التي لا تتبدل: أن الغاوين المكذبين مصيرهم إلى الهلاك. وهم ليسوا وحدهم في هذا، بل هم "فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ" في جملة أمم مضت قبلهم، من الجن والإنس، سارت على نفس الطريق، فحاق بهم ما حاق بهم.

الدلالة الفكرية:

هذا يؤكد أن ما حدث ليس حادثة استثنائية، بل هو قانون رباني مطرد. فاحذر أن تكون نسخة معاصرة من أولئك!

الدرس العملي الخامس:

اقرأ التاريخ، وتأمل في أحوال الأمم، واعتبر بمن ساروا في ركب الغواية. فالتاريخ يعيد نفسه، والأسباب واحدة. لا تظن أنك استثناء من السنن! سنة الله في المعرضين عن ذكره ماضية لا محالة.

الوقفة السادسة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾... الخسران الحقيقي

وتختم الآية بالحكم النهائي: "إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ". ما هو الخسران؟ إنه ليس خسارة مال أو جاه. إنه الخسران الأكبر: أن يخسر الإنسان نفسه! لقد كان لديهم عقل، فعطلوه. كانت لديهم فطرة، فطمسوها. كانت لديهم إرادة، فركنوها للغاوين. لقد خسروا الدنيا والآخرة، واستبدلوا الهدى بالضلال، والجنة بالنار.

الدرس العملي السادس:

اسأل نفسك كل ليلة: أنا اليوم، ربحت أم خسرت؟ ماذا أضفت إلى رصيدي عند الله؟ إن كنت في شك، فراجع أفعالك، وانظر مع من تمشي. الخسران ليس في نهاية الطريق فقط، بل الخسران هو أن تخطو كل يوم خطوة نحو الهاوية وأنت تحسب أنك تحسن صنعًا.

الرسائل والمفاهيم والتوجيهات من الآية

الرسائل الفكرية:

١. سنة التقييض: الإعراض عن الهدى يوجب تسليط قرناء السوء.

٢. حقيقة التزيين: هو عملية خداع متكاملة تعطل العقل وتقلب المفاهيم.

٣. جذر الانحراف: الكبر والتقليد والجهل والهوى هي المداخل الرئيسية للشيطان.

الرسائل النفسية والتربوية:

١. الخوف من رفقة السوء: صديق السوء أخطر من العدو الظاهر، لأنه يزين لك القبيح ويريك إياه حسنًا، فتألفه ولا تنفر منه.

٢. مراقبة مصادر التلقي: من أين تستقي أفكارك؟ من تسمع؟ بمن تتأثر؟ هذه الآية تجعلك تنتقي رفقتك بعناية شديدة.

٣. محاسبة الماضي: لا تدع "ما خلفك" من المعاصي يمر دون توبة، فالقرناء يزينون لك الماضي لتستمر في الغي.

توجيهات عملية لبناء الإنسان والمجتمع والحضارة:

· للفرد: اختر أصدقاءك من أهل القرآن والطاعة. صاحب من يذكرك بـالله رؤيته، ويزيد في علمك منطقه، ويرهبك في الآخرة عمله.

· للمجتمع: مجتمع يهمل تربية أبنائه على القرآن، ويفتح لهم أبواب رفقة السوء عبر الإعلام والشارع، هو مجتمع يربي الخاسرين بيده!

· لحضارة: حضارة إسلامية تنهض على أساس "الصحبة الصالحة" و"التذكير الدائم"، وتحارب التزيين الإعلامي للقبائح، لتنتج إنسانًا سويًا، عابدًا لله، عامرًا لأرضه.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي؟

بعد هذه الرحلة، ماذا يريد الله منا؟

1. تمسك بالقرآن: اجعل لك وردًا يوميًا، وافتح قلبك لتدبره. هو حصنك من أن يقيض لك قرناء السوء.

2. اختر صاحبك بعناية: انظر إلى أصدقائك، وإلى من تتابعهم في وسائل التواصل. هل هم يعينونك على الله، أم يزينون لك الدنيا ومعاصيها؟

3. احذر التزيين: أي عمل، قبل أن تقدم عليه، اسأل نفسك: ماذا قال الله فيه؟ لا تنظر إلى الخارج، بل إلى الحقيقة.

4. تب إلى الله من الماضي: لا تجعل "ما خلفك" عائقًا، بل امسحه بتوبة نصوح، واطوِ صفحته، وابدأ صفحة جديدة مع الله.

5. كن صاحبًا صالحًا لغيرك: لا تكن قرين سوء لأحد! كن صاحب خير، تذكر بـالله، وتعين على الطاعة.

يا من تقرأ هذه الآية، إن الطريق واضح، والفريقان قائم بينهما الصراع. فلا تكن ممن أعرضوا عن القرآن فقيض لهم قرناء السوء، بل كن ممن أقبلوا على الله، فقيض لهم الله رفقة الخير والهدى.

المبحث الثانى

يا من أبصرتم بعين البصيرة كيف أن الإعراض عن القرآن يجر إلى قرناء السوء الذين يزينون القبيح، تعالوا الآن نقف على آيات تكشف لنا الوجه الآخر للصراع. لم يعد الأمر مجرد إعراض فردي أو قرناء خفيين، بل تحول إلى مؤامرة جماعية منظمة، إلى حرب شعواء تشن على كلام الله. إنها آيات تنقلنا من دائرة الفرد إلى دائرة المجتمع، ومن خفاء الوسوسة إلى علن الدعاية المضللة، لترينا كيف يقف الكافرون صفًا واحدًا في وجه القرآن.

تأمل معي قول الله جل جلاله، وهو يصور هذا المشهد العلني:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾

هذه الآيات الثلاث تضع بين يديك استراتيجية الكافرين في محاربة الحق، وتكشف لك عن قانون الجزاء الإلهي العادل. هيا بنا نعيش وقفاتها بكل جوارحنا، ونستخرج منها ما يبني عقولنا وقلوبنا ومجتمعاتنا.

المقدمة: إعلان الحرب على النور

بعد أن رأينا كيف أن القرناء يزينون القبيح في الخفاء، يأتي المشهد الآن علنًا. كبراء الكفر يجتمعون، يخططون، ويتخذون قرارًا جماعيًا. لم يعد الأمر مجرد إعراض، بل صار تنظيمًا مضادًا للقرآن. إنهم يعلنون استراتيجيتهم في تحطيم هذا الكتاب العظيم، ويخاطب بعضهم بعضًا بصوت واحد: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾.

المقاصد والأفكار الرئيسية:

١.استراتيجية الكفار الموحدة في مواجهة القرآن.

٢.سلاح "المقاطعة والتشويش" كآلية لمنع التأثير.

٣.الثقة المطلقة في وعد الله بنصر الحق وإذلال أعدائه.

٤.العذاب من جنس العمل: من أعرض سمعَه، فله عذاب لا يريحه.

٥."دار الخلد" للذين جحدوا آيات الله.

الوقفة الأولى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾... المقاطعة الفكرية المنظمة

انظر كيف يبدأ القرار! "لا تسمعوا لهذا القرآن". إنه أمر مباشر، واضح، لا لبس فيه. إنهم لا يريدون من أتباعهم أن يقتربوا من القرآن أصلا ً! لماذا؟ لأنهم يدركون تمام الإدراك أن هذا القرآن له وقع على القلوب، وله جاذبية لا تقاوم. إنهم يعرفون أن مجرد "سماع القرآن" قد يهدم كل معاقل الكفر في القلب في لحظة.

فما هو الحل إذن؟ المقاطعة الكاملة. لا تستمع إليه ولا تفتح له أذنك ولا تقرأه. إنه اعتراف ضمني منهم بعجزهم عن مواجهته فكريًا. فلو كان باطلا ً لقالوا: "استمعوا له ثم ردوا عليه". لكنهم يعلمون أنه الحق، فلم يجدوا وسيلة إلا منع السماع.

المثال التقريبي المعاصر:

أليس هذا ما نراه اليوم تمامًا؟! هناك حملات ممنهجة على وسائل التواصل، تطالب الشباب بعدم الاستماع لفلا ن من الدعاة، أو بعدم قراءة كتاب معين، أو بتجنب آيات معينة تُتلى! لماذا؟ لأنهم يخافون أن يصل نورها إلى القلوب فيتغير الناس. إنها نفس الاستراتيجية القديمة في ثوب جديد.

الدرس العملي الأول:

انظر إلى حجم الخوف الذي يسكن قلوب أعداء الدين من القرآن. هذا وحده يجب أن يزيدك يقينًا بعظمة هذا الكتاب! حين ترى أعداءه يبذلون كل هذا الجهد لصرف الناس عنه، فاعلم أنه كنز عظيم يريدون حرمانك منه. فتمسك به أكثر، وأقبل عليه بشغف، ولا تسمع لمن يثبطك.

الوقفة الثانية: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾... استراتيجية التشويش والحرب النفسية

ثم يأتي الأمر الثاني، وهو في غاية الخبث: "والغوا فيه". "اللغو" هو الكلام الساقط الذي لا فائدة فيه، أو الصوت العالي غير المفهوم، أو الصفير والتصفيق، أي أحدثوا فيه تشويشًا بصخبكم ولغطكم.

لماذا هذا الأمر بالذات؟

لأنهم إن فشلوا في منع الناس من السماع كليًا، فعليهم أن يمنعوهم من الفهم. إن بقي شخص يسمع، فليسمع في جو من الفوضى والضجيج حتى لا يتدبر ولا يتأثر. إنهم يريدون قتل المعنى قبل أن يصل.

تأمل في عُمق هذه الاستراتيجية: إنها ليست حربًا على النص فقط، بل هي حرب على العقل الذي يتلقى النص. يريدونه مشوشًا، لا يفرق بين الحق والباطل.

المثال التقريبي المعاصر:

انظر اليوم إلى وسائل الإعلام. كم من برنامج يُستضاف فيه داعية أو عالم، فيُقاطع، ويُسخَر منه، وتُطرح عليه أسئلة تافهة، ويُدار الحديث إلى مواضيع جانبية! هذا هو "اللغو" بعينه. وهناك على مواقع التواصل، حملات "الترند" التافهة التي تشغل الناس عن الحق، والأخبار الكاذبة التي تصم الآذان، والإشاعات التي تملأ الجو ضجيجًا. كل هذا ليصد عن سماع القرآن وتدبره.

الدرس العملي الثاني:

انتبه إلى ما تتعرض له من "لغو" يومي! الترفيه المفرط، والأخبار التافهة، والإشاعات، والجدال العقيم... هذه كلها حرب تشن على عقلك وقلبك. نظّف بيئتك السمعية والبصرية من هذا اللغو. لا تمنح الشيطان مساحة في سمعك ليصرفك عن الحق.

الوقفة الثالثة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾... وهم الانتصار المؤقت

وهنا تبدو نيتهم المبيتة: "لعلكم تغلبون". أي رجاء الانتصار على محمد ﷺ وعلى دينه بهذه الحيلة. إنهم يظنون أنهم بهذه الوسائل الخسيسة سيطفئون نور الله! تأمل كلمة "لعل" التي تفيد الرجاء والترقب. إنهم غير متيقنين من النصر، بل هم في قلق دائم، ويحاولون كل وسيلة.

وهذا يعطينا قاعدة: الكافر دائماً في قلق وشك من مصيره. أما المؤمن فواثق بوعد الله، مطمئن إلى أن العاقبة للتقوى.

الدرس العملي الثالث:

لا ترهبك قوة أعداء الإسلام ولا تنسيقهم، فهم مهما خططوا يبقون في شك وقلق. كن واثقًا بوعد الله، واعمل بهدوء، وأبشر بالنصر، فإن الله مع المؤمنين.

الوقفة الرابعة: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾... رد الجبار المعاجل

ويأتي الرد الإلهي القاصم؛ لم يتركهم الله يتمادون في غيهم دون أن يسمعهم ما ينتظرهم. نلاحظ:

· "فلنذيقن" بلام التوكيد ونون التوكيد الثقيلة. إنه وعد إلهي لا يتخلف. و"الإذاقة" هنا تفيد أن العذاب سيخالط أرواحهم وجسومهم، فلا يفارقهم.

· "عذابًا شديدًا" أليمًا لا يوصف. شديد في ذاته، وشديد في استمراريته.

الدرس العملي الرابع:

اطمئن. إن كنت تعاني من رؤية المنكرين وهم يملؤون الدنيا ضجيجًا، فتذكر أن هذا الوعد آتٍ لا محالة. هذه ا لآية تبني فيك "اليقين العاطفي" بأن العدل قادم.

الوقفة الخامسة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾... الجزاء من جنس العمل المقيت

وهنا يتجلى قانون العدالة الإلهية الدقيق: "ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون". لاحظ كلمة "أسوأ". لم يقل: "ولنجزينهم بما كانوا يعملون" فقط، بل "أسوأ" ما عملوه. فإساءتهم في الدنيا بلغت ذروة السوء (محاربة كتاب الله)، فكان جزاؤهم في الآخرة أسوأ ما يمكن أن يتخيله عقل.

الدلالة التربوية:

الأعمال السيئة دركات. هناك سيء، وهناك أسوأ. والجزاء في الآخرة على قدْر خبث العمل. هؤلاء جمعوا إلى كفرهم محاربة دين الله، فاستحقوا "أسوأ" العذاب. فاحذر أن تجمع إلى معاصيك شيئًا من محاربة الدين أو الا ستهزاء بأهله، فيكون جزاؤك على قدر ذلك. واسأل نفسك: ماذا أفعل إن لم أستطع الطاعة؟ أقله لا أكون ممن يحاربها أو يثبط عنها!

الدرس العملي الخامس:

انظر إلى أعمالك اليوم. هل هناك شيء منها يدخل في "أسوأ" الأعمال؟ ليس مجرد المعصية، بل الدعوة إليها، أو تزيينها للناس، أو الاستهزاء بأهل الطاعة. إن فعلت، فبادر إلى التوبة، ومزّق هذا السجل الأسود قبل فوات الأ وان.

الوقفة السادسة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾... المصير الأبدي لأعداء النور

وتأتي الآية الخاتمة لتعلن الحكم القطعي: "ذلك جزاء أعداء الله". هو ليس مجرد عذاب، بل هو "جزاء" مقدر بعدل، وليس ظلمًا. وانظر إلى الوصف "أعداء الله"! إنه يذكرك بأن العداوة لله هي أعظم ذنب.

و"دار الخلد" هي الإقامة الدائمة التي لا نهاية لها. وفي وصف النار بأنها "دار" لهم سخرية من سعيهم في الدنيا؛ لأنهم بنوا الدور والقصور، فأبدلهم الله بها نارًا تلظى هي "دارهم" الأبدية.

الدرس العملي السادس:

أينما سكنت في الدنيا، وأينما أقمت، تذكر أن مثواك الحقيقي هو الجنة أو النار. فلتكن الدنيا معبرًا للوصول إلى "دار الخلد" في الجنة، لا دار الخلد في النار. عش في الدنيا كمسافر، وابنِ آخرتك فيها.

الوقفة السابعة: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾... بيان العلة الحقيقية للعذاب

ويأتي التعليل الأخير: "جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون". هذا هو أصل المشكلة وجذر الداء: الجحود بالآيات.

لقد جاهدوا بكل وسيلة لئلا تصل الآيات إليهم وإلى غيرهم، فكان العذاب الأليم جزاءً عادلا ً.

الرسالة الفكرية:

الإنسان الذي يصل إلى درجة "الجحود" للقرآن، وهو رآه وعرفه، يستحق الخلود في النار. فليس الذنب مجرد الجهل، بل هو جحود الحق بعد معرفته. فكلما سمعت آية، لا تمر عليها مرور الكرام، ولا تكن ممن يسمع ولا يتدبر. اسجد، وابكِ، واعمل بما فيها، لتكون ممن آمنوا، لا ممن جحدوا.

الرسائل والمفاهيم والتوجيهات من الآيات (مع أمثلة عملية):

الرسائل الفكرية:

.1فهم الصراع: الصراع بين الحق والباطل صراع محتوم، وللباطل استراتيجياته في التضليل.

.2حتمية الانتصار: وعد الله نافذ، وهزيمة أعداء الدين حتمية مهما طال الزمن.

.3الجزاء من جنس العمل: "أسوأ" الأعمال يقابلها "أسوأ" العذاب، و"دار الخلد" جزاء من حارب كلام الله الخالد.

الرسائل النفسية والتربوية:

.1بناء الحصانة النفسية: لا تنزعج من "لغو" المفسدين، ولا تلتفت إليه، وامض في طريق الحق.

.2تهذيب السمع: درّب أذنك على سماع القرآن، ونزّهها عن اللغو.

.3عدم الخوف من العدو: "لعلهم يغلبون" تكشف هشاشة العدو وقلقه الداخلي، فكن واثقًا.

.4التربية الإعلامية: كيف تتعامل مع وسائل الإعلام؟ كيف تنتقي ما تسمع وما تشاهد؟ لا تترك الأمر للصدفة، بل خطط لسمعك وبصرك كما يخطط أعداؤك لتلويثهما!

كيف تبني هذه الآيات الإنسان والمجتمع والحضارة؟

للفرد (بناء الإنسان):

· تصنع إنسانًا متيقظًا لا ينخدع بالضوضاء الإعلامية، بل يبحث عن الحق في مظانه.

· إنسانًا قويًا، لا يخاف الحرب النفسية، بل يواجهها بالثبات واليقين بوعد الله.

للمجتمع (بناء الأمة):

· مجتمع واعٍ، يفرق بين النور والظلام، ولا ينقاد وراء كل صيحة.

· مجتمع يعرف أعداءه الحقيقيين، ويدرك مخططاتهم، فيوحد صفه لمواجهتهم.

للحضارة (التنمية البشرية):

· حضارة إسلامية لا تقوم فقط على البنيان المادي، بل تقوم على "حماية العقل" من التشويش، وإطلاق طاقاته للفهم والتدبر والابتكار.

· حضارة تملك "الإعلام الهادف" الذي يصد "اللغو" المؤذي، ويملأ الأسماع بالحق النافع.

الخاتمة: كيف نعيش الآيات في واقعنا العملي؟

ماذا يريد المولى منا؟

1.لا تخف من التشويش: اغلق أذنيك عن اللغو، وافتحهما للقرآن.

2.ابن وعيك الإعلامي: لا تكن مستهلكًا ساذجًا لكل ما يُنشر .انتق، وتأكد، وفكر.

3.ثق بوعد الله: مهما بلغ صخب الباطل، فالعاقبة للتقوى.

4.صاحب القرآن: اجعله رفيقك، اسمعه، اقرأه، وتدبره، تنجُ من جحوده، وتفز بدار الخلد في الجنة.

5.كن سفيرًا للقرآن: انشر آياته، وارفع صوته بالحق، ولا تجعل صفك خاويًا، فالكفار يعملون ليل نهار للغو و التشويش، فأين أنت من العمل لنشر النور؟

يا من تقرأ هذه الآيات، إن الصفوف أصبحت واضحة: صف يحمل القرآن، وصف يشن الحرب عليه. فأي الفريقين تختار؟

المبحث الثالث

يا من أبصرتم كيف يشن الكافرون حربهم على النور، وكيف يخططون لإطفاء صوت الحق باللغو والتشويش، تعالوا نقف الآن على مشهد جديد من مشاهد الآخرة، ينقلنا من زمن العمل في الدنيا إلى زمن الحساب والعذاب في النار. بعد أن بين الله لنا وعيده الشديد لأولئك الذين كانوا يأمرون بعدم سماع القرآن، يأتي الآن دور المشهد الذي تتجسد فيه الخصومة بين الأتباع والقادة، بين المضلين والضالين، لنرى بأعيننا كيف تتحول علا قات الدنيا إلى عداوات أبدية في نار الجحيم.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يصور هذا المشهد المهيب:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ٢٩﴾

هذه الآية تنقلك إلى قلب النار، حيث يقف الأتباع الذين انخدعوا بقرناء السوء، والذين استجابوا لاستراتيجية " لا تسمعوا والغوا فيه"، وأدخلوا النار مع قادتهم. إنهم الآن في العذاب، يتحرقون، ولكن في داخلهم غيظ وحقد وندم على من كانوا سببًا في شقائهم. إنهم لا يطلبون تخفيف العذاب، بل يطلبون شيئًا آخر! يطلبون الانتقام! إنها لحظة الاعتراف المر، حيث يعلمون أنهم ضلوا، ويعلمون من الذي أضلهم.

المقاصد والأفكار الرئيسية:

١.تحول علاقة الاتباع والصداقة في الدنيا إلى عداوة وخصومة في الآخرة.

٢.إدراك الكفار المتأخر لحقيقة من أضلوهم من شياطين الجن والإنس.

.٣طلب الانتقام والشفاء بالتشفي ممن أوردوهم المهالك.

.٤كشف زيف العلاقات القائمة على الباطل في الدنيا.

.٥قانون "الصاحب ساحب": خطورة القدوة المضلة والمضللة.

.٦أهمية التدقيق فيمن نسمع لهم ونطيعهم في حياتنا.

الوقفة الأولى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾... انقلاب العلاقات من حب إلى حقد!

انظر كيف يبدأ المشهد: "وقال الذين كفروا". إنهم الآن في النار، وقد أدركوا مأساتهم. لقد كانوا في الدنيا يتبعون هؤلاء القادة المضلين بكل حب وثقة وولاء. كانوا يرون فيهم الملاذ والقدوة والناصح الأمين. أما الآن، وقد انكشف الغطاء، وزالت الأوهام، تحول ذلك الحب إلى أشد أنواع البغض والحقد.

لكن لاحظ! إنهم لا ينادون: "يا مالك!"، ولا يطلبون من الله أن يخفف عنهم، بل يتوجهون بندائهم: "ربنا أرنا..."! إن هذا النداء باسم الربوبية "ربنا"، فيه تذلل وإقرار بالخضوع لله، ولكن بعد فوات الأوان. إنهم يسلمون بـ الربوبية، ويعترفون بأن الله هو الذي يملك كل شيء، وهو القادر على أن يريهم من أضلوهم. لقد كانوا في الدنيا يجحدون بألوهيته، أما الآن فهم مقرون بربوبيته.

ما معنى "الذين أضلانا"؟

إنهم يحددون بدقة: "من الجن والإنس". هؤلاء هم القرناء الذين ذكرتهم الآيات السابقة. شياطين الجن الذين وسوسوا وزينوا، وشياطين الإنس الذين كانوا قادة الكفر والإضلال. لقد كانوا في الدنيا يحبونهم ويطيعونهم، بل وكانوا يقاتلون دونهم، أما الآن فينظرون إليهم على أنهم سبب الشقاء الأبدي!

المثال التقريبي:

تخيل رجلا ً أعمى يقوده رجل مبصر لكنه خائن. الأعمى يثق به كل الثقة. يسير معه خطوة بخطوة. يعده بـ الوصول إلى قصر منيف وحديقة غناء. وفجأة، يدفعه الدليل في هوة سحيقة مليئة بالوحوش. يهوي الأعمى في قاع الهوة، وقبل أن تلتهمه الوحوش، يلتفت ويصرخ بأعلى صوته: "أروني ذلك الخائن! دعوني أنتقم منه قبل أن أموت!". هذا هو حال هؤلاء الكفار بالضبط، ولكن الفارق أنهم في عذاب دائم، وصراخهم بالانتقام جزء من عذابهم!

الدرس العملي الأول:

انظر اليوم إلى من تمشي خلفهم. من هم قدوتك؟ من هم الذين تسمع لهم؟ من هم الذين تثق بآرائهم وتوجيهاتهم؟ هل هم يدلونك على الله والدار الآخرة، أم أنهم شياطين إنس وجن يزينون لك الطريق إلى النار؟ غدًا، إن لم يكونوا على هدى، فستقف معهم في هذا الموقف، وستطلب الانتقام منهم. اختر رفقتك اليوم قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم.

الوقفة الثانية: ﴿مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾... المصدران الأساسيان للإضلال

هنا يكتمل المشهد بذكر مصدري الإضلال: الجن والإنس. هذا هو المحور الذي دارت عليه آيات السورة! لقد تحدث الله عن "قرناء" زينوا لهم، ثم عن "الذين كفروا" الذين كانوا يأمرون بعدم سماع القرآن. فالآية تجمع الفريقين معًا: شياطين الجن الذين يوسوسون في الخفاء، وشياطين الإنس الذين يقودون الضلال في العلن.

الدلالة التربوية:

الضلال له وجهان: خفي (وساوس وخفايا)، وظاهر (قادة ودعاة باطل). والمؤمن الحصيف هو الذي يعرف كيف يتقي كليهما. ولذلك أمرنا الله أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم، وأن ننظر فيمن نتخذهم أصدقاء وقادة.

الدرس العملي الثاني:

لا تظن أن الخطر محصور في شياطين الجن فقط! هناك شياطين إنس يمشون على الأرض، يتكلمون بلسانك، ويغرونك بزخرف القول. احذر أن يكون أحدهم صديقك، أو قدوتك، أو مؤثرك المفضل! وانظر هل يدعوك إلى طاعة الله، أم يجرك إلى معصيته؟ إن كان الثاني، فاعلم أنه "الذي أضلك" غدًا، واتركه اليوم!

الوقفة الثالثة: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾... قمة الذل والانتقام!

وهذا هو مبتغاهم! إنهم لا يطلبون أن يعذب الله هؤلاء المضلين فقط، بل يريدون أن يشاركوا في تعذيبهم! يريدون أن يجعلوهم تحت أقدامهم. إنها صورة الذل المطلق. لقد كانوا في الدنيا تبعًا لهم، يرفعونهم فوق رؤوسهم، ويجلونهم ويوقرونهم. أما هنا، فيريدون أن يدوسوهم بأقدامهم! ولماذا؟ "ليكونا من الأسفلين" أي ليكون هذان المضلان في الدرك الأسفل من النار، في أشد العذاب وأخزاه.

الدلالة النفسية العميقة:

هذا الموقف يكشف عن ألم نفسي لا يوصف. إنهم لا يكتفون بأن يتعذبوا، بل هم يريدون أن يروا من كانوا سببًا في تعاستهم وهم أشد عذابًا منهم. هذا الشعور بالحقد والانتقام هو من جملة العذاب الذي يعانونه! إنهم في النار، ومع ذلك يطلبون الشماتة بغيرهم! إنها قمة الخزي.

اللمسة البيانية:

"تحت أقدامنا" و"الأسفلين" يوحيان بتفاوت دركات النار. فهناك "أسفل"، وهناك "أسفل" أكثر! فالتابع والمتبوع كلاهما في النار، لكن الله جعل للطغاة الكبراء دركات أشد من أتباعهم.

الدرس العملي الثالث:

انظر إلى طبيعة العلاقات القائمة على الباطل! في الدنيا، قد تبدو هذه العلاقات براقة، يسودها الود الظاهري. لكنها في حقيقتها هشة، وتنكشف في الآخرة. العلاقة التي لا تؤسس على "الحب في الله" تتحول إلى "بغض في النار". فاجعل علاقاتك بالله ولله وفي الله، تكن لك نورًا في ظلمات الموقف.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

· انقلاب الموازين: في الآخرة، تنقلب قيم الدنيا؛ فالعزيز يصير ذليلا ً، والمتبوع يصير تابعًا تحت الأقدام.

· مصدرا الضلال: الضلال يأتي دائمًا من خارج النفس؛ من صحبة أو وسوسة، مما يجعل الحذر من المحيط ضرورة إيمانية.

· حقيقة التبعية: التبعية العمياء في الدنيا جريمة تتحول إلى خصومة كبرى في الآخرة.

الرسائل النفسية:

· الراحة النفسية في الدنيا: إن المؤمن الذي يختار رفقته بعناية، ويعتزل قرناء السوء، يشعر بألم الفراق أحيانًا، لكنه يعيش في طمأنينة. وهذه الآية تثبته وتطمئنه.

· التحذير من الندم المتأخر: الآية تبني في النفس خوفًا صحيًا من الندم، فتدفعك للتوبة والإصلاح اليوم.

الرسائل التربوية والعملية:

· تدقيق اختيار القدوة: لا تقدم سمعك وطاعتك لأحد إلا بعد أن تعرضه على ميزان الكتاب والسنة.

· تحمل تبعات الاختيار: أنت مسؤول عن اختيارك لمن تسمع لهم، فلا تلق اللوم عليهم وحدك غدًا، فالآية تبين أنهم سيُعذبون جميعًا.

أبعاد الآية وآفاقها في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

البعد الفردي (بناء الإنسان):

الآية تبني فيك "رجل الموقف". الإنسان الذي يعيش واعيًا، فيختار أصدقاءه وقاداته وقدواته بحذر. إنسان يتذكر هذا المشهد كلما همّ أن يتبع داعية ضلالة أو صديق سوء، فيقول لنفسه: "أأجعله تحت قدمي غدًا، أم تحت قدميه أنا؟!".

البعد الاجتماعي (بناء المجتمع):

مجتمع يعي هذه الآية، يكون مجتمعًا حذرًا من الدخلاء والمضللين. يربي أبناءه على أن العلاقة الحقيقية هي العلاقة في الله. فتقل فيه القطائع، وتصفو القلوب، وتتركز الولاءات حول الحق لا حول الأشخاص.

البعد الحضاري (التنمية البشرية):

الحضارة التي تبنى على هذا الوعي، حضارة تختار قادتها ومفكريها بناءً على مدى تمسكهم بالوحي، لا بناءً على بريقهم الإعلامي. هذه الحضارة لا يخدعها قرناء الجن والإنس، فتتقدم في نور، لا في غياهب الإضلال.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي؟

بعد هذا المشهد المهيب، ماذا يريد المولى منا؟

1.راجع لائحة قدواتك: اكتب قائمة بأسماء من تتابعهم وتسمع لهم أكثر من غيرهم .اعرضهم على القرآن .هل هم ممن يزيدونك إيمانًا، أم ممن يشغلونك بالدنيا ويثبطونك عن الآخرة؟

2.تذكر أن "الصاحب ساحب": صديقك إما أن يرفعك إلى الجنة، أو يجرك إلى النار .اختر اليوم صديقك، قبل أن تطلب غدًا الانتقام منه!

3.لا تكن مضلا ً: اسأل نفسك: هل أنا بالنسبة لغيري "هادي" أم "مضل"؟ هل كلماتي وتصرفاتي تقودهم إلى الله أم إلى سخطه؟

4.تب إلى الله من اتباع المضلين: إن كان لك ماض في صحبة سوء أو اتباع قادة ضلالة، فتب إلى الله اليوم، واقطع تلك الصلات، وأعلن توبتك وبراءتك مما كانوا عليه.

5.عش في الدنيا بالولاء لله: اجعل ولاءك لله ولرسوله وللمؤمنين .فولاء الدنيا باللّٰه ينجيك من عداوة الآخرة في النار.

يا من تقرأ هذه الآيات، تذكر أن كل قائد وكل صديق في الدنيا سيكون إما شفيعًا لك أو خصمًا عليك. فاختر لنفسك اليوم، قبل فوات الأوان!

القسم الثاني

اولا

يا من عشنا معًا مشاهد النار وأهلها، ورأينا كيف يتحول الأتباع إلى أعداء لقادتهم المضلين، تعالوا نقف الآن على آية تمثل انتقالة عظيمة من جحيم التهديد إلى جنة التبشير. بعد أن صور الله تعالى مصارع الكافرين، وما ينتظرهم من عذاب، يأتي الآن دور الحديث عن الطرف الآخر، عن أولئك الذين لم تنطل عليهم حيل القرناء، و الذين ثبتوا في وجه العاصفة.

تأمل معي قول الله جل جلاله، وهو يصف حال المؤمنين المخلصين في ذلك الموقف المهيب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠﴾

هذه الآية ليست مجرد خبر، بل هي بشرى تمس قلبك مباشرة، وتلمس شغاف روحك، وتزرع فيك طمأنينة لا توصف. إنها آية تجمع أصول العقيدة والتزكية والعمل، وترسم لك خارطة طريق واضحة للفوز في الدنيا والآ خرة. هيا بنا نعيش وقفاتها بكل جوارحنا.

المقدمة: من ظلمة التهديد إلى نور التبشير

لاحظ كيف ينتقل بنا السياق القرآني فجأة من مشهد النار وأهلها، إلى مشهد الجنة وأهلها! إنها طريقة القرآن في بناء النفس: يوازن بين الترغيب والترهيب. بعد أن أرعب قلوبنا بمصير "أعداء الله"، يأتي الآن ليبشرنا ويمنحنا الأمل.

المقاصد والأفكار الرئيسية:

1.الإيمان والاستقامة هما مفتاح البشرى والطمأنينة.

2.عناية الله الخاصة بعباده المؤمنين في ساعة الاحتضار ويوم القيامة.

.3رسالة الملائكة للمؤمنين: زوال الخوف والحزن، وقدوم البشرى.

.4الجنة هي الوعد الصادق الذي ينتظر أهل الاستقامة.

.5الاستقامة هي الثبات على قول "ربنا الله" في كل الظروف والأحوال.

الوقفة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾... معادلة النجاة الكاملة

تأمل كيف يبدأ الله هذه البشرى العظيمة! يبدأها ب: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا". إنها جملة جامعة مانعة، تضع لك طريق النجاة في خطوتين واضحتين:

.1القول: "قالوا ربنا الله" .وهو إعلان التوحيد، والإقرار بأن الله وحده هو الرب المعبود.

.2العمل: "ثم استقاموا" .وهو تطبيق هذا الإعلان في واقع الحياة.

وكلمة "ثم" هنا في غاية الأهمية! إنها تفيد الترتيب والتراخي الزمني. أي أنهم نطقوا بالتوحيد أولا ً، ثم استمروا على ذلك زمنًا طويلا ً، يثبتون عليه، ويجاهدون أنفسهم. لم تكن مجرد كلمة عابرة قالوها ثم تركوها! بل كانت قولا ً تلاه فعل، وإيمانًا تلاه ثبات.

ما هي الاستقامة؟

الاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، والمداومة على طاعة الله، واجتناب نواهيه، والثبات على ذلك حتى الممات. إنها ليست عملا ً واحدًا، بل هي حياة كاملة تسير على مراد الله.

المثال التقريبي:

تخيل صاروخًا ينطلق إلى الفضاء. "قولوا ربنا الله" هي لحظة الإطلاق الأولى. أما "ثم استقاموا" فهو المسار الدقيق الذي يسير فيه الصاروخ دون أن ينحرف. إن انحرف قليلا ً، ضل طريقه وهلك. كذلك المؤمن، إن قال الكلمة ثم انحرف عن الطريق، لم تنفعه الكلمة وحدها!

الدرس العملي الأول:

راجع حياتك: هل أنت من الذين "قالوا" فقط، أم من الذين "قالوا ثم استقاموا"؟ هل هناك فرق بين قولك "ربنا الله" في الصلاة، وبين سلوكك في السوق والبيت والعمل؟ الاستقامة تعني أن تكون عبدًا لله في كل مكان وزمان. لا تيأس إن وجدت نفسك مقصرًا، بل جدد التوبة، واثبت على الطريق، واطلب من الله أن يثبتك.

الوقفة الثانية: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾... التكريم الإلهي في ساعة الشدة!

والآن تأتي المكافأة الإلهية! "تتنزل عليهم الملائكة". صيغة المضارع هنا تدل على تجدد هذا التنزل واستمراره. الملائكة تتنزل عليهم في مواطن متعددة. وأعظم هذه المواطن -كما قال المفسرون- ثلاثة مقامات:

.1عند الموت) الاحتضار(: حين يرى المؤمن ملائكة الرحمة، فيأنس بهم، ويفارق الدنيا وهو مطمئن.

.2في القبر: حين يأتونه ويبشرونه بالجنة، ويفسحون له في قبره مد بصره.

.3يوم القيامة) عند البعث(: حين يقوم من قبره، تستقبله الملائكة بالبشرى والطمأنينة.

تأمل! في اللحظة التي يفارق فيها الإنسان كل شيء، وفي اللحظة التي يخذل فيها كل قريب وحبيب، ينزل

الله ملائكته الكرام ليكونوا أنيسًا للمؤمن، وليبشروه ويطمئنوه.

اللمسة البيانية:

"تتنزل" بصيغة التفعل تفيد التدرج والتتابع. فهم يرونهم ينزلون من السماء، جماعة بعد جماعة، يحملون إليهم التحية والسلام من رب العالمين. إنه مشهد يغمر القلب سعادة.

الدرس العملي الثاني:

لست وحدك! في أصعب لحظاتك، في مرضك، في وحشتك، في ساعة موتك، أرسل الله لك جندًا من ملائكته يؤنسون وحدتك، ويذهبون خوفك. فكيف تخاف من المستقبل يا عبد الله، وهذا وعد ربك لك؟ عش مطمئنًا، وثق بوعد الله.

الوقفة الثالثة: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾... شفاء الروح من أعظم آفتين

بماذا تنادي الملائكة؟ "ألا تخافوا ولا تحزنوا".

انظر إلى دقة القرآن! لقد جمع بين أمرين:

1. الخوف: وهو القلق مما سيأتي في المستقبل .تقول لهم الملائكة: لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه! فالآخرة دار أمان وسلام لكم.

2. الحزن: وهو الألم مما مضى وفات في الدنيا .تقول لهم الملائكة: لا تحزنوا على ما تركتم وراءكم من أهل ومال ودنيا! فما أنتم قادمون عليه أعظم وأبقى.

فالإنسان يعاني في حياته -وخاصة عند الموت- من هاتين الآفتين: الخوف من المجهول، والحزن على المفقود. وتأتي الملائكة لتزيل هاتين الآفتين معًا.

الدلالة النفسية العميقة:

هذا النداء موجه لك اليوم قبل غد! عش حياتك وأنت تستحضر أن المستقبل بيد الله، وأن ما فات لا يضرك إن أحسنت فيما بقي. ليكن شعارك: المؤمن لا يخاف من المستقبل ولا يحزن على الماضي.

الدرس العملي الثالث:

في كل مرة ينتابك فيها قلق أو حزن، تذكر هذه الآية. قل لنفسك: وعدني ربي أن ملائكته ستنزل عليّ لتنزع الخوف من قلبي، ولتزيل الحزن عن نفسي. فكيف أخاف الآن؟ وكيف أحزن الآن؟ ثق بوعد الله، وعش حياتك بهذا اليقين.

الوقفة الرابعة: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾... البشرى الكبرى!

وبعد أن يطمئنوهم بإزالة الخوف والحزن، ينتقلون إلى المرحلة الأعظم: البشرى! "وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون". إنها اللحظة التي ينتظرها كل مؤمن. لقد سمعوا وعد الله في القرآن، وها هم يرونه يتحقق أمام أعينهم.

إنهم الآن في طريقهم إلى الجنة، وجاءتهم الملائكة بالخبر اليقين. إنهم يقبضون على البشرى بأيديهم، فيمتلأ القلب فرحًا لا يوصف.

المثال التقريبي:

تخيل طالبًا فقيرًا سهر الليالي وتعذب من التعب والحرمان، يذاكر ويكد... ثم يأتي يوم النتيجة، فيأتيه البريد برسالة تخبره أنه الأول على الدولة، وقد حصل على جائزة كبرى ومنحة للخارج. كيف تكون فرحته؟! أضعاف ذلك، بل أكثر وأعظم، فرحة المؤمن لحظة أن تبشره الملائكة بالجنة!

الدرس العملي الرابع:

أنت في سباق. كل يوم تعيشه في طاعة الله، أنت تقترب من هذه اللحظة. اجعل هذه البشرى نصب عينيك. وكلما اشتدت عليك الدنيا، قل: "الجنة التي وُعدت بها تنتظرني، فعلامَ أحزن؟!".

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

1. وحدة العقيدة والعمل: الإسلام ليس أقوالا ً فقط، بل هو قول وعمل واستقامة.
2. حقيقة الاستقامة: هي الثبات على المبدأ في كل الظروف، لا مجرد حماسة مؤقتة.
3. وجود الملائكة ودورهم: الملائكة واقع غيبي، ولهم مهمة سامية مع المؤمنين.

الرسائل النفسية:

1. تطهير القلب من الخوف: الآية تجعلك تطرد الخوف من حياتك، لأنك استودعت مستقبلك لله.
2. تطهير القلب من الحزن: علم أن ما مضى لا يعود، وأن ما خسره المؤمن في الدنيا يعوضه الله في الآخرة.
3. السكينة والطمأنينة: هذه الآية تبني فيك طمأنينة عميقة، وتجعلك تنظر للدنيا بعين المسافر.

الرسائل التربوية والعملية:

1. التوازن في التربية: لا تربّي نفسك أو أولادك على الخوف فقط، بل ازرع مع الخوف الرجاء والبشرى.
2. مشروع "الاستقامة" اليومي: ضع لك جدولا ً من الطاعات، واثبت عليه، ولا تنقطع.
3. علاج القلق والحزن: كلما شعرت بقلق أو حزن، ردد هذه الآية، واستشعر معناها.

دور المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان (الفرد):

هذه الآية تصنع الإنسان المطمئن، الذي لا تزلزله أحداث الحياة. إنه يعلم مصيره، ويعرف أن الملائكة معه، فيسير في الأرض بقلب ثابت.

ثانيًا: بناء المجتمع:

تخيل مجتمعًا أغلب أفراده من "الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا"! إنه مجتمع مستقر، يعمه الأمن النفسي، وتقل فيه الجرائم، وتختفي منه الأمراض النفسية من قلق واكتئاب.

ثالثًا: بناء الحضارة والتنمية البشرية:

الحضارة تحتاج إلى بشر أسوياء نفسيًا. إنسان تطارده المخاوف والأحزان لا يمكنه أن يبدع ويبتكر. أما المؤمن الذي استقرت نفسه بهذه الآية، فهو قادر على العمل المثمر، والبناء المتقن، لأنه حر من الخوف والحزن.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي؟

بعد هذه الرحلة، ماذا يريد المولى منا؟

1. قلها بلسانك، واثبت عليها بجنانك وجوارحك: "ربنا الله" ليست كلمة نرددها ونحن غافلون .قلها بفهم، وعشْ بمقتضاها.

2. الاستقامة مشروع حياة: لا تكن صاحب طاعات موسمية .ليكن لك وِرْد ثابت، وخلق دائم، وسلوك مستقيم لا يتغير بتغير الناس حولك.

3. لا تخف ولا تحزن: درّب نفسك على هذا .كلما جاءك خوف، قل: "الملائكة ستتنزل عليّ" .كلما أصابك حزن، قل: "الجنة التي وُعدت بها تنتظرني".

4. عش على أمل البشرى: تصور لحظة أن تتنزل عليك الملائكة .اجعل هذا المشهد حافزك اليومي للخير.

5. بشّر غيرك: كما بُشّرت، بشّر .كل مؤمن مستقيم هو أهل لأن تقول له: "أبشر! لا تخف ولا تحزن ...الجنة بانتظارك بإذن الله".

يا من تستمع إلى هذه الآيات، ارفع رأسك، واثبُت على طريقك، واعلم أن الله لم يخلقك ليتركك، بل جعل لك م لائكة تتنزل عليك، وجعل لك جنة تنتظرك. فاستقم، وأبشر، وعش حياتك بقلب يملؤه الأمل والرجاء.

ثانيا

يا من ذاقت أرواحكم برد اليقين في وعد الله للصادقين، وامتلأت قلوبكم فرحًا ببشرى الملائكة عند الممات، تعالوا نستكمل هذا المشهد المهيب الجميل، ونقف على ما يتممه الله به من نعيم وكرامة. إن الملائكة لا تكتفي بإزالة الخوف والحزن عن المؤمنين، بل تفتح لهم أبواب الأنس الأبدي، وتعلن لهم عن ولاية خاصة، وعن حياة لا يعتريها نقص ولا كدر.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو ينقل لنا بقية خطاب الملائكة الكرام:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ٣٢﴾

هاتان الآيتان الكريمتان هما ختام مسك البشارة، وتاج الكرامة الذي يضعه الله على رؤوس عباده المتقين. هيا بنا نغوص في أعماقهما، ونستلهم منهما يقينًا يملأ حياتنا أنسًا وطمأنينة.

الوقفة الأولى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ...﴾ حين يصبح الملائكة أصدقاءك وأحبابك

بعد أن نادوهم بألا يخافوا ولا يحزنوا، وبشروهم بالجنة، ينتقل خطاب الملائكة إلى مستوى أعمق من العلاقة. إنهم يعلنونها صريحة: "نحن أولياؤكم". الولي هو الصديق والنصير والحبيب والقريب. إنها ليست مجرد رسالة

رسمية من مبعوثين، بل هي إعلان صداقة وولاء دائم.

تأمل هذا التكريم! في الدنيا، كان المؤمن يعيش غريبًا بين الناس، ربما يُخذل ويُهجر، لكنه هنا يجد من هم خير من أهل الأرض قاطبة يعلنون أنهم أولياؤه. يقولون له: نحن الذين كنا معك في الدنيا، نلهمك الخير، نثبتك، نستغفر لك، ونحفظك بأمر الله. وها نحن معك أيضًا في الآخرة، لا نفارقك.

الدلالة النفسية العميقة:

الإنسان مفطور على حب الصديق والأنيس. وهنا، الله لا يترك عبده الصالح وحيدًا في أرض المحشر، بل يوكل به ملائكته ليكونوا أنيسه ووليه. إنها رسالة تطمئن قلبك: إذا تخلى عنك أهل الدنيا، فلا تحزن، فإن لك أولياء في السماء، ينظرون إليك ويحبونك ويفرحون بك.

الدرس العملي الأول:

كن وليًا لله في الدنيا، تكن الملائكة أولياءك في الآخرة. والولاية لله تكون بالتقوى والعمل الصالح. اسأل نفسك كل يوم: هل أنا اليوم ولي لله؟ بماذا تقربت إليه حتى يبعث إليّ ملائكته بهذه البشرى؟ عش حياتك بولاء لله، واثقًا أن الله يدخر لك من الأولياء ما لا يخطر ببالك.

الوقفة الثانية: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾... تحقيق كل حلم وأمنية

وبعد إعلان الولاية، يأتي الإعلان الأعظم عن النعيم الذي ينتظرهم. تأمل هذه الجملة البديعة: "ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم". "ما" هنا مطلقة غير مقيدة. كل ما تشتهيه نفسك، كل ما تريده، كل ما تخطر ببالك، كل حلم راودك ولم تستطع تحقيقه في الدنيا، هو لك هناك!

والنفس تشتهي أشياء كثيرة: مشروبًا باردًا في يوم حار، منظرًا جميلا ً، طعامًا لذيذًا، زوجة صالحة، قصرًا منيفًا، أمانًا من الخوف، راحة من التعب... كل ذلك مُعَدٌ لك.

ثم يزيد: "ولكم فيها ما تدّعون". أي ما تطلبونه وتتمنونه. "تدعون" من الدعاء بمعنى الطلب. فما تطلبونه يُعطى لكم فورًا. ملك الملوك يقول لك: "اطلب تُعطَ، تمنّ تُوهَب". إنها حياة بلا حرمان، بلا انتظار، بلا "لا"!

المثال التقريبي:

تخيل طفلا ً يدخل مدينة ألعاب شاسعة، ويقال له: كل لعبة تراها وتشتهيها هي لك، وأي لعبة أخرى تخطر ببالك ولم ترها، قل لنا نصنعها لك فورًا. ماذا سيكون شعوره؟ إنه شعور لا يوصف من الفرح المطلق. أضعاف ذلك أضعافًا لا نهاية لها، هو شعور المؤمن حين يسمع هذا النداء.

الدرس العملي الثاني:

اجعل الجنة غاية تتمناك وتعمل لها. تصور ما تشتهيه نفسك هناك، ثم اعمل له في الدنيا. القرآن يصف لنا الجنة بدقة، لتشتاق إليها نفوسنا. اقرأ أوصافها، وتخيل نفسك فيها. هذا الشوق هو وقودك للاستمرار في الطاعة و الصبر عن المعصية. قل لنفسك عند كل شهوة محرمة: "أصبر عنها اليوم، لأجد ما هو خير منها غدًا".

الوقفة الثالثة: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾... كرم الضيافة الإلهية

ثم تأتي الخاتمة المسكية: "نُزُلا ً مِن غَفُورٍ رَحِيمٍ". النزل هو ما يُعد للضيف من طعام وشراب وراحة عند قدومه. وهذا النعيم كله هو "نُزُل" لهم. لكن من أي مضيف؟ ليس من ملك، ولا من وزير، ولا من عظيم من عظماء الدنيا، بل "مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ". من الله نفسه!

لقد وصف نفسه هنا بـ "غفور" أي كثير المغفرة، و"رحيم" أي واسع الرحمة. لماذا هذان الاسمان بالذات في

هذا المقام؟

لأنهم ما دخلوا الجنة إلا بمغفرته ورحمته، لا بأعمالهم وحدها. فهو يذكرهم، وهو يكرمهم، بمنّه وفضله عليهم. فغفر لهم ما سلف من ذنوب، ورحمهم فأدخلهم جنته. إنها ضيافة المَلِك الغفور الرحيم، وليست ضيافة ملك جبار منتقم! إنها ضيافة حب ورضا، لا ضيافة منّ وأذى.

اللمسة البيانية الرائعة:

لاحظ كيف بدأت السورة بـ ﴿تنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والآن بعد ثلاثين آية، تختم البشرى بـ ﴿نُزُلًا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾! بدأ الحديث عن القرآن رحمة، وختم الحديث عن الجنة رحمة. إنها دائرة الرحمة التي تحيط بك من كل جانب.

المثال التقريبي:

إذا استضافك ملك كريم، وأعد لك نزلا ً فاخرًا، وقدم لك كل ما تشتهي، فأنت تقول: "هذا نزل من الملك". لكن ماذا لو قال لك: "هذا النزل من رحمته بك، ومن مغفرته لك عن تقصيرك في حقه"؟! هنا يمتزج الحياء بـ الفرح، وتذوب الروح في حب هذا المضيف الكريم. هذا هو حال المؤمن!

الدرس العملي الثالث:

أكثر من الاستغفار، وتعرض لرحمات الله. أنت لا تدخل الجنة بعملك وحده، بل بمغفرة الله ورحمته. فلا تعجب بعملك، وداوم على سؤال الله المغفرة والرحمة، وتذكر دائمًا اسميه "الغفور الرحيم" وأنت تسأله الجنة.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

الرسائل الفكرية:

1. ولاية الملائكة للمؤمنين: المؤمن ليس وحيدًا أبدًا، فالله يحيطه بملائكته في الدنيا والآخرة.
2. الجنة دار كمال: فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتكتمل كل الأماني.
3. الجنة فضل من الله: دخولها ونعيمها هو محض رحمة الله ومغفرته، لا مجرد استحقاق بالعمل.

الرسائل النفسية:

1. الشعور بالأنس الدائم: علمك أن الملائكة أولياؤك يزيل عنك وحشة الطريق.
2. الشعور بالأمان: "لَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِي" يجعلك آملا ً لا تخاف حرمانًا.
3. الحب الإلهي: تذكر أن المعدّ لهذا هو "الغفور الرحيم" يملأ قلبك حبًا لله وشوقًا إليه.

الرسائل التربوية والعملية:

1. التربية بالحب: عندما يعلم المؤمن أن الله يعده بهذا النعيم، ينشأ لديه حب لله يدفعه للطاعة.

2. فقه الأولويات: ما عند الله خير وأبقى. هذه الآية تعيد ترتيب أولوياتك في الحياة.

3. القدوة الصالحة: من يستشعر ولاية الملائكة له، يكون قدوة في أخلاقه وسلوكه، لأنه يوقن أن الكرام الكاتبين معه يراقبونه.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان المتوازن:

هذه الآيات تبني إنسانًا يعيش في الدنيا بجسده، لكن قلبه معلق بالآخرة. إنسان لا تقهره الدنيا لأنه يوقن بأن هناك "ما تشتهي الأنفس" في انتظاره. هذا يجعله صامدًا أمام الفتن، مثابرًا على الخير.

ثانيًا: بناء المجتمع المتآلف:

مجتمع يتربى أفراده على هذه المعاني، يكون مجتمعًا متراحمًا. فمن أيقن أن مضيفه هو "الغفور الرحيم"، غفر لعباد الله ورحمهم. مجتمع يسوده التسامح، ويقل فيه الحسد، لأن كل فرد يعلم أن هناك "ما تدعون" مما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

ثالثًا: بناء الحضارة الإنسانية:

الحضارة الحقيقية هي التي تشبع الروح قبل الجسد. هذه الآيات تؤسس لحضارة هدفها الأسمى إرضاء "الغفور الرحيم" ودخول جنته. فبدلا ً من حضارة الاستهلاك المادي التي لا تشبع، تقوم حضارة إيمانية تعمل للدنيا وا لآخرة معًا.

الخاتمة: كيف نعيش الآيتين في واقعنا العملي؟

بعد هذا المشهد المهيب، ماذا يريد منا المولى سبحانه؟

1. اطلب ولاية الله: كن وليًا لله بطاعته، تظفر بولاية ملائكته. عاهد نفسك اليوم على عمل صالح تتقرب به إلى الله.

2. عش بالأمل: لا تدع ظلمة الواقع تحبطك. تذكر دائمًا "لكم فيها ما تشتهي الأنفس". هذا هو رصيدك من الأ مل، فاستمده في كل ضيق.

3. أكثر من الدعاء: "ولكم فيها ما تدعون". ادع الله الآن أن يجعلك من أهل هذه الجنة، واسأله من خيري الدنيا والآخرة.

4. اغفر وارحم: بما أن ربك هو "الغفور الرحيم"، فكن غفورًا رحيمًا بمن حولك. سامح من أساء إليك، وارحم من هو دونك.

5. استشعر هذا النزل كل يوم: في صلاتك، وأنت تدعو، تخيل نزل "الغفور الرحيم". اجعل هذا المشهد حيًا في قلبك، يدفعك للخير، ويمنعك من الشر.

يا من تستمع إلى هذه البشارات، افرح وابتهج! فأنت لست مجرد عبد مأمور منهي، بل أنت ضيف على ملك الملوك، وقد أعد لك نزلا ً لا يخطر على قلب بشر. فاعمل لهذا النزل، واستعد له، فما بينك وبينه إلا أن تثبت على الاستقامة حتى تلقى ربك وهو راض عنك.

القسم الثالث

اخلاق الداعيه ومواصفات الخطاب الدعوه وأساليبها

اولا

تفسير الايه

يا من ذاقت أرواحكم حلاوة البشرى، ووقفتم على مشهد ولاية الملائكة ونعيم الجنة، تعالوا نقف الآن على آيتين تمثلان نقلة عظيمة من الحديث عن النعيم الأخروي إلى الحديث عن الطريق الموصل إليه في الدنيا. وكأن الله يقول لنا: هذا هو النعيم الذي وعدتُ به عبادي، فمن أراده فليسلك الطريق إليه؛ طريق الدعوة، و العمل الصالح، والصبر الجميل.

تأمل معي قول الله جل جلاله، وهو يفتح لك باب الخير الأعظم:

**﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيّٞ حَمِيمٞ ٣٤﴾

هاتان الآيتان الكريمتان هما دستور الحياة الطيبة، ومنهج التعامل مع الناس، وخارطة الطريق لنشر النور في الأ رض. إنهما تجمعان بين علاقتك بربك، وعلاقتك بنفسك، وعلاقتك بالآخرين. فهيا بنا نغوص في أعماقهما، لنستخرج كنوزهما، ونبني بها حياتنا.

الوقفة الأولى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا...﴾ الداعية إلى الله أحسن الناس قولا ً!

انظر كيف يفتتح الله هذه الآية بأسلوب استفهامي بديع: "وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا ً". إنه سؤال للعقول والقلوب! من هو أحسن الناس قولا ً؟ من هو الأفضل كلامًا؟ من هو الأعلى منزلة في منطقه وخطابه؟ أهو الشاعر البليغ؟ أهو الخطيب المفوه؟ أهو الإعلامي اللامع؟

ثم يأتي الجواب الإلهي: "مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ". لا أحد أحسن قولا ً ممن يدعو إلى الله!

تأمل هذا التكريم العظيم للدعاة! إن الله يضع الداعية إلى سبيله في قمة الهرم. ليس لأنه يمتلك حنجرة ذهبية ، بل لأنه يحمل أعظم رسالة. كلامه يدل الناس على خالقهم، على سعادتهم الأبدية. كلامه ينقذ من النار، ويهدي إلى الجنة. فأي كلام في الدنيا يرقى إلى هذا المقام؟!

ثلاثة شروط للداعية الناجح:

الآية تذكر ثلاثة شروط تجعل قول المرء "أحسن قول":

1.يدعو إلى الله: هذه وظيفته وغايته .لا يدعو إلى نفسه، ولا إلى مذهبه، بل إلى الله وحده.

2.عمل صالحًا: قدم القدوة العملية قبل الدعوة القولية .ففعله يصدق قوله، وسلوكه يزكي كلامه.

3.وقال إنني من المسلمين: أعلن إسلامه وانتماءه صراحة، بلا تردد ولا مداهنة .هو معتز بدينه فخور بإسلامه.

المثال التقريبي:

تخيل طبيبًا عظيمًا، يعالج الناس بالمجان، ويدعوهم إلى اتباع نظام صحي معين. إنه لا يكتفي بالكلام، بل يراهم يطبقون ما يقول لأنه هو نفسه صحيح البدن قوي الجسد. هذا الطبيب يصدقه الناس. أما طبيب مريض يدخن، وينصح الناس بعدم التدخين، فلن يسمعوا له! الداعية إلى الله كذلك؛ لا بد أن يكون قدوة عملية قبل أن يكون داعية قولية.

الدرس العملي الأول:

كل واحد منا داعية! في بيتك، في عملك، بين أصدقائك. فهل أنت "أحسن قولا ً"؟ اسأل نفسك: هل كلامي مع الناس يدلهم على الله؟ هل أفعالي تصدق كلامي؟ هل أعلن إسلامي وانتمائي لديني بثقة واعتزاز؟ ليكن شعارك: قبل أن تتكلم، اعمل. وقبل أن تدعو، كن قدوة!

الوقفة الثانية: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قانون الاختلاف المطلق

ثم ينتقل الخطاب إلى قضية أخلاقية هي من أعظم ما يحتاجه الداعية في طريقه: "وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ". هذا تقرير لحقيقة واضحة. إن الحسنة والسيئة لا يمكن أن تكونا سواءً أبدًا، لا في طبيعتهما، ولا في مصدرهما، ولا في عاقبتهما!

· الحسنة: من الله، نور، ترفع صاحبها، وتجلب السكينة، وعاقبتها الجنة.

· السيئة: من الشيطان، ظلمة، تخفض صاحبها، وتجلب القلق، وعاقبتها النار.

فكيف يستويان؟! هذا هو القانون الذي يجب أن يرتكز عليه تفكيرك: الخير والشر لا يستويان، الحق والباطل لا يستويان، العدل والظلم لا يستويان. مهما بدا لك في لحظة انفعال أن السيئة مغرية، وأن الباطل قوي، تذكر أن الحقيقة المطلقة هي عدم التساوي!

المثال التقريبي:

هل يستوي الذهب الخالص والنحاس المطلي بالذهب؟! قد يبدوان للوهلة الأولى متشابهين، لكن الصائغ الخبير يفرق بينهما فورًا. وعند الاختبار الحقيقي (بالنار!)، ينكشف الزيف. هكذا الحسنة والسيئة! في لحظة الشهوة أو الغضب، قد تبدو السيئة جميلة، لكنها زائف. إنها سرعان ما تذهب بهجتها، ويبقى مرارتها.

الدرس العملي الثاني:

عندما تتردد بين فعل الخير وفعل الشر، تذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: "ولا تستوي الحسنة ولا السيئة". هذه الآية عزاء للمؤمن وردع للعاصي. للمؤمن: لا تحزن إن ضُيّق عليك ووسّع على أهل المعاصي، فنهايات الطريقين مختلفتان تمامًا. وللعاصي: لا تغتر بلذة المعصية العابرة، فما هي إلا زيف وظلمة.

الوقفة الثالثة: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾... فن إدارة الغضب وعلاج العداوات!

وهنا تأتي الوصفة السحرية لعلاج ما نواجهه من أذى الناس أثناء دعوتنا: "ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ". إذا أساء إليك مسيء، فكيف ترد؟ بالتي هي أحسن! إذا قابلوك بالغضب، فقابلهم بالحلم. إذا قابلوك بالسب، فقابلهم بـ العفو. إذا قابلوك بالقطيعة، فقابلهم بالصلة.

هذا ليس ضعفًا! بل هذا هو عين القوة. ليس القوي بالصرعة، إنما القوي الذي يملك نفسه عند الغضب. إنها معركة نفسية من أعلى مستوى. أنت لا ترد الإساءة بإساءة مثلها، لأنك إن فعلت صرت مثله. بل ترد الإساءة با لإحسان، فتخرجه من حالة العداوة إلى حالة الندم والصداقة!

المثال التقريبي:

تخيل رجلا ً يرش بالماء الوسخ على آخر. الغاضب يرد عليه بالماء الوسخ نفسه، فيتلطخ الاثنان. أما الحكيم الذي يفهم الآية، فيفتح خرطوم الماء النظيف، ويغمر الآخر بالماء النقي حتى يغسل عنه الوسخ! النتيجة: الأولا ن تلطخا، والأخيران تطهرا. وهكذا المؤمن، يدفع سيئة المسيء بحسناته، فيكسبه.

الدرس العملي الثالث:

في حياتك اليومية، ستقابل من يسيء إليك. زوجتك، أولادك، زميلك في العمل، جارك. عندما يحدث ذلك، لا ترد الصاع صاعين! تذكر: "ادفع بالتي هي أحسن" . ابتسم في وجه من عبس في وجهك. سامح من أخطأ في حقك. تصدق على من حرمك. هذا هو الجهاد الحقيقي! جهاد النفس.

الوقفة الرابعة: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾... الثمرة العجيبة!

ثم تأتي الثمرة! "فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم". تأمل هذه الآية: بسبب هذا الصبر الجميل، وهذا الدفع بالحسنى، يتحول العدو اللدود، فيصبح كالصديق القريب! تنقلب العداوة إلى ولاية، والبغضاء إلى محبة، والفتور إلى حميمية!

ولكن من يستطيع تحقيق هذه المعجزة الأخلاقية؟ لا يقدر عليها كل أحد! إنها تحتاج إلى إيمان عميق، ويقين بأن الله هو الذي سيكافئك، وصبر على أذى الناس. إنها تحتاج إلى استعلاء إيماني، تنظر فيه إلى المسيء نظرة رحمة وشفقة، لا نظرة حقد وانتقام.

المثال التقريبي:

تخيل جمرة ملتهبة في يدك، وكرت ثلج في اليد الأخرى. ماذا تفعل بالجمرة؟ إن رميتها على العدو أحرقته وأحرقتك. لكنك إن أخذتها بيد الصبر، ووضعت عليها كرة الثلج، انطفأت! السيئة جمرة، والحسنة ثلج يطفئها. ادفع بالحسنة، تنطفئ السيئة، وينقلب العدو صديقًا.

الدرس العملي الرابع:

في دعوتك لله، وفي حياتك الخاصة، لا تتسرع بالحكم على الناس. قد يكون بينك وبين شخص ما عداوة قديمة. جرب معه هذه الآية! ادفع بالتي هي أحسن. ابدأه بالسلام، تلطف معه، قدم له هدية. راقب كيف سيتغير قلبه! إنها تجربة إيمانية عظيمة، وثمارها مضمونة بإذن الله.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين:

الرسائل الفكرية:

1. الدعوة إلى الله أشرف مهمة: هي أحسن الأقوال وأعظمها أثرًا.

2. التكامل بين القول والعمل: الداعية الحق هو من يجمع بين اللسان الناصح والجسد العامل.

3. منطق القرآن الأخلاقي: الحسنة والسيئة ليسا سواء، والجزاء من جنس العمل.

الرسائل النفسية:

1. السمو النفسي: عندما تدفع بالتي هي أحسن، تشعر بأنك ارتقيت فوق الجراح، وعشت مع القرآن.

2. التحكم في الغضب: هذه الآية أعظم مدرسة لتربية النفس على الحلم وكظم الغيظ.

3. الراحة النفسية: أنت في خصومة دائمة مع الآخرين إن أردت أن ترد السيئة بالسيئة .أما إن دفعت بالحسنة، فارتحت من عناء الانتقام.

الرسائل التربوية والعملية:

1. فن التربية بالقدوة: أعظم ما تربي به أولادك هو أن يروك أنت "صالحًا" قبل أن تسمعهم "أقوالا ً صالحة".

2. استراتيجية الدعوة: لا تبدأ بالكلام .ابدأ بالعمل الصالح والقدوة الحسنة .سيسألونك، فأجبهم .حينها تكون دعوتك أقوى.

3. علاج المشكلات الأسرية والاجتماعية: معظم مشكلاتنا سببها رد السيئة بالسيئة .ولو جربنا هذه الآية، لا نتهت نصف الخلافات!

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة:

أولا ً: بناء الإنسان الرباني:

هذه الآيات تبني إنسانًا متوازنًا، لسانه رطب بذكر الله ودعوته، وجوارحه عاملة بالصالحات، وقلبه سليم من الحقد والضغينة تجاه الخلق. إنسان ليس فاحشًا ولا بذيئًا، بل يدفع بالتي هي أحسن فيصبح محبوبًا عند الله وعند الناس.

ثانيًا: بناء المجتمع المتماسك:

مجتمع يطبق أفراده قاعدة "ادفع بالتي هي أحسن"، هو مجتمع متماسك متراحم. تقل فيه الخصومات و القطائع. العداوات تنقلب إلى صداقات. تسوده روح العفو والتسامح.

ثالثًا: بناء الحضارة الإنسانية:

الحضارة الحقيقية هي حضارة الأخلاق. وهذه الآية تقدم أرقى درجات السلم الأخلاقي. إنها تقدم نموذجًا للتعامل الإنساني الراقي القائم على العفو والحلم، لا على الانتقام والثأر.

الخاتمة: كيف نعيش الآيتين في واقعنا العملي؟

بعد هذا الغوص، ماذا يريد المولى منا؟

.1كن داعيًا بفعلك قبل قولك: ليكن عملك الصالح هو أعلى صوت لدعوتك .اجعل من نفسك قرآنًا يمشي على ا لأرض.

.2أعلن إسلامك واعتزازه: لا تخف من قول "إنني من المسلمين" في بيئة معادية .الاعتزاز بالدين قوة وليس ضعفًا.

.3طبق قاعدة "ادفع بالتي هي أحسن" اليوم: تذكر شخصًا بينك وبينه عداوة، وابدأ معه اليوم بالإحسان . اقطع بهذا حبل الشيطان.

.4جاهد نفسك عند الغضب: تذكر هذه الآية لحظة الغضب .استعذ بالله من الشيطان، وتذكر أن الحسنة و السيئة لا تستويان، واختر الحسنة.

.5اغرس هذا الخلق في أبنائك: إذا تشاجر أولادك، لا تقل لهم: "اضربه كما ضربك!" بل قل: "ادفع بالتي هي أحسن، سامحه، سيعود كأنه ولي حميم" .ازرع فيهم هذا الخلق القرآني العظيم.

يا من تسمع هذه الآيات، إن الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره، والنفس تميل إلى الانتقام. لكن تذكر أن الجنة للمتقين، وللذين يدفعون بالتي هي أحسن. فكن منهم، تكن من أحسن الناس قولا ً وعملا ً، وترتق في مدارج الكمال عند الله.

ثانيا

يا من ذاقت قلوبكم حلاوة الحلم والعفو، ووقفتم على معجزة "ادفع بالتي هي أحسن"، تعالوا نقف الآن على آيتين تكشفان لنا سر هذا الخلق العظيم، وتدلاننا على الطريق العملي لاكتسابه. بعد أن أمرنا الله بدفع السيئة ب الحسنة، يأتي الآن ليبين لنا أن هذا الأمر ليس سهلًا على كل أحد، بل هو خُلق خاص بطبقة معينة من الناس، ثم يفتح لنا باب العلاج العملي حين تهاجمنا وساوس الشيطان التي تمنعنا من هذا الدفع الجميل.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يمنحنا مفتاح الكنز:

**﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾.

هاتان الآيتان هما بمثابة الروح للجسد، والسر للنور. إنهما تخبرانك أن هذا الخلق العظيم ليس صدفة، بل هو ثمرة صبر طويل، وحظ عظيم من الله. ثم تعطيك السلاح الفوري الذي تقتل به أي هجوم شيطاني يمنعك من بلوغ هذه المنزلة. فهيا بنا نغوص في أعماقهما، ونبني بها شخصيتنا الإيمانية

الوقفة الأولى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾... الصبر مفتاح الخلق العظيم

انظر كيف تشير الآية إلى الإشارة "ها" في قوله: "وَمَا يُلَقَّىٰهَآ"! الضمير يعود على الخصلة العظيمة المذكورة قبلها: خصلة "دفع السيئة بالتي هي أحسن". إنها إشارة إلى ذلك الخلق النبيل الذي تحدثت عنه الآية السابقة. فمن الذي يستطيع أن يقابل الإساءة بالإحسان، والغضب بالحلم، والقطيعة بالصلة؟!

يجيب الله: "إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟". لا ينال هذه المنزلة الرفيعة إلا أهل الصبر. الصبر هنا ليس مجرد تحمل الأذى، بل هو صبر على ثلاثة أمور:

1. صبر على طاعة الله: بأن تلتزم بأمره "ادفع بالتي هي أحسن" مع مشقة ذلك على النفس.

2. صبر عن معصية الله: بأن تمنع نفسك من الرد بالمثل، ومن الانتقام، ومن الانتصار للنفس.

3. صبر على أقدار الله: بأن تتحمل أذى الناس وظلمهم، وتعلم أن ذلك بقدر الله.

إن قيادة النفس البشرية عند الغضب تشبه قيادة جواد جامح! إنه يحتاج إلى قوة إرادة عظيمة. وهذه القوة لا تُعطى إلا لأهل الصبر.

المثال التقريبي:

تخيل رجلا ً يصعد جبلا ً شاهقًا. في البداية، الهواء عليل والطريق سهل. لكن كلما ارتفع، اشتد البرد، وقل ا لأكسجين، وتعبت القدم. الكثيرون يتوقفون ويعودون. أما ذلك الرجل الذي تدرب طويلا ً، وصبر على مشاق التدريب، وصبر على ألم الصعود، فهو وحده الذي يصل إلى القمة المكسوة بالثلج الناصع. هكذا خلق "ادفع بـ التي هي أحسن"! هو قمة الأخلاق، ولا يصعد إليها إلا المصابرون المصطفون.

الدرس العملي الأول:

جهادك اليوم لتربية نفسك على الصبر هو ثمن القمة، فلا تيأس من بطء تقدمك! كل مرة تصبر فيها على أذى، وتكظم غيظك، وتدفع بالحسنة، فأنت ترتقي درجة في سلم "الذين صبروا". اسأل نفسك اليوم: كم مرة صبرت فيها؟ وكم مرة انتقمت؟ النسبة بينهما هي مقياس تقدمك الأخلاقي. زد رصيد صبرك، تبلغ هذه المنزلة العظيمة.

الوقفة الثانية: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾... الصبر يقود إلى الحظ العظيم!

ثم تؤكد الآية المعنى نفسه، ولكن بوصف آخر: "وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ". وهذا يعني أن من يوفق لهذا الخلق فهو صاحب حظ عظيم. وما هو الحظ العظيم؟ إنه النصيب الوافر من الخير في الدنيا والآخرة. إنها سعادة الدنيا، ومحبة الله، ومحبة الناس، والجنة في الآخرة.

تأمل الارتباط الوثيق بين الصبر والحظ العظيم! الصبر هو الطريق، والحظ العظيم هو الثمرة. ليس الحظ هنا بمعنى المصادفة، بل هو القسمة والنصيب الذي يكتبه الله لمن اصطفاهم. إن الذي يصبر على أذى الناس، ويدفع بالحسنة، يرزقه الله حظًا عظيمًا من محبته ورضوانه.

اللمسة البيانية:

تكرار "وَمَا يُلَقَّاهَا" مرتين في الآية نفسها فيه توكيد وحصر. فكأنه يقول: لا يوفق لهذا الخلق إلا أصحاب الصبر، ولا يناله إلا أصحاب الحظ العظيم. فإذا أردت أن تعرف من هم أصحاب الحظ العظيم، فانظر إلى الذين

يقابلون الإساءة بالإحسان. وإذا أردت أن تكون منهم، فعليك بالصبر.

المثال التقريبي:

تخيل لوحة إعلانية ضخمة عن مسابقة عالمية، مكتوب عليها: "هذه الجائزة الكبرى لا يفوز بها إلا المثابرون! وهذه الجائزة الكبرى لا يفوز بها إلا أصحاب الحظ العظيم!". ماذا ستفهم؟ ستفهم أن المثابرة هي الطريق، وأن الجائزة عظيمة تستحق العناء. هكذا الآية! "الذين صبروا" هم المثابرون، و"ذو حظ عظيم" هم الفائزون بأعظم جائزة.

الدرس العملي الثاني:

لا تستصغر جهدك في الصبر والإحسان. في كل مرة تدفع فيها بالحسنة، تذكر أنك تكتب اسمك في قائمة "ذوي الحظ العظيم". هذا الشعور يجعلك تستلذ بالصبر، وتفرح بالمشقة، لأنها دليل على أنك تسير في الطريق الصحيح. وكلما شعرت أن الصبر ثقيل، قل لنفسك: أنا لا أصبر فقط، بل أنا أستثمر في "حظ عظيم"!

الوقفة الثالثة: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾... حين يهجم الشيطان ليمنعك من الخير!

بعد أن بين الله عظمة هذا الخلق، وثوابه، يأتي إلى التحذير من العدو الذي يقف في وجهك ليمنعك من بلوغه. "وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ".

ما معنى "ينزغنك نزغ"؟ النزغ هو أدنى حركة وأخف لمسة، مثل وخزة الإبرة. إنه إشارة إلى أن الشيطان لا يحتاج إلى هجوم كبير، بل إلى وسوسة صغيرة، نخزة خفيفة في قلبك، ليشعل نار الغضب، ويدفعك للانتقام!

الشيطان يعرف جيدًا أنك صرت تفهم فكرة "ادفع بالتي هي أحسن"، وبدأت تمارسها. فيأتي إليك بنزغ صغير: "انظر ماذا فعل بك! ألا تغضب؟! أتسكت؟! الناس سيضحكون عليك ويستضعفونك!". هذه النزغات الصغيرة هي التي تهدم صرح الصبر الذي بنيته، وتفوت عليك "الحظ العظيم".

الدلالة التربوية:

الشيطان لا يأتي ليأمرك بالكفر مباشرة، بل يبدأ بالنزغ. نخزة صغيرة، كلمة عابرة، خاطرة ذهنية. فإن استجبت، نقلك إلى ما هو أكبر. فاحذر البدايات! النزغ الصغير هو الشرارة التي تحرق الغابة.

المثال التقريبي:

تخيل أنك تبني بيتًا من الورق، بيتًا دقيقًا جدًا، استغرق ساعات. فجأة، يأتي طفل وبنفخة صغيرة، يوقع كل شيء! هكذا النزغ! صرح الصبر والحلم الذي تبنيه في لحظات، قد يهدمه الشيطان بنزغ صغير إن لم تكن منتبهًا.

الدرس العملي الثالث:

انتبه إلى أول خاطرة! في لحظة الغضب، قبل أن تنفجر، هناك لحظة صمت قصيرة جدًا. في هذه اللحظة، يأتيك النزغ الشيطاني: "اضربه! رُدّ عليه! لا تسكت!". إن التقطت هذه النزغة واستجبت لها، ضعت. وإن وعيت أنها من الشيطان، وأسرعت إلى السلاح الذي ستعطيك إياه الآية التالية، نجوت. فكن يقظًا لهذه اللحظة الفارقة!

الوقفة الرابعة: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾... السلاح الفوري الذي لا يُهزم!

وهنا تأتي الوصفة الربانية المباشرة! ماذا تفعل لحظة أن تحس بنزغ الشيطان؟ "فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ". الجواب بسيط وعملي: ليكن لسانك وقلبك دائمًا مستعدًا لهذه الكلمة: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

لماذا هذا هو العلاج؟ لأن الشيطان يوسوس في الخفاء، وأنت لا تراه. لكنك تستطيع أن تستعيذ بالله الذي

يراه، ويسمع وسوسته، ويعلم بمكره. إنك تلوذ بحصن حصين! وتأمل وصف الله لنفسه هنا: "إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ".

· السميع: يسمع استعاذتك، ويسمع وسوسة الشيطان، ويسمع كلام الناس الذي أغضبك.

· العليم: يعلم ما في قلبك من ألم، ويعلم مكر الشيطان، ويعلم أنك تستعيذ به صادقًا.

فلا تخف! أنت تستعيذ بمن يسمع كل شيء ويعلم كل شيء، فلا يمكن للشيطان أن يتسلط عليك وأنت في هذا الحصن.

المثال التقريبي:

تخيل أنك في غابة مظلمة، وفجأة هاجمك ذئب مفترس. لكن معك جهاز اتصال مباشر بقائد الجيش، وهو يرى موقعك على الخريطة، ويسمع صوتك. تضغط الزر وتصرخ: "أنقذني!". في الحال، يرسل لك جنده، ويطرد الذئب. أنت لم تقاتل الذئب بنفسك، بل استعنت بالقادر عليه. هكذا الاستعاذة! أنت لا تجادل الشيطان، ولا تحاول مقاومته وحدك، بل تستعين بالله، فيتولى هو طرده وإبعاده عنك.

الدرس العملي الرابع:

لا تناقش الوسوسة! كثير من الناس يقع في الفخ لأنه يبدأ في مناقشة الوسوسة: "هل ما قاله صحيح؟ هل يجب أن أغضب؟ ما هو الرد المناسب؟". هذه المناقشة بذاتها استجابة للشيطان! لا تناقش! بمجرد أن تحس بأول نخزة، بأول خاطرة غضب، بأول تفكير في الانتقام، اقطعها فورًا بقولك: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". قلها بلسانك وقلبك، وسترى كيف ينطفئ الغضب، ويسكن القلب، وتعود إلى رشدك.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين:

الرسائل الفكرية:

1. الارتباط بين الصبر والحظ العظيم: الصبر ليس مجرد فضيلة، بل هو القانون الإلهي الموصل إلى أعلى المنازل.

2. تفسير النزغ الشيطاني: المشاعر السلبية ليست كلها من طبيعة الإنسان، بل كثير منها هجوم شيطاني خارجي.

3. اللجوء إلى الله كاستراتيجية: مواجهة العدو الخفي لا تكون بالقوة الذاتية، بل بالاستعاذة بالله.

الرسائل النفسية:

1. تشخيص المشكلة بدقة: "النزغ" يجعلك تفهم أن ما تشعر به من غضب ورغبة في الانتقام هو من الشيطان، فتقل لومك لنفسك، وتركز على الحل.

2. التحرر من الشعور بالعجز: أنت لست عاجزًا أمام غضبك، لأن معك سلاح "الاستعاذة".

3. الأمل في الوصول للقمة: تمنحك الآية الأولى يقينًا بأن الصبر ممكن، وأنه يؤدي إلى الحظ العظيم.

الرسائل التربوية والعملية:

1. تدريب يومي على الاستعاذة: تمرن على قول "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" في كل موقف صعب، حتى

تصبح عادة راسخة.

2.بناء عادة الصبر: الصبر عضلة تقوى بالتمرين .كل موقف تغضب فيه وتصبر هو تمرين يقويك.

3.التربية على الحلم: علم أبناءك منذ الصغر أن أول خطوة عند الغضب هي "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" ، واشرح لهم لماذا.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة:

أولا ً: بناء الإنسان المتوازن:

هذه الآيات تبني إنسانًا يعرف عدوه الحقيقي (الشيطان)، ويعرف سلاحه (الاستعاذة). إنسان لا تكسره الوساوس والنزغات لأنه واثق من حصن الله. إنه متوازن لا يطغى عليه الغضب، ولا يذله اليأس.

ثانيًا: بناء المجتمع السلمي:

مجتمع يتعلم أفراده أن النزغات الشيطانية هي سبب المشكلات، وأن العلاج هو الاستعاذة بالله، سيكون مجتمعًا هادئًا. بدلا ً من أن يتبادل الناس الشتائم، يتبادلون "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، ثم يتصالحون.

ثالثًا: بناء الحضارة الأخلاقية:

الحضارة الإسلامية تقوم على أخلاق "ادفع بالتي هي أحسن". وهذه الآية تكشف سر هذه الحضارة: "الصبر" و" الاستعاذة". فحضارتنا لا تنهار أمام الغضب، ولا تستسلم للانتقام، بل هي حضارة الصبر والعفو واللجوء إلى الله.

الخاتمة: كيف نعيش الآيتين في واقعنا العملي؟

بعد هذا الغوص العميق، ماذا يريد منا المولى سبحانه؟

1.اعقد العزم على الصبر: قرر من اليوم أن تكون من "الذين صبروا" .ضع أمام عينيك "ذو حظ عظيم" كهدف.

2.تدرب على كشف النزغ: كلما شعرت بغضب أو رغبة في الانتقام، اسأل نفسك: "هل هذا نزغ شيطاني؟" .غالبًا سيكون الجواب: نعم!

3.ردد الاستعاذة فورًا: لا تؤجل! بمجرد أن تكتشف النزغ، قل فورًا: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" .قلها بلسانك وقلبك بصدق.

4.ذكر نفسك بأن الله سميع عليم: عندما تستعيذ، استشعر أن الله يسمعك ويعلم حالك، وأنه سينصرك.

5.ازرع هذه الثقافة في أسرتك: إذا تشاجر أطفالك، أو غضبت زوجتك، قل لهم بهدوء: "إنه نزغ من الشيطان، فلنستعذ بالله" .علمهم عمليًا تطبيق هذه الآية

يا من تسمع هذه الآيات، اعلم أنك في معركة يومية مع الشيطان. لكن السلاح بيدك، والملجأ قريب، والحظ العظيم ينتظرك. فاصبر، واستعذ، وادفع بالتي هي أحسن، تكن من الفائزين برضوان الله وجنته.

القسم الرابع

تعود سياق النصوص الى الحديث عن الايات الكونيه التي شاهدها الناس في حياتهم وانعام الله الداله على انه سبحانه وتعالى المتفرد بالخلق والتدبير والملك والسلطان وعلى قدرته على الاحياء والاماته ولاثبات صدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وصدق الرساله

المبحث الأول

يا من ذاقت أرواحكم برد اليقين، ووقفتم على مشاهد الصبر والاستعاذة، تعالوا نقف الآن على مشهد كوني باهر، يفتح لنا الله فيه كتاب الكون المنظور. بعد أن حدثنا عن كتابه المسموع (القرآن)، يأخذنا الآن إلى آياته المرئية في الآفاق، ليرينا بعيوننا أدلة ربوبيته وألوهيته، وليزيل أي عذر للغافلين

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يخاطب عقولنا وقلوبنا معًا:

**﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ٣٧ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ٣٨﴾

هاتان الآيتان الكريمتان هما إعلان التوحيد الخالص، وهدم للشرك من أساسه. إنهما تخبرانك أن إلهك الذي تعبده هو رب هذه المخلوقات العظيمة، وأن العبودية لمن خلق وسخر، لا لمن خُلِق وسُخّر.

الوقفة الأولى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾... كتاب الكون المفتوح

انظر كيف يفتح الله لك كتاب الكون! "وَمِنْ آيَاتِهِ" أي ومن علاماته ودلائله الدالة على عظمته ووحدانيته: الليل والنهار والشمس والقمر. هذه الظواهر الكونية التي نراها كل يوم، والتي قد تبدو عادية لكثرة رؤيتنا لها، هي في الحقيقة من أعظم آيات الله.

لماذا هذه الأربعة بالذات؟ لأنها تتحكم في حياة الإنسان بالكامل. الليل للسكون والراحة، والنهار للسعي والعمل. الشمس للضوء والدفء والطاقة، والقمر للظلمة الخفيفة ومعرفة الشهور والسنين. إنها منظومة متكاملة، لا يستغني الإنسان عن أي منها طرفة عين.

الدلالة العقلية والعلمية:

تدبر دقة هذا النظام! الأرض تدور حول الشمس فتنشأ الفصول، والقمر يدور حول الأرض فتنتظم الأشهر، والأ رض تدور حول نفسها فيتعاقب الليل والنهار. لو اختل أي من هذه الأمور، لانتهت الحياة على الأرض! فهل يمكن أن تكون هذه الدقة المتناهية نتيجة صدفة عمياء؟! أم هي تدبير العزيز الحكيم؟ إنها آيات للعالمين.

الرسالة التربوية:

الله لم يخلق هذه المخلوقات عبثًا، بل خلقها مسخرة للإنسان. إنها نعم عظيمة تدل على أنعم الله، وتوجب على الإنسان شكر المنعم. الشمس والقمر ليسا إلهين يُعبدان، بل هما خادمان مسخران لأجلك أنت! الشمس تشرق لتزرع وتنمو، والقمر يضيء لتسير في الليل، كل ذلك رحمة من الله بك. أفلا يستحق هذا المنعم الرحيم أن يُعبد وحده؟

الدرس العملي الأول:

انظر إلى هذه الآيات الكونية نظرة إيمانية. كلما رأيت شروق الشمس، تذكر أنها "آية" من الله. كلما طلع القمر، تذكر أنها "نعمة" مسخرة لك. هذا التأمل اليومي يحول رؤيتك للكون من مجرد ظواهر طبيعية إلى كتاب مفتوح يرشدك إلى الله. حدد ثلاث آيات كونية تراها اليوم (شجرة، نجم، بحر) وتأمل فيها، وقل: "اللهم لك الحمد على نعمك الظاهرة والباطنة".

الوقفة الثانية: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾... تصحيح الانحراف العقدي

ثم تأتي القفزة العظيمة في الاستدلال: "لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ" . إنه نهي مباشر عن عبادة هذه المخلوقات. كثير من الأمم قديمًا وحديثًا عبدوا الشمس والقمر والنجوم، ظانين أنها آلهة تضر وتنفع. فيأتي القرآن ليصحح هذا الانحراف: لا تسجدوا لهما! لماذا؟ لأنهما مخلوقان، مثلكم، لا يملكان لأنفسهما نفعًا ولا ضرًا.

ثم يأتي الأمر: "وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ". الخالق وحده هو المستحق للعبادة، لا المخلوق. من سخر الشمس و القمر هو الذي يجب أن يسجد له، لا الشمس والقمر نفسيهما!

الدلالة العقدية العميقة:

هنا يتجلى الفرق بين توحيد الربوبية و توحيد الألوهية. كثير من المشركين يعترفون بأن الله هو خالق الشمس والقمر والليل والنهار (توحيد الربوبية)، ومع ذلك يعبدونها أو يعبدون غيرها (يخلون بتوحيد الألوهية). القرآن يقرعهم: إذا كنتم تعترفون بأن الله هو الخالق، فلماذا تعبدون المخلوق؟! إن مقتضى الاعتراف بأن الله هو الخالق المتصرف المدبر، هو أن يُفرد سبحانه بالعبادة وحده لا شريك له. إنها حجة منطقية لا ترد.

المثال التقريبي:

تخيل رجلا ً دخل قصرًا فخمًا، فرأى فيه حديقة غناء، وطعامًا شهيًا، وأثاثًا وثيرًا. فبدلا ً من أن يشكر صاحب القصر الذي أكرمه، ذهب إلى المدفأة فسجد لها لأنها تدفئه، وإلى السرير فسجد له لأنه يريحه! أليس هذا ضربًا من الجنون؟! هكذا حال من يسجد للشمس والقمر، فهما مجرد أدوات خلقها الله وسخرها لنا، فكيف نعبدها ونترك خالقها؟!

الدرس العملي الثاني:

وحد الله في عبادتك. لا تعتمد في قلبك على المخلوقين، بل على الخالق. لا ترجُ الشمس أن تشفيك، ولا تخف من القمر أن يضرك، بل اسأل الله الذي خلقهما. تفقد قلبك: هل فيه تعلق بغير الله؟ حين تطلب الرزق، هل تعلق قلبك بالوظيفة أم بالرزاق؟ حين تمرض، هل تعلق قلبك بالطبيب أم بالشافي؟ التوكل على الله وحده هو ثمرة التوحيد. اجعل سجودك وعبادتك لله وحده.

الوقفة الثالثة: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾... الشرط الوحيد للعبادة الحقة

ثم تختم الآية بهذا الشرط العظيم: "إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ". أي إن كنتم تزعمون أنكم تعبدون الله حقًا، فأخلصوا له العبادة ولا تشركوا به شيئًا. إنها دعوة للإخلاص الكامل. كثير من الناس يقول: "نعبد الله"، لكنه يسجد للمخلوقين أو يعلق قلبه بهم. الآية تقول: إن صدقتم في عبادتكم لله، فلا تسجدوا إلا له.

الرسالة النفسية:

هذا الشرط يجعل المؤمن يراجع نفسه باستمرار: هل عبادتي خالصة لله؟ هل أقصد بعملي وجهه وحده؟ هذا الا ستحضار الدائم ينقي القلب من شوائب الرياء والتعلق بغير الله.

الدرس العملي الثالث:

قبل كل طاعة، اسأل نفسك: لمن أفعل هذا؟ إن كان لله فأكمل، وإن كان للناس أو للشهرة فصحح نيتك. الإخلا ص روح العبادة. تمرن على "إخفاء الحسنات" كما تخفي السيئات، فذلك أضبط للإخلاص.

الوقفة الرابعة: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾... تشخيص المرض الأصلي الذي يمنع من الإيمان

ثم تأتي الآية التالية لتشخص المرض الذي يمنع الناس من الإيمان رغم وضوح الأدلة: "فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ". الا ستكبار هو العلة الأولى! ليس جهلا ً ولا نقصًا في الأدلة، بل كِبر يحول بينهم وبين السجود للخالق.

ما هو الاستكبار؟ هو رؤية النفس أكبر من الحق، ورفض الانقياد لأوامر الله، والتمسك بالموروث والتقاليد بدعوى أن الآباء كانوا على شيء. إنه مرض عضال، لأنه يغلق منافذ المعرفة. الإنسان المستكبر لا ينتفع بعقله و لا بالعلم ولا بالآيات، لأنه اتخذ قرارًا مسبقًا بألا يؤمن.

الاستكبار يسقط الوعي، فهو يجعل الإنسان يرفض التفكر والتجرد للحق. تجده ينظر إلى الشمس والقمر كظواهر طبيعية مجردة، ويرفض أن يرى فيها يد الخالق. إنه يريد أن يبقى في ظلمات التقليد، لا في نور الوحي.

المثال التقريبي:

تخيل إنسانًا واقفًا على قمة جبل، يرى تحته السهول والأنهار والبحار. لكنه يغمض عينيه بإحكام ويقول: "لا أرى شيئًا! لا يوجد شيء!". أهو أعمى حقًا؟ لا، إنه متعمد إغماض عينيه! هذا هو المستكبر. يغمض عين عقله وقلبه عن رؤية الحق، مع أنه يراه واضحًا جليًا.

الدرس العملي الرابع:

احذر الكبر من أصغر صوره! الكبر ليس فقط رفض السجود لله، بل هو أيضًا عدم قبول النصيحة، أو احتقار الآخرين، أو الإعراض عن الحق لأنه جاء على لسان شخص لا يعجبك. واعلم أن الإنسان هو المحتاج إلى الله وإلى عبادته، والله غني عن العالمين. فاستكبارك عن عبادة الله لا يضر الله شيئًا، بل يضرك أنت وحدك! راقب قلبك من ذرة كبر، واسأل الله أن يجنبك إياها.

الوقفة الخامسة: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ...﴾ إعلان غنى الله المطلق!

ثم يأتي البيان القاطع: إذا استكبر هؤلاء البشر، فهل تتوقف عبادة الله؟! لا وربي! "فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ". فالملائكة الكرام، المقربون عند الله، في تسبيح دائم وعبادة لا تنقطع، لا يصيبهم ملل ولا فتور. إنهم يعبدون الله طوعًا لا كرهًا، ليلا ً ونهارًا، ولا يستكبرون.

الدلالة العقدية:

الله غني عن عبادة البشر جميعًا. لو كفر كل من على الأرض، فلن ينقص ذلك من ملكه شيئًا. الملائكة وحدهم يملؤون السماوات والأرض تسبيحًا وعبادة. فالله ليس في حاجة إلى إيمانك، أنت المحتاج إليه! هذا المعنى يحررك من الغرور، ويجعلك تسجد لله شكرًا لأنه هداك واختارك من بين المستكبرين.

الرسالة النفسية:

في هذه الآية تطمين لقلب الداعية والمؤمن. إذا استكبر المدعوون وأعرضوا، فلا تحزن! فالله له عباد آخرون خير منهم. الملائكة في سجود دائم، وفي ذلك عزاء عظيم. لا يشعر المؤمن بالغربة وهو يعلم أن في السماء ملائكة يسبحون معه آناء الليل وأطراف النهار.

الدرس العملي الخامس:

داوم على التسبيح. اجعل لله في يومك وردًا من التسبيح (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم). وتذكر أنك حين تسبح، تكون على صلة بالملائكة المقربين. لا تكن ممن يسأم من العبادة، فالملائكة لا يسأمون، وأنت تحب أن تتشبه بهم.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين:

الرسائل الفكرية:

1.التلازم بين الربوبية والألوهية: من أقر بأن الله هو الخالق، لزمه أن يوحده بالعبادة .لا يمكن الفصل بينهما.

2.الآيات الكونية أدلة عقلية: القرآن يخاطب العقل ليتأمل في خلق السموات والأرض ويستنتج وجود الله ووحدانيته.

3.الاستكبار عائق المعرفة: أخطر ما يمنع الإنسان من الوصول إلى الحق هو الكبر لا الجهل.

الرسائل النفسية:

.1الشعور بالغنى بالله: أنت تعبد غنيًا حميدًا، ليس محتاجًا لعبادتك، وهذا يولد في نفسك مزيدًا من الشكر و التذلل.

.2التخلص من الغرور: إدراكك أنك الفقير المحتاج إلى الله يجعلك تسجد له بصدق.

.3الطمأنينة للمؤمن: وجود ملائكة يعبدون الله بلا ملل، يجعل المؤمن يشعر بالألفة وأنه ليس وحيدًا في هذا الكون.

الرسائل التربوية والعملية:

.1تدريب النفس على التأمل: خصص وقتًا لتنظر إلى السماء والنجوم والشمس والقمر، واربط ذلك بالإيمان.

.2محاربة الكبر الخفي: ضع قائمة بأشكال الكبر الصغيرة) مقاطعة المتحدث، احتقار الرأي المخالف(، وجاهد نفسك على التخلص منها.

.3التسبيح اليومي: التسبيح ليس فقط عبادة، بل هو اتصال بالملأ الأعلى، وعلاج نفسي رائع للهموم.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة:

أولا ً: بناء الإنسان المتواضع:

الإنسان الذي يفهم هذه الآيات يدرك حجمه الحقيقي في الكون، فيتواضع لله وللخلق. يتخلص من استكباره لأ نه يعلم أنه مخلوق ضعيف محتاج.

ثانيًا: بناء مجتمع العلم والإيمان:

هذه الآيات تدعو إلى التفكر في الكون، مما يدفع إلى طلب العلوم الطبيعية، لكن بإطار إيماني. مجتمع يدرس الفلك ليرى عظمة الخالق، لا ليشرك به.

ثالثًا: بناء حضارة السجود للخالق:

الحضارة الحقيقية هي التي توجه طاقاتها لعبادة الله وحده. حضارة لا تسجد للشمس والقمر (أي لا تقدس المادة والقوى الطبيعية)، بل تسجد لمن خلقها وسخرها. هذه الحضارة متوازنة، تستخدم المادة ولا تعبدها، وتتقدم ولا تطغى.

الخاتمة: كيف نعيش الآيتين في واقعنا العملي؟

بعد هذا الغوص في آيات الكون، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

.1غير نظرتك للكون: لا تنظر للشمس ككرة نارية فقط، والقمر كقطعة صخر .بل انظر إليهما كآيات لله، ونعم تستوجب الشكر.

.2أخلص سجودك لله: كل سجدة في صلاتك هي إعلان عملي لهذه الآية .اسجدها بقلب حاضر، مستشعرًا أنك تسجد للذي خلق الشمس والقمر.

.3حارب استكبارك: في كل نقاش أو خلاف، تذكر أن الاستكبار هو سبب هلاك الأمم السابقة .كن متواضعًا للحق، قابلًا للنصيحة.

.4تفكر في الكون لمدة دقائق يوميًا: قبل النوم، انظر إلى السماء، وفكر في عظمة الخالق .هذا التفكر من أعظم العبادات.

.5سبح الله كثيرًا: واجعل هذا التسبيح حبلا ً رابطًا بينك وبين تسبيح الملائكة .قل: "سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته".

بهذا نكون قد استجبنا لنداء الآيات، وحققنا العبودية الخالصة لله رب العالمين.

المبحث الثانى

يا من وقفتم معي على عظمة خلق الشمس والقمر، وتأملتم كيف أن السجود للخالق وحده هو مقتضى العقل و المنطق، تعالوا نقف الآن على آية عظيمة من آيات الله في الأرض. بعد أن أرانا الله آياته في السماء، يأخذنا الآ ن إلى الأرض التي ندوس عليها بأقدامنا، ليرينا مشهدًا يتكرر كل عام، ويغفل عنه أكثر الناس، مع أنه يحمل في طياته أعظم الأدلة على قدرة الله، وعلى حقيقة البعث والنشور.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يفتح بصيرتك على هذا المشهد المألوف:

**﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٣٩﴾

هذه الآية الكريمة ليست مجرد وصف لظاهرة طبيعية، بل هي منهج قرآني فريد في الاستدلال على الإيمان، ودليل علمي معجز، ورسالة أمل عظيمة للقلوب القاسية بأن الله قادر على إحيائها كما يحيي الأرض بعد موتها. فهيا بنا نغوص في أعماقها.

الوقفة الأولى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾... مشهد الموت والحياة

لاحظ كيف تبدأ الآية: "وَمِنْ آيَاتِهِ" أي ومن علاماته ودلائله الدالة على قدرته ووحدانيته. والآية هذه المرة ليست في السماء، بل على الأرض، وتحت قدميك مباشرة. إنه مشهد تراه بعينك كل سنة: "أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً" . تأمل تعبير "خاشعة"، ما أبلغه وأدقه!

الخاشع في اللغة هو المتواضع المتطامن المتذلل. فالأرض قبل المطر تكون متطامنة، يابسة، لا حركة فيها ولا حياة. إنها كالميت، أو كالخاشع في صلاته. كل شيء فيها ساكن، الأشجار عارية، والنباتات ميتة، والتراب جاف متشقق. هذا المشهد هو صورة للموت والفناء الذي ينتظر كل حي.

المثال التقريبي:

انظر إلى أرض صحراوية قاحلة في نهاية الصيف. ترابها متشقق، لا ترى فيها خضرة ولا تسمع فيها طيرًا. تشعر وأنت تمشي عليها بالجفاف والموت. هذا هو الخشوع. وكأن الأرض تخشع لله، تنتظر رحمته أن تنزل عليها.

الدرس العملي الأول:

حين ترى أرضًا ميتة، تذكر أن إيمانك وقلبك قد يصيبهما جفاف وقحط كما تصيب الأرض. حين تشعر بقسوة في القلب، أو فتور في الطاعة، فاعلم أنك بحاجة إلى "غيث" من السماء. القلب الخاشع القاحل بذنوبه، يحتاج إلى ماء الوحي ليحيا من جديد. راقب قلبك: متى كان آخر مرة شعرت فيها أنه "خاشع" ينتظر رحمة الله؟

الوقفة الثانية: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾... سر الحياة يبدأ بقطرة ماء!

ثم يأتي فعل الله العظيم: "فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ". مجرد ماء! مجرد قطرات شفافة لا لون لها ولا طعم! ولكن بمجرد أن تلامس تلك القطرات الأرض الميتة، تحدث المعجزة: "ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ".

تأمل هاتين الكلمتين المعجزتين:

· اهتزت: أي تحركت. فالتراب الساكن يبدأ بالحركة. البذور المدفونة تنتفض، والجذور الصغيرة تتمدد. إنها حركة انبثاق الحياة. لقد ثبت علميًا أن خلايا النباتات الكامنة تبدأ بالاهتزاز والنشاط حال ملامستها للماء.

· ربت: أي انتفخت وارتفعت وزادت. فالتربة تنتفخ بالماء، والبذور تنتفخ لتنفلق عنها السيقان. ثم ترتفع النباتات وتعلو فوق سطح الأرض.

كم هذا بديع! منظران متضادان تمامًا: أرض ميتة ساكنة، تتحول إلى أرض حية متحركة نامية... والسبب مجرد ماء! إنه مشهد الإحياء الذي يتكرر كل ربيع، لكن الغافل يمر عليه دون أن يتفكر.

اللمسة البيانية:

تقديم "اهتزت" على "ربت" يوافق الواقع العلمي تمامًا. فالحركة الخلوية والنشاط الحيوي (الاهتزاز) يحدث أو لا ً عند دخول الماء، ثم يعقبه النمو والارتفاع (الربو). إنه إعجاز علمي وبياني في وقت واحد!

الدرس العملي الثاني:

لاحظ الفرق بين "الخشوع" و"الاهتزاز". الأرض الخاشعة تصبح مهتزة بالماء. وكذلك قلبك الخاشع الخائف من الله، إذا نزل عليه ماء القرآن، اهتز فرحًا وانتفضت فيه الحياة. لا ترضَ بخشوع بلا حياة، واطلب من الله أن ينزل على قلبك ماء الوحي فيهتز وينمو. اسأل نفسك: كيف أتلقى آيات القرآن؟ هل تمر على قلبي كالماء على ا لأرض الميتة فتحييها، أم كالماء على الصخر فيذهب هباءً؟

الوقفة الثالثة: ·{إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ}·... القياس المنطقي على البعث

وهنا تأتي الغاية من ضرب هذا المثل: "إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ". هذا هو القياس المنطقي الذي لا يرده عقل سليم. تأمل في هذه الحجة الباهرة:

· المقدمة الأولى: أنت تشاهد بأم عينك أن الله يحيي الأرض الميتة بالماء، فيحدث الحياة من العدم (أو من السكون).

· المقدمة الثانية: القادر على إحياء الأرض الميتة، قادر على إحياء كل ميت.

· النتيجة: إذن، بعث الموتى ليس مستحيلا ً، بل هو واقع لا محالة! لأن الذي أحيا هذه الأرض سيفعل بعباده مثل ذلك.

أسلوب تقريب المفهوم:

الله يستخدم منهجًا علميًا تجريبيًا تقريبًا. هو لا يجادلهم في البعث بفلسفة غيبية بحتة، بل يأخذهم إلى مشهد يرونه أمامهم كل عام. إنه يضع أمامهم مختبرًا كونيًا مفتوحًا، ويعرض عليهم تجربة إحياء الموتى مصغرة كل ربيع. وكأنه يقول: كما ترون الأرض تحيا بعد موتها، كذلك ستحيون بعد موتكم. هذه طريقة القرآن في مخاطبة العقل البشري، بلغة الواقع المشاهد. هذا الأسلوب يعلمنا أن الإيمان ليس أمنيات، بل هو عين العقل و الحكمة.

الدرس العملي الثالث:

أيقن أيقينًا تامًا بالبعث. هذا المشهد الذي تراه في كل ربيع، هو وعد الله المرئي لك بأن بعثك حقيقة لا شك فيها. في كل مرة ينزل فيها المطر وتخضر الأرض، تذكر قبرك، وتذكر بعثك. هذا التفكر يحول الظاهرة الطبيعية التي تمر مرور الكرام إلى موعظة إيمانية عظيمة. إذا دعتك نفسك لمعصية أو تسويف في توبة، قل لها: أرأيت كيف أحيا الله الأرض؟ أليس هو بقادر على أن يحييني بعد موتي ويحاسبني؟!

الوقفة الرابعة: الإعجاز العلمي في "اهتزت وربت" وأهمية المثال الواقعي

دعنا نقف قليلا ً مع الإعجاز العلمي في قوله تعالى: "اهتَزّتْ وَرَبَتْ".

أولا ً: "اهتزت": أثبت العلم الحديث في علم الأحياء النباتية (Biology) وفي علم الجيولوجيا (Geology) أن امتصاص التربة والبذور للماء يولد نشاطًا كهربيًا وحركيًا على المستوى الخلوي. الخلايا النباتية الكامنة في البذور تبدأ بامتصاص الماء بعملية التناضح (Osmosis)، مما يؤدي إلى انتفاخها وتمزق أغلفتها، وهذا يسبب حركة واهتزازًا حقيقيًا على المستوى المجهري. إن كلمة "اهتزت" دقيقة علميًا بشكل مذهل!

ثانيًا: "ربت": تصف بدقة عملية النمو السريع للنباتات والتربة، حيث تنتفخ وتزداد في الحجم والارتفاع بشكل ملحوظ. ولمن يتساءل: أليس هذا كلامًا معروفًا؟ نقول: إن الدقة العلمية في الوصف، ومراعاة التسلسل (اهتزاز ثم ربو)، هو الإعجاز الذي نزل به رجل أمي في صحراء قبل 1400 عام، وهذا يستحيل أن يكون من عند بشر!

ثالثًا: استخدام المثال البيئي الواقعي:

الناس في كل زمان ومكان يرون هذه الظاهرة. الفلاح والبدوي والعالم كلهم سواء في مشاهدة الأرض الميتة تحيا بالماء. لماذا استخدم القرآن هذا المثال بالذات؟ لأنه:

· قريب من الذهن: لا يحتاج إلى معادلات رياضية ولا مختبرات علمية. كل عربي في الصحراء يفهمه.

· متكرر: في كل عام يراه الناس، فتتجدد الحجة ويتجدد اليقين.

· يقرب ذات النظر: يجعل الغيبيات (كالموت والبعث) مفهومة وملموسة ومشاهدة في صورة مصغرة.

الدرس العملي الرابع:

استخدم هذا الأسلوب في دعوتك. عندما تريد أن تقنع أحدًا بقضية الإيمان، انطلق من الحياة الواقعية. انطلق من خلق الإنسان، من تعاقب الليل والنهار، من إحياء الأرض بالماء. هذه اللغة يفهمها الجميع، وهي أقوى من أي فلسفة. كل إنسان رأى أرضًا ميتة ثم خضرت، يملك في قلبه هذه البذرة التي يمكن أن تثمر إيمانًا.

الوقفة الخامسة: القرآن والمطر... حياة الأرواح كما حياة الأرض!

كما أن الأرض الميتة تحتاج إلى ماء يحييها، فإن القلوب الميتة تحتاج إلى القرآن ليحييها. هذا هو الربط الخفي بين الآيات السابقة في السورة وهذه الآية! السورة كلها تحدثت عن القرآن (تنزيل، يهدي، يبشر). وهنا يأتي مثال الماء الذي يحيي الأرض.

القرآن ماء الحياة للقلوب! وكما أن الأرض ترى خاشعة ذليلة لا حول لها، فإذا أنزل الله عليها ماءه اهتزت وربت، فكذلك العبد يقرأ القرآن فيجد قلبه يهتز للآيات، ويربو إيمانه ويكثر خيره.

المثال التقريبي:

تخيل قلبًا قاسيًا غارقًا في الذنوب، بعيدًا عن الله، يشبه أرضًا جرداء قاحلة. صاحب هذا القلب يسمع آية تخاطب قلبه، فإذا بقلبه ينتفض ويخشع وتبدأ فيه الحياة الإيمانية. ألم تشعر بشيء كهذا لحظة تأثرك بآية؟ تلك اللحظة هي "اهتزاز وربو" قلبك بفعل ماء الوحي.

الدرس العملي الخامس:

انظر كيف تستقبل القرآن. هل قلبك معه أم مشغول بغيره؟ تعامل مع القرآن كما تتعامل الأرض الميتة مع الماء! كن مفتقرًا له، متشوقًا إليه. إذا شعرت أن قلبك لا يتأثر بالقرآن، فاسأل الله أن ينزل على قلبك ماء رحمته.

الزم القرآن، فكما أن الماء سر حياة الأرض، فالقرآن سر حياة القلوب. قال ابن القيم: "القلب القاسي كالأرض

الميتة، والقرآن كالماء... فلا بد من صب الماء على الأرض حتى تحيا".

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية:

الرسائل الفكرية:

1. الاستدلال بالمشاهد على الغائب: القرآن يعلمنا أن نستدل بما نراه على ما لا نراه (البعث).

2. قانون السببية: جعل الله الماء سببًا للحياة، تعليمًا لنا أن نأخذ بالأسباب مع اليقين بأن المسبب هو الله.

3. الإعجاز العلمي في القرآن: ذكر دقائق الوصف (اهتزاز قبل ربو) يثبت أن القرآن من عند الله.

الرسائل النفسية:

1. الأمل بعد اليأس: الأرض الميتة تحيا، فكذلك حياتك بعد المشاكل تعود وتزدهر. لا تيأس أبدًا، فرحمة الله تنزل فتغير كل شيء.

2. الشفاء للقلوب القاسية: الآية تفتح باب الأمل لتليين القلوب بالقرآن.

3. الشعور بالعناية الإلهية: إحياء الأرض نعمة، وهذا يعني أن الله لا ينسى عباده.

الرسائل التربوية والعملية:

1. منهج تعليمي فريد: استخدام الوسائل البصرية والتجارب الحية (مشهد المطر والنبات) في التدريس و التوجيه.

2. التفكر في الطبيعة: تدريب النفس على التأمل في الظواهر الطبيعية وربطها بالله.

3. الدعوة بالحكمة: تقريب المعاني الغيبية بضرب الأمثال من واقع الناس.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة:

أولا ً: بناء الإنسان المؤمن:

هذه الآية تبني إنسانًا واثقًا بوعد الله، متيقنًا من البعث، لا تهزه الشبهات. إنسان يرى في كل شتاء ممطر بشرى ويقينًا بلقاء الله. إنسان قاسي القلب، إذا قرأ هذه الآية وتأملها، لانت قسوته وأقبل على القرآن.

ثانيًا: بناء المجتمع الحي:

مجتمع يعلم أن الله يحيي الأرض بالماء، يعلم قيمة الماء، ويحافظ عليه، ويشكر الله عليه. مجتمع متفائل، يعرف أن بعد كل أزمة فرجًا، كما بعد كل شتاء ربيعًا. إنه مجتمع حي، لا ييأس، ولا يقنط، متجدد الأمل في كل حين.

ثالثًا: بناء الحضارة الإنسانية:

حضارة تقوم على مبدأ "الحياة بعد الموت"، تقود البشرية إلى العلم والمعرفة، لأنها تدعو إلى التأمل في ظاهرة الإحياء. فيخرج من هذه الحضارة علماء في الأحياء والجيولوجيا والفلك، لكنهم علماء يسجدون لله الذي علمهم، لا علماء متكبرين. إنها حضارة دمجت العلم بالإيمان.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي؟

بعد هذا الغوص، ماذا يريد منا المولى سبحانه في هذه الآية العظيمة؟

1. تأمل في الطبيعة وتحولاتها بعين المؤمن: لا تمر على مشهد نزول المطر ثم اخضرار الأرض مرور الكرام. قف وتفكر وقل: هذا وعد ربي بالبعث.

2. أقبل على القرآن كما تقبل الأرض الميتة على الماء: إذا شعرت بقسوة في قلبك، فاسقِه بكثرة تلاوة القرآن وتدبره. اجعل لك نصيبًا يوميًا من كلام الله، واسأل الله أن يحيي به قلبك.

3. أيقن بالبعث: تذكر دائمًا: "إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ" . هذه الآية هي رد على كل ملحد ينكر البعث. رددها كثيرًا، واغرس يقينها في صدرك.

4. استخدم هذه الآية في دعوة غيرك: اسأل صديقك المتشكك: ألا ترى الأرض ميتة فتحيا بالماء؟ من أحياها؟ أليس بقادر على أن يحيي العظام وهي رميم؟

5. لا تيأس من روح الله: كما تهتز الأرض وتربو بعد موتها، كذلك حياتك. إن كنت تمر بضائقة، فاعلم أن الفرج قادم. إن كنت تشعر بجفاف روحي، فانتظر غيث الوحي.

يا من تسمع هذه الآيات، إن إلهك هو الحي الذي لا يموت، وهو القادر على أن يحيي موتاكم، وأن يحيي قلوبكم. فثق به، وأقبل عليه، واجعل قلبك أرضًا طيبة تتلقى ماء الوحي، فتهتز وتربو، وتثمر إيمانًا صادقًا، ويقينًا راسخًا، وعملا ً صالحًا إلى يوم تلقاه.

المبحث الثالث

يا من أبصرتم آيات الله في الآفاق والأنفس، ورأيتم كيف يحيي الأرض بعد موتها، تعالوا نقف الآن على آية ترسم المشهد الأخير في هذه السورة، وتضع النقاط على الحروف. بعد أن عرض الله كل هذه الأدلة، وبعد أن فتح كتاب الكون وكتاب الوحي، يأتي الآن دور السؤال الفاصل، والتهديد الحاسم لمن أعرض عن هذه الآيات.

تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يخاطب العقول والقلوب معًا:

**﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾

هذه الآية هي صيحة الحق في وجه الباطل، وهي السؤال الذي يجب أن يسأله كل إنسان لنفسه قبل فوات الأ وان. إنها تكشف عن جريمة خطيرة، وتحذر من عاقبتها الوخيمة، ثم تضع بين يديك خيارين لا ثالث لهما.

المقدمة: حين يتحول الإعراض إلى انحراف

لقد عرضت السورة آيات الله المسموعة (القرآن) والمرئية (الكون)، ودعت الناس إلى الإيمان بها. فمن الناس من آمن واستقام، ومنهم من أعرض واستكبر. لكن هناك فئة أخطر، لم تكتفِ بالإعراض، بل تجاوزته إلى الإلحاد في الآيات. ما هو الإلحاد؟ إنه ليس مجرد الكفر، بل هو الكفر المصحوب بالانحراف عن الحق وتحريف الكلم عن مواضعه. إنها جريمة منظمة ضد آيات الله، تحاول طمس معانيها، أو صرف الناس عنها، أو السخرية منها.

الوقفة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾... جريمة تحريف الحقائق

لنقف أولا ً عند كلمة "يُلحِدُونَ". ما معنى الإلحاد؟ الإلحاد في اللغة هو الميل والانحراف عن الشيء. ومنه "اللحد" في القبر لأنه مائل عن الوسط. فالملحد هو الذي يميل بآيات الله عن الاستقامة، ويحرفها عن مواضعها، ويؤولها تأويلا ً باطلا ً.

كيف يكون الإلحاد في آيات الله؟

للإلحاد في آيات الله صور متعددة، منها:

١.إنكارها وجحودها: كما فعل كفار قريش حين قالوا عن القرآن: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

.٢تحريف معانيها: كما يفعل أصحاب الأهواء الذين يحملون الآيات على غير مراد الله لتوافق أهواءهم.

.٣السخرية والاستهزاء بها: التندر بآيات الله، أو اتخاذها مادة للفكاهة.

.٤صرف الناس عنها: بالتشكيك في مصدرها، أو إثارة الشبهات حولها.

لماذا سمي هذا الفعل "إلحادًا"؟

لأن في الآيات استقامة ووضوحًا، فهي صراط مستقيم. والذي يؤولها ويحرفها كأنه يميل بها عن هذا الصراط. إنه يحاول أن يلوي عنق الحقيقة لتوافق مزاجه!

المثال التقريبي:

تخيل لوحة إرشادية على طريق، مكتوب عليها بوضوح: "إلى المدينة الفاضلة: يمينًا". فيأتي مخرب ويدير اللوحة لتشير إلى اليسار، أو يكتب عليها كلمات مشوهة. هذا المخرب قد ألحد باللوحة، أي أمالها عن هدفها. هذا ما يفعله الملحدون بآيات الله.

الدرس العملي الأول:

احذر الإلحاد بكل صوره! لا تؤوّل آية لتوافق هواك. إذا سمعت آية تخالف ما تميل إليه نفسك، فلا تحاول تحريف معناها. استسلم لأمر الله، واتهم نفسك، ولا تتهم كلام الله. قبل أن تفسر آية، اسأل نفسك: هل تفسيري هذا هو المراد الشرعي أم هو تبرير لموقفي؟ الإلحاد يبدأ صغيرًا: تأويل آية هنا، وصرف آية هناك، حتى يتحول إلى انحراف كامل.

الوقفة الثانية: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾... عين الله التي لا تنام!

ثم يأتي الرد الإلهي المخيف: "لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا". إنهم يظنون أنهم بإلحادهم وتحريفهم يمكنهم الهروب من عين الله! يظنون أنهم إذا أخفوا نواياهم، أو تآمروا في الظلام، فسيغيبون عن علم الله. لكن الحقيقة الصاعقة أنهم لا يخفون على الله أبدًا.

الدلالة النفسية العميقة:

هذه الجملة القصيرة تخاطب القلب مباشرة. أنت أيها الإنسان، في خلواتك، في أفكارك التي لم تبح بها لأحد، في تحريفاتك للنصوص لتوافق أهواءك، قد تظن أن الأمر يمر دون رقيب. لكن الآية تقرع سمعك: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾!

الله يراك! الله يعلم ما توسوس به نفسك. الله مطلع على كل كبيرة وصغيرة. هذا الشعور بالمراقبة الإلهية هو حصن المؤمن من المعاصي.

المثال التقريبي:

تخيل أنك تقف أمام كاميرا مراقبة عالية الدقة، تسجل كل حركاتك وسكناتك. قد تشعر بالحرج، وتراقب تصرفاتك. فكيف بك إذا علمت أن الله يراقبك، ليس فقط جسدك، بل قلبك وفكرك ونواياك؟! أي حياء هذا الذي يجب أن يكون؟!

الدرس العملي الثاني:

استحضر مراقبة الله في كل لحظة. أنت لا تخفى على الله بحال. في صلاتك، في عملك، في مواقع التواصل، في خلواتك، عندما تفسر آية أو تنقل حديثًا... الله يعلم حقيقتك ونيتك! هذا الاستحضار هو الذي يجعلك

تتقي الإلحاد في آيات الله، وتخشى منه.

الوقفة الثالثة: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾... السؤال الفاصل!

والآن، بعد أن ذكر الجريمة (الإلحاد) وعلم الله بها، تأتي المقارنة العادلة، في صورة سؤال استفهامي يوقظ العقول: "أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ".

تأمل روعة الأسلوب القرآني! إنه سؤال، لكنه ليس استفهامًا حقيقيًا. إنه استفهام تقريري، الهدف منه أن تقول بلسانك وبقلبك: "لا، لا يستويان!". إنه يجعلك تشارك في الحكم، فلا يمكن لأي عاقل أن يقول: الذي يلقى في النار خير! إنه سؤال يشبه ما تقوله لصديقك: "أأن تنجح خير أم ترسب؟!". إنك لا تسأله عن شيء مجهول، بل تذكره بحقيقة واضحة.

مشهدان لا ثالث لهما:

· المشهد الأول: ملحد في آيات الله، يُسحب يوم القيامة سحبًا، ويُقذف في النار قذفًا. مشهد الذل والهوان، لا أمان ولا نجاة.

· المشهد الثاني: مؤمن يأتي يوم القيامة آمنًا مطمئنًا، تنزل عليه الملائكة بالأمن والبشرى.

أي المشهدين تختار لنفسك؟!

الرسالة التربوية:

هذا السؤال ليس فقط للمشركين والملحدين، بل هو لك أنت أيها المؤمن! كل ذنب صغير هو خطوة نحو النار. كل طاعة هي خطوة نحو الأمن يوم القيامة. الآية تجعلك تسأل نفسك كلما هممت بمعصية: أهذا العمل مما يقربني من النار أم من الأمن؟!

الدرس العملي الثالث:

اجعل هذا السؤال ميزانك اليومي: "أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنًا يوم القيامة؟". عندما تتردد بين فعل معصية أو تركها، اسأل نفسك هذا السؤال. عندما تغريك الدنيا بزينتها، اسأل نفسك هذا السؤال. في كل قرار تتخذه، تخيل المشهدين، واختر لنفسك الأمن.

الوقفة الرابعة: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾... الحرية المصحوبة بالمسؤولية!

ثم تختم الآية بهذه الجملة التي تجمع بين الترغيب والترهيب: "اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ". ظاهرها أمر، لكنه في الحقيقة تهديد ووعيد. وكأنه يقول: هذه هي الحقيقة، فافعلوا ما شئتم بعدها، ولكن اعلموا أن الله بصير بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

تأمل! إنها أعلى درجات الحرية، ولكنها أعلى درجات المسؤولية أيضًا. أنت حر أن تختار، ولكنك مسؤول عن اختيارك. ليس هناك إكراه، ولكن هناك حساب عادل. هذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ما معنى "بصير" هنا؟

"بصير" تعني أنه سبحانه مطلع على ظواهر الأمور وبواطنها. لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، لا ظاهرها ولا

باطنها، لا قليلها ولا كثيرها. هذا الوصف يزرع في قلبك مراقبة دائمة. فإذا علمت أن الله بصير بعملك، استحييت أن يراك على معصية.

المثال التقريبي:

تخيل رجلا ً يعمل في شركة، ورئيسه في العمل ليس بصيرًا، يغيب كثيرًا ولا يعلم عن العمال شيئًا. هذا العامل قد يتكاسل ويتقاعس. لكن تخيل رئيسًا مراقبًا لكل شيء، يعلم عنك الصغيرة والكبيرة. هذا يجعلك تعمل بإتقان وخوف. فكيف برب العالمين البصير بكل شيء! ألا يستحق أن تراقبه في كل عملك؟!

الدرس العملي الرابع:

أنت حر في اختياراتك، لكنك عبد مسؤول عنها يوم القيامة. لا يغرنك إمهال الله لك. قد يرى الناس منك صورة حسنة، ولكن تذكر أن الله ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. راقب الله في السر والعلن. اعمل ما شئت، لكن تذكر العين التي لا تنام، والديوان الذي لا يمحى.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية:

الرسائل الفكرية:

1.حقيقة الإلحاد: هو انحراف عن آيات الله بعد وضوحها، وهو أشد من مجرد الكفر.

2.علم الله المطلق: لا يخفى على الله شيء، وهو بصير بكل أعمال العباد.

3.مسؤولية الإنسان: الإنسان حر في اختياره، ومحاسب عليه .لا إكراه في الدين، لكن هناك جزاء.

الرسائل النفسية:

1.زرع الخوف من الله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ و ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تزرعان في النفس هيبة وخوفًا صحيًا.

2.إيقاظ الضمير: سؤال ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ...﴾ يهز الضمير ويدفع للمراجعة.

3.الطمأنينة للمؤمن: من يأتي آمنًا يوم القيامة هو في سعادة وراحة، وهذا يعطي المؤمن سكينة.

الرسائل التربوية والعملية:

1.التربية على مراقبة الله: اجعل هذه الآية نبراسًا لك في خلواتك وجلواتك.

2.الحذر من التحريف: لا تحرف معاني النصوص لتوافق هواك.

3.اتخاذ القرارات بوعي: كل فعل تقوم به، اسأل نفسك: أين سيضعني هذا في المعادلة) يلقى في النار أم يأتي آمنًا(؟

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة:

أولا ً: بناء الإنسان المراقب:

هذه الآية تبني فيك إنسانًا يراقب الله في كل تصرفاته. إنسان يعلم أنه لا يخفى على الله، فيستحي أن يُلحد في آياته، أو يخالف أمره. هذا هو الإنسان الكامل في إنسانيته.

ثانيًا: بناء المجتمع المنضبط:

مجتمع كل فرد فيه يستشعر أن الله بصير به، هو مجتمع يقل فيه الفساد والظلم، ويكثر فيه الخير والإتقان. الناس يراقبون الله، فلا يحتاجون لرقابة بشرية دائمة. إنه مجتمع الضمائر الحية.

ثالثًا: بناء حضارة المسؤولية:

الحضارة التي تقوم على هذه المفاهيم هي حضارة مسؤولة. كل فرد فيها يشعر بأنه مسؤول أمام الله عن كل عمل. هذا الشعور يدفع للإبداع والإتقان، ويقضي على الإهمال والفساد. إنها حضارة "اعملوا ما شئتم" بمعنى الحرية المسؤولة، لا الفوضى المدمرة.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي؟

بعد هذه الرحلة، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

1. احذر الإلحاد في آيات الله: لا تحاول تحريف كلام الله ليوافق هواك .سلم للحق، واتبع الدليل.

2. استشعر مراقبة الله دائمًا: تخيل أنك ترى الله، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .هذه هي درجة الإحسان.

3. اسأل نفسك السؤال الفاصل كل يوم: "أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنًا يوم القيامة؟" .اجعله ميزان أعمالك.

4. لا تغتر بإمهال الله: "اعملوا ما شئتم" ليست ترخيصًا، بل تهديد .فاعمل صالحًا ما دمت في زمن المهلة.

5. عش حرًا مسؤولا ً: أنت حر في اختياراتك، لكن تذكر أن الحرية الحقيقية هي أن تختار طاعة الله، فتأتي آمنًا يوم القيامة.

يا من تسمع هذه الآية، إنها تدعوك إلى الاختيار. فاختر لنفسك الأمن يوم الفزع الأكبر. اختر أن تكون ممن يأتون الله بقلب سليم، لا ممن يلقون في النار خزًى وندامة.

المقطع الثالث
القسم الاول
اولا
أما بعد، فقد ذقنا من قبل حلاوة الوقوف على آية ترسم مصير الملحدين، ورأينا كيف يطرح الحق سؤالًا فاصلًا لا يبقي للباطل عذرًا .واليوم، وبعد أن كشف الله عن جريمة الإلحاد، يأتي دور الوصف الدقيق لحال هؤلاء المجرمين، وكيف وصلوا إلى هذا المآل، وكيف تعاملوا مع الصمام الذي لو فتحوه لأشرقت أرواحهم .إنها الآيتان 41 و42، حيث يرتفع الحجاب عن علة دمارهم، ويكشف النقاب عن وصف كتاب الله الذي أعرضوا عنه .تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يرسم بآياته لوحة الهلاك المعنوي قبل الحسي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾

إنها آيتان تكشفان عن حقيقة المعركة بين الإنسان ونفسه، بين الفطرة السليمة ودسائس الشيطان، وبين نور الوحي وظلمات الهوى .إنها تصف جريمة كبرى: رفض الدواء الشافي، وجحود الأمان الذي يحمي الروح من الفيروسات المهلكة.

المقدمة: جريمة رفض الاستجابة للفطرة

بعد أن صور الله تعالى مشهد الملحدين في آياته، يأتي هنا ليصف أصل الداء .إنهم لم يكتفوا بالإلحاد وهو الانحراف، بل كان أصل مشكلتهم هو الكفر بالذكر نفسه .ما هو الذكر؟ ولماذا وصف القرآن بأنه ذكر؟ إنه ليس مجرد كتاب تشريع، بل هو تذكير بمعرفة مغروسة في أعماق النفس البشرية .كل إنسان يولد وفي فطرته علم بالله وتوحيده، لكن هذه الفطرة تغطى بالغفلة، فيأتي القرآن ليوقظها ويزيل عنها ركام الجهل .فمن رفض هذا التذكير، فقد اختار أن يظل أسير الغفلة، معزولًا عن مصدر الأمان، معرضًا للفيروسات المدمرة .هؤلاء هم الخاسرون حقًا، ليس لأنهم خسروا شيئًا ماديًا، بل لأنهم انقطعوا عن مصدر الحياة الحقيقية، وسقطوا تحت السلطة القسرية للشيطان.

الوقفة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ ...جريمة إماتة الفطرة

لنقف أولًا عند تسمية القرآن "بالذكر" .لماذا اختار الله هذا الاسم في هذا المقام بالذات؟ "الذكر" هو ضد النسيان والغفلة .والقرآن سمي ذكرًا لأنه يذكر الإنسان بما هو مركوز في فطرته من علم بالله تعالى .فالإنسان يعرف ربه بالفطرة، وهو يملك العلم الفطري والتوحيد الفطري كما قال النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة" .لكن غبار الحياة ودخان الشهوات ينسيه هذه المعرفة، فيأتي القرآن ليزيح هذا الغبار، ويوقظ الفطرة النائمة .إنه حماية من الغفلة التي تؤدي إلى الهلاك، وإزالة للجهل الذي يوقع صاحبه تحت سلطان الشيطان.

فعندما يأتي الذكر، إنما يأتي ليعتق الإنسان من هذه العبودية .ولكنْ هؤلاء الملحدين رفضوا هذا التذكير .إنهم لم يرفضوا مجرد نصوص أو أوامر فحسب، بل رفضوا دعوة الفطرة ذاتها! رفضوا أن يتذكروا حقيقة أنفسهم، ورفضوا أن يكونوا بشرًا على الفطرة .وهذا هو الخسران المبين.

لماذا هو خسران؟
لأن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور .هؤلاء لما أعرضوا عن الذكر، خسروا حماية الله، فاستحوذ عليهم الشيطان وأصبحوا من حزبه .كما قال في موضع آخر: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .تأمل كيف أنهم لما نسوا الله، أنساهم الله أنفسهم .إنهم في خسارة دائمة، سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا، لأنهم محرومون من التذكير، وأصبحت قلوبهم ميتة لا تتأثر بالمواعظ.

التصور التقريبي:
تخيل معي مصباحًا كهربائيًا مفصولًا تمامًا عن مصدر طاقته، إنه مظلم، وإن كان شكله كمصباح، لكنه لا يؤدي وظيفته .إن أردنا أن نعيد إليه الوهج علينا أن نصل التيار الكهربائي .بالنسبة للنفس البشرية، "الذكر" هو هذا التيار، هو وصلك بمصدر الطاقة التي تحيي فطرتك .الإعراض عن الذكر يبقيك مفصولًا عن مصدر الطاقة، في ظلام دامس، لا ترى الحق حقًا ولا الباطل باطلًا، تخلط هذا بذاك.

الدرس العملي الأول:
لا تتعامل أبدًا مع القرآن على أنه مجرد كتاب معلومات أو قصص، بل تعامل معه على أنه "ذكر"

يخصك أنت، يخاطب فطرتك العميقة .إذا شعرت بقسوة في قلبك، فاعلم أنك بحاجة إلى أن تعيد وصلك بالذكر .وإذا رأيت الحق واضحًا فلا تحرفه، لأن رفض الذكر الصريح هو أول خطوة نحو استحواذ الشيطان .اسأل نفسك: هل أنا اليوم متصل بمصدر النور، أم أنني مفصول وأعيش على بطارية روحي المنتهية الصلاحية؟

الوقفة الثانية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ ...منعة العزة ورفض الابتذال

بعد أن وصفهم بجريمة الكفر بالذكر، يأتي وصف القرآن نفسه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ .تأمل كيف استخدم "وإنه" بلام التوكيد! إنها لتأكيد هذه الحقيقة في مواجهة جحودهم.

ما معنى "عزيز"؟
العزة في لغة العرب تعني القوة والغلبة والمنعة .فالكتاب "عزيز" بمعنى أنه منيع، لا يقبل الذل ولا يقبل الانتقاص، وهو غالب لما سواه .لكن للعزة هنا بعدًا آخر يتعلق بمن يتعامل معه .إنه عزيز بمعنى أنه لا يرضى أن يسكن قلب من لا يحترمه .إنه لا يقبل الإعراض والانشغال .فهو لا يمنح خيراته وبركاته إلا لمن يقبل عليه بصدق واهتمام .وكما أن العزيز من الناس لا يفرض نفسه على من لا يرغب في صحبته، فكذلك هذا الكتاب، إن أعرضت عنه، أعرض عنك، وإن لم توقره، حُرمت أسراره.

ولهذا قال الله في موضع آخر: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، أي ليس كتاب لعب أو عبث، بل هو جد كله .بل أمر الله تعالى نبيه والمؤمنين بتلقيه بجد وحزم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ .فـ القرآن ليس كتابًا للتسلية أو الرفاهية الفكرية، بل هو منهج حياة يجب أن يؤخذ بقوة وجد وعزيمة . من يتعامل معه بتثاقل أو استهانة، يحرم نفسه من عطاياه.

المثال التقريبي:
تخيل ماسة نادرة فائقة الجمال، لا يمكن أن تظهر أنوارها الخلابة لمجرد عابر سبيل يلقي عليها نظرة خاطفة وهو منهمك في هاتفه .إنها تتطلب عينًا خبيرة، ويدًا أمينة، وقلبًا يقدر قيمتها .القرآن كذلك، بل وأعظم .إنه كتاب عزيز، لا يفتح أبواب رحمته ونوره لمن يدخل بقلب لاهٍ أو عقل ساخر.

الدرس العملي الثاني:
عندما تفتح المصحف، استشعر أنك بين يدي كتاب عزيز .هيئ قلبك وعقلك .لا تقرأه أبدًا كما تقرأ كتابًا عاديًا .اجعل لحظة تلاوتك لحظة لقاء، فيها من الإجلال والتركيز ما يليق بكتاب لا يأذن للغافلين بالدخول إلى حرمه .اسأل نفسك: هل أدخل إلى حرم القرآن بعزم وتوقير، أم إنني أطرق بابه بيدٍ باردة وقلب مشغول؟

الوقفة الثالثة: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ...الحصن المنيع من كل جهة

ثم تأتي الآية لترسم صورة بديعة للحماية الإلهية المطلقة التي تحف بهذا الكتاب العزيز .فالباطل لا يستطيع الوصول إليه لا من جهة ماضيه ولا من جهة مستقبله، ولا من أي جهة كانت .عبارة "من بين يديه ولا من خلفه" كناية عن إحاطة الحماية به من جميع جوانبه .فلا يمكن لأي باطل أن يخترق هذا الحصن، لا في أخباره عن الماضي، ولا في وعوده عن المستقبل، ولا في أحكامه وتشريعاته.

ما هو الباطل الذي لا يأتيه؟
الباطل هو كل ما خالف الحق: الشبهات، الشهوات، التحريف، التناقض، الكذب، العبث .هؤلاء الكفار و الملحدون يحاولون دائمًا خلط الحق بالباطل، فهم بلا منطق سليم، يعيشون في تيه فكري .إنهم يتصورون العاجز كالقادر، والمخلوق كالخالق، ويخلطون بين القيم والمبادئ .ولكن كتاب الله محمي من هذا الخلط، فهو براهين قاطعة، وأحكام عادلة، وأخبار صادقة .ليس فيه موضع للباطل إطلاقًا.

ولماذا هو محمي بهذه الصورة؟
لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.
"تنزيل": أي منزل من عل، من عند الله مباشرة .و"حكيم": يضع كل شيء في موضعه، ولا يصدر عنه إلا ما فيه الحكمة البالغة .و"حميد": محمود بذاته وبصفاته وبأفعاله، محمود على كل حال .ولأنه منزل من عند إله هذه صفاته) حكيم حميد(، كان بالضرورة محفوظًا من كل خلل .فالحكيم لا ينزل إلا الحق، والحميد لا ينزل إلا ما يستحق الحمد والثناء .أما هؤلاء الكفار، فبخلاف ذلك تمامًا، ليس لهم منطق ولا علم، فمن أين لهم أن ينتفعوا بنور هذا الكتاب؟ إنهم كالعميان في مواجهة الشمس، يقولون عنها مظلمة، والعيب في أبصارهم لا في الشمس!

الدرس العملي الثالث:
ثق ثقة مطلقة في هذا الكتاب .لا تسمح لأي شبهة تدخل عقلك دون أن تبحث لها عن إجابة في الكتاب نفسه أو في شرحه الصحيح من العلماء الراسخين .اعلم أن أي باطل يخطر ببالك، فهو منك أنت، من جهلك، أو من وسوسة الشيطان، وليس من الكتاب .كن على يقين أن الكتاب معصوم، و الباطل هو الذي يتبدد أمامه كما يتبدد الظلام أمام النور.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

الرسائل الفكرية:

.1حقيقة الذكر: القرآن ليس مجموعة معلومات مجردة، بل هو تذكير للفطرة المغروسة في الإنسان بـ التوحيد والعلم بالله.
.2عزة الكتاب: القرآن كتاب منيع، لا يمنح أسراره ونوره للمعرضين أو المستهزئين، بل هو نفيس لا ينال إلا بالجد والتوقير.
.3استحالة إبطال الحق: الباطل لا يمكن أن يخالط القرآن أو ينتصر عليه، فهو تنزيل من حكيم حميد ، منزه عن كل خلل.

الرسائل النفسية:

.1الإحساس بالحاجة الدائمة للذكر: لتظل فطرتك حية، ونفسك آمنة من استحواذ الشيطان وخسارته.
.2زرع الهيبة والتوقير للقرآن: استشعار التعامل مع كتاب عزيز، يعز على من يبتذله، ويفتح أبوابه لمن يجله.
.3الطمأنينة المطلقة: اليقين بأنك محمي بكتاب لا يأتيه الباطل، في زمن تموج فيه الشبهات و الشهوات.

الرسائل التربوية والعملية:

.1التعامل مع القرآن كطاقة للفطرة: اجعل تلاوته وتدبره مصدرًا لإعادة شحن فطرتك ونفسك بالطاقة الإيمانية.
.2أخذ القرآن بقوة: لا تقرأه بتكاسل، بل بعزيمة وطلب للهداية، كما تتلقى أهم تعليمات في حياتك.
.3استعمال القرآن كحصن: عندما تواجهك شبهة أو فكرة باطلة، فتش في كتاب الله، وستجد جذوة النور التي تحرق كل باطل.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان الواعي الفطن:
الآيتان تبنيان إنسانًا يعي أن للقرآن وظيفة وجودية وهي التذكير .وإنسانًا يعظم ربه فيعظم كتابه، فـ لا يتلوه بلسانه فقط، بل بجوارحه كلها، فيكون إنسانًا عزيزًا بالإيمان لا ذليلًا بالشهوات، محصنًا من فيروسات الشبهات.

ثانيًا: بناء المجتمع المتيقظ:
مجتمع يعتبر القرآن ذكرًا له، هو مجتمع لا يغفل عن قيمه ومبادئه .هو مجتمع يعز كتاب الله، فيعيش بمنعته وعزته .وهو مجتمع محصن ضد حملات الباطل، لأن أفراده يعلمون أن الباطل لا يمكن أن ينال من الحق، فلا يخافون من مواجهة الشبهات، بل يحاربونها بحكمة وحمد.

ثالثًا: بناء حضارة النور والعزة:
الحضارة التي تقوم على هذا الأساس هي حضارة "عزيزة"، لا تبنى على أوهام وخلط للحق بالباطل، بل على أسس حكيمة حميدة .هي حضارة العزة والتمكين، التي قال عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنا كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله" .هذه الحضارة لا تحتاج إلى استيراد منطق أو قيم، لأن كتابها "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه".

الخاتمة: كيف نعيش الآيتين في واقعنا العملي؟

بعد هذه الرحلة في رحاب هاتين الآيتين الكريمتين، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

.1اجعل القرآن ذكرك الدائم: لا تدع يومك يمر دون أن تتصل بكتاب الله .إنه تذكرتك لبقاء فطرتك حية، ودرعك ضد سطوة الشيطان وعدوى الجهل.
.2عظم هذا الكتاب: استقبله بقلب طاهر وأذن واعية، ولا تتعامل معه كأي نص، بل كرسالة من الحكيم الحميد إليك أنت.
.3كن على يقين: إذا هاجمتك الشبهات، أو شعرت بغربة قيمك في هذا العالم، تذكر أن كتابك عزيز منيع، والباطل زائل، فاثبت واستمسك به.
.4لا تكن خاسرًا: تذكر أن الإعراض عن الذكر هو خسارة لحماية الله لك، وطريق لأن تكون جنديًا في حزب الشيطان .اختر أن تكون من حزب الله، حزب الذكر والنور.
.5انشره بنوره: كما استقبلته بعزة، قدمه للناس على أنه جوهرة لا تقدر بثمن، كتاب يحرر العقول و القلوب، لا مجرد كلام يراد له أن يكون خلف الإعراض والانشغال.

يا من تسمع هذه الآيات، إنها تدعوك إلى حياة الاتصال بالذكر، حياة العزة بالكتاب، وحياة الأمن من الباطل .كن للذكر منتفعًا، وللكتاب معظمًا، وللفطرة موقظًا، وللباطل محطمًا، تكن من الفائزين الآمنين يوم الدين.

ثانيا

بعد أن رأينا جريمة الكفر بالذكر، وعزة الكتاب المنزل، يأتي دور التثبيت الإلهي للنبي ﷺ في وجه آلة الباطل المتجددة دائمًا. هنا يتسع الأفق ليرى الصراع في أبعاده التاريخية والسننية. إنها آية تنقل التعامل مع الخصوم من ردود الأفعال الآنية إلى فهم السنن العميقة، ومن الصدمة النفسية إلى السكينة العقلية. تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يخاطب حبيبه، ومن خلفه كل داعية إلى يوم القيامة:

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ٤٣﴾

إنها آية واحدة، لكنها بحر زاخر. إنها تمنح المؤمن "عقلا ً سنيًا" و"قلبًا متوازنًا"، وتؤسس لـ "فقه إدارة الأزمات الدعوية"، ذلك الفقه الذي يمنع المفاجأة من أن تتحول إلى تشويش فكري، ويحول الأ ذى من طاقة سلبية هدامة إلى طاقة فهم إيجابية للتعامل والتصدي.

المقدمة: من وجع المفاجأة إلى سكينة السنن

عندما تواجه الداعيةَ كلماتُ الكفر والجحود، قد تهتز نفسه لأول وهلة، وقد يشعر بالغربة والوحدة. لكن الآية تأتي لتطمئنه: "لست وحدك، وما يقال لك ليس جديدًا، بل هو نفس الوقود البالي الذي يكرره أعداء الحق عبر التاريخ". إنها تنقل ذهنه من مستوى "لماذا يقولون هذا لي؟" إلى مستوى "هذا هو قانون الله في ابتلاء أنبيائه". وبهذا الانتقال يحدث الأمان النفسي العميق. الآية ترسم لنا طبيعة الكفار، ماضيهم وحاضرهم، وتكشف عن سنة الله المزدوجة: رحمة بالمقبلين التائبين، وعذاب للمعاندين المصرين. وهكذا تعيد بناء الوعي، وتضبط ردود الأفعال، ليكون الرد شرعيًا متوازنًا لا عنيفًا ارتجاليًا.

الوقفة الأولى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾... اكتشاف طبيعة العدو المتكررة

لنقف أولًا عند هذا الخبر الإلهي العظيم. إنها آية تكشف عن سنة تاريخية ثابتة: أعداء الله ذو طبيعة واحدة في كل زمان ومكان. إن الجحود والإنكار والاستهزاء والتكذيب الذي واجه به كفار قريش رسولَ الله ﷺ ليس وليد اللحظة، وليس دليلا ً على خطأ الدعوة، بل هو دليل على صحة نسبها! إنها نفس أسلحة الباطل المهترئة التي واجه بها المكذبون نوحًا وهودًا وصالحًا وشعيبًا وموسى وعيسى عليهم السلام.

ما هي طبيعة الكفار التي ترسمها الآية؟
إنهم جسد واحد، يحركهم عقلٌ واحد هو الهوى، ويقودهم قائدٌ واحد هو الشيطان. لذلك تتكرر مقولا تهم كما تتكرر صفاتهم. لقد قال قوم نوح: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وقال كفار قريش: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾. وقال الأولون: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، وقال الآخرون: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾. وقالوا عن الرسل: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. وكأنهم تلقوا هذه الكلمات من كتاب واحد، أو ألقتها عليهم شياطينهم بوحي واحد.

كيف تبني الآية الوعي وتحمي من الصدمة؟
الصدمة لا تأتي من الحدث نفسه، بل من عدم توقعه. أما إذا كنت تعلم مسبقًا أن خصمك سيصفك بـ

الجنون، فإذا قالها لك لن تصدم، بل ستتبسم وستقول: "الحمد لله، هذا دليل أني على طريق إخواني المرسلين". إن دراسة البيئة المستهدفة ومعرفة ردود أفعالها المتوقعة تمنحك طمأنينة نفسية، وقدرة على التصدي الفاعل واحتواء الأزمة والحد من آثارها. فتوقع ردة الفعل يجنبك المفاجأة التي تؤدي إلى تشويش الفكر واتخاذ قرارات ارتجالية عنيفة قد تفسد أكثر مما تصلح.

المثال التقريبي:
تخيل طبيبًا واجه وباءً جديدًا، فراح يبكي ويصرخ: "لماذا يحدث هذا؟!"، بينما طبيب آخر قرأ تاريخ ا لأوبئة وعلم أن الفيروسات سمة متكررة، فواجه الموقف بهدوء واتزان وبدأ في تطبيق البروتوكولات. هذا حال المؤمن الذي يقرأ هذه الآية. إنه يعلم أن الكفر والجحود "فيروس" فكري متكرر، له أعراضه المعروفة، فيواجهه بمناعة سننية لا بصدمة نفسية.

الدرس العملي الأول:
لا تستغرب كثرة الباطل وأهله! إذا سمعت استهزاءً أو إنكارًا، فاعلم أنك في معركة قديمة متجددة. ادرس أقوال المكذبين في القرآن، وستعرف أن ما يواجهك اليوم ليس إلا صدى لتلك الأصوات. هذا الفهم السنني هو العلم الذي يجعلك تتصدى للأزمة بهدوء الخبير لا بحيرة المبتدئ.

الوقفة الثانية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾... التوازن بين الرحمة والرهبة

بعد أن ذكر حقيقة أقوالهم المتكررة، يأتي الرد الإلهي بذكر صفتين متقابلتين: "ذو مغفرة" و"ذو عقاب أليم". وهذا توجيه إلهي عظيم في كيفية التعامل مع رد فعل الأعداء. وكأنه يقول: "يا محمد، هؤلاء وإن قالوا ما قالوا، فإن الأمر بيد الله وحده، وهو مع ذلك يفتح لهم باب المغفرة إن تابوا، ولديه عقاب أليم إن أصروا".

سنة الله في رعاية التائبين والعائدين:
"ذو مغفرة" صيغة مبالغة تدل على سعة المغفرة وكثرتها. إنها إشارة إلى أن الله ينتظر عودة هؤلاء، وأن رحمته تسبق غضبه. إنها ترسم منهجًا للمسلم: أن يكون قلبه مفتوحًا للتائبين، وألا يقنط من هداية أحد. فمعرفة أن الخصم قد يكون وليًا غدًا يغير طريقة تعاملك معه.

وفي المقابل: العذاب الشديد للمكذبين المعاندين:
"ذو عقاب أليم" فيه تهديد شديد لمن أصروا على ما قالوا. وهذا فيه شفاء لصدر المؤمن، لأنه يعلم أن ميزان العدل الإلهي لا يختل. فلا يضطر المؤمن للانتقام لنفسه، بل يكل الأمر إلى الله.

التصور التقريبي:
تخيل قاضيًا عادلا ً، عنده قانون صارم للمجرمين، لكنه في الوقت نفسه رحيم، يفتح باب العفو و التوبة عن كل من يرجع عن جريمته. هذا القاضي لن يضطرب من سلوك المتهمين، ولن يتعامل بعنف معهم، بل سيطبق القانون بحكمة، ويفتح أبواب الأمل للتائبين. بل إن علمه بقسوة العقاب يجعله أكثر حرصًا على دعوتهم إلى العفو قبل فوات الأوان.

الدرس العملي الثاني:
في دعوتك وفي تربيتك وفي تعاملك مع المسيئين، تخلق بهاتين الصفتين. كن رحيمًا رجاءً لتوبة المسيء، وكن شديدًا في الحق حزمًا في مواجهة الباطل دون ظلم أو تجاوز. هذه الازدواجية تمنع العنف الارتجالي والانتقام الشخصي، وتجعل ردود أفعالك شرعية متوازنة.

الوقفة الثالثة : بناء الوعي وإدارة الأزمة الدعوية بفاعلية

لنتوقف هنا لنستخلص من الآية منهجًا متكاملا ً في إدارة الصراع الفكري.

كيف تبني الآية الوعي والعقل؟
إنها تعطينا "عدسات سننية" نرى من خلالها الأحداث. عندما تفهم أن "ما يقال لك ليس إلا ما قيل للرسل من قبلك"، فإنك تدرك أن الصراع ليس شخصيًا، بل هو صراع حق وباطل. هذا الوعي يمنحك قوة عقلية هائلة، لأنك لا تنشغل بذوات المعتدين، بل بطبيعة أفكارهم.

ماذا عن إدارة الأزمة والتصدي لها؟
الآية تعلمنا أن التصدي الصحيح يكون بالعلم أولا ً (علم السنن وعلم طبيعة الخصم)، وليس بردة الفعل العاطفية. فحين تتوقع الأذى، يمكنك أن تعد له خططًا واحتياطات مسبقة. تكون قادرًا على

إدارة حوار هادئ، أو صمت حكيم، أو رد قاطع في وقته المناسب. إنها مهارة عالية في إدارة الأزمات ، حيث تكون أنت المسيطر، لا الأزمة هي التي تسيطر عليك.

المثال التقريبي:
القبطان الذي يبحر في بحر معروف بعواصفه الموسمية، يختلف تمامًا عن قبطان فوجئ بإعصار غير متوقع. الأول درس حالة الطقس مسبقًا، وجهز السفينة، وربط الأشرعة، وهدأ الركاب. هو في عين العاصفة لكنه قائد يمتلك زمام الأمور ولا يملكه الاضطراب. هذه هي ثمرة هذه الآية في نفس الداعية.

الدرس العملي الثالث:
ضع خريطة ذهنية للتحديات المتوقعة في طريق دعوتك أو إصلاحك. ادرس نمط الكفار في كل زمان من خلال القرآن. أنشئ في ذهنك "قاعدة بيانات" لأساليبهم، وعندما تواجههم، ستجد نفسك جاهزًا، ترد بالتي هي أحسن أو بالأقوى بحسب الموقف الشرعي، دون أن تفقد أعصابك أو تخرج عن حدود ا لأدب مع الله ومع خلقه.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

.1وحدة طبيعة الباطل: أساليب التكذيب والاستهزاء واحدة عبر كل العصور، وهذا جزء من السنن الإ لهية.
.2حتمية الابتلاء للدعاة: تكذيب الدعاة ليس دليلا ً على بطلان دعوتهم، بل هو وسام شرف على صحة الطريق.
.3شمول صفات الله: الجمع بين "ذو مغفرة" و"ذو عقاب أليم" يرسم صورة متوازنة للتعامل الإلهي و البشري.

الرسائل النفسية:

.1السكينة والطمأنينة: العلم بأن ما تواجهه ليس جديدًا، يزيل الشعور بالغربة والصدمة النفسية.
.2التوازن الانفعالي: الجمع بين الرجاء للتائبين والثقة في عدالة الله ضد المعاندين يمنح القلب اتزانًا.
.3الاحتراز من المفاجأة: توقع ردود الفعل السيئة يمنع حدوث الأزمة النفسية والفكرية التي تنتج عن الصدمات غير المحسوبة.

الرسائل التربوية والعملية:

.1دراسة السنن قبل المواجهة: أي مشروع دعوي أو إصلاحي يجب أن يسبقه دراسة لسنن الله في ا لابتلاء وطبيعة المعاندين.
.2إدارة الأزمة بوعي: لا تتصدى للمواقف الصعبة بقرارات عنيفة أو ارتجالية، بل بعلم وبصيرة واحتواء.
.3التعامل الشرعي مع الخصوم: التوازن بين العفو والرجاء تارة، والحزم والعقاب تارة أخرى حسب ما تقتضيه المصلحة الشرعية.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان الواعي الثابت:
هذه الآية تبني إنسانًا يمتلك "وعيًا سننيًا"، يرى الأحداث في سياقها التاريخي. هو إنسان لا تهزه رياح المفاجآت، بل هو كالطود الشامخ، ثابت القلب، متوازن الانفعالات، قادر على إدارة الأزمات باقتدار.

ثانيًا: بناء المجتمع المتوقع المستعد:
مجتمع يربي أفراده على هذه الآية، هو مجتمع لا تعيشه الصدمات في حالة ذهول، بل هو مستعد لمواجهة حملات التشكيك والاستهزاء بخطط مدروسة. هو مجتمع لا ينتقم لنفسه بعنف، بل يكل الأمر لله، ويفتح أبوابه للتائبين.

ثالثًا: بناء حضارة الإدارة الراشدة:
الحضارة التي تقوم على هذا الفقه تكون حضارة راشدة في إدارة صراعاتها. لا تستهلك طاقتها في

ردود الأفعال العاطفية، بل تستثمرها في البناء. هي حضارة تعرف أعداءها، وتدرس أساليبهم، وتعد العدة لهم، ثم تواجههم بثبات العارفين واتزان الحكماء، سائرة على طريق المرسلين من قبلها.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا الدعوي والعملي؟

بعد هذه الوقفة مع آية التثبيت العظيمة، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

1.تسلّ بسنن الله: كلما أوذيت في سبيل الحق، تذكر أن إخوانك الأنبياء والمرسلين قد أوذوا من قبلك، فتهون عليك المصيبة.
2.ادرس البيئة المستهدفة: قبل أن تخوض أي مجال دعوي أو إصلاحي، ادرس طبيعة الناس وعقبات الطريق لتتوقع ردود الأفعال.
3.لا تنصدم ولا تتشوش: إذا فوجئت برد فعل قاس، تذكر أن عدم التوقع هو سبب الأزمة الحقيقي . راجع خريطتك الذهنية وأضف إليها هذا الأسلوب الجديد لتكون مستعدًا في المرة القادمة.
4.ادعُ إلى المغفرة: لا تغلق باب الأمل في وجه أحد مهما بلغ من العداء .كن رحيمًا راجيًا توبتهم، فأنت لا تدري لعل كلمة منك تفتح قلبًا غلقته الشياطين.
5.فوّض الأمر للعزيز الحكيم: لا تحمل هم العقاب، فهو بيد الله وحده .يكفيك أن تعلم أن العذاب الأليم بالمرصاد للظالمين، لتستريح نفسك وتهدأ أعصابك، وتكمل طريقك وأنت "آمِنًا" بموعود الله.

يا من تمشي على درب الأنبياء، ثق أن طريقهم محفوف بالأذى، لكن العاقبة للمتقين. واعلم أن ما تسمعه من كلمات قاسية ليست موجهة لشخصك فحسب، بل هي موجهة للحق الذي تحمله. فاصبر لحكم ربك، وأحسن الظن به، وكن عبدًا راعيًا، وداعيةً محتسبًا، تكن من الفائزين.

ثالثا

فبعد أن رأينا في الآيات السابقة طبيعة الكفار المتكررة، والتثبيت الإلهي لرسوله، تأتي هذه الآية لتكشف لنا عن آلية عمل هؤلاء المعاندين، وتغوص بنا في أعماق نفوسهم لتبين جذور داءهم. إنها آية تحاور العقول بالمنطق، وتفضح التناقض بالحجة، وتبين أن أزمة الكافر ليست في وضوح الدليل، بل في إرادة صاحبه. تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يخاطب رسوله، ويعلمنا كيف نتعامل مع الخصوم، وكيف نحافظ على طاقتنا النفسية في وجه العناد:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ٤٤﴾

إنها آية تكشف عن بلاغة الحجة القرآنية، وتعلمنا فن إدارة الخلاف، وترينا أن العلة الحقيقية في عدم الانتفاع بالقرآن ليست غموضه فهو بيّن واضح، بل هي علة نفسية: العناد. وكأن هذه الآية تقول للداعية: لا تلقِ باللائمة على نفسك، فالإسلام حريص على طاقتك، والمشكلة ليست فيك، بل في تلك القلوب التي أغلقت أبوابها دون الحقيقة.

المقدمة: ومضة في منطق العناد

في هذه الآية ينتقل الحوار الإلهي إلى مستوى جديد. بعد أن أثبت أن أقوال المكذبين ليست جديدة، يأتي دور كشف الآلية النفسية العميقة التي تدفعهم لهذه الأقوال. إنها آلية العناد الذي يلبس ثوب العقل! إنهم لا يبحثون عن الحق، بل يبحثون عن أي حجة مهما كانت واهية للتملص منه. فلو جاءهم القرآن بغير العربية لاحتجوا، فلما جاءهم بالعربية احتجوا أيضًا! إنها لعبة نفسية مكشوفة يسميها الله بلسان الحال: المرض ليس في الدواء بل في المريض. وكما قال في مطلع السورة: هم في شك مريب لا ينبع من طلب الحقيقة بل من الرغبة في عدم الإيمان.

الوقفة الأولى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾... منطق العناد وأسلوب التحدي

لنقف أولًا عند هذا الأسلوب القرآني البديع: الافتراض العقلي. إن الله ينزل في حواره معهم إلى مستوى العقل والمنطق، فيفترض فرضًا جدليًا: "ولو أنزلناه بلسان أعجمي، ماذا كنتم ستقولون؟". هذا ا لأسلوب يسمى في البلاغة "الأخذ بالحجة من باب الأولى"، وفيه إظهار للتناقض الداخلي عند الخصم.

الحكمة من إنزال القرآن بالعربية: تحقيق البيان وإعجاز التحدي
إن الله أنزل القرآن بالعربية الفصحى التي يفهمونها، ليكون بيانه واضحًا لهم، فلا يقولوا: كيف لنا أن

نفهم مقاصده وهو بلغة غير العربية؟! "لولا فُصّلت آياته"، أي هلا بُيّنت لنا أحكامه ومعانيه بالعربية التي نفهمها! وهذا من تمام رحمة الله بهم، إذ جعل الحجة في متناول أيديهم، وجعل التحدي واقعًا في ميدانهم. فالتحدي هو أن يأتوا بمثله، وتحدٍّ لا يكون إلا إذا كان بلسانهم الذي يتقنونه ويفهمون أسراره. فكيف يتحداهم بشيء لا يعرفون لسانه ولا لغته؟! إن إنزاله بالعربية هو عين الحكمة ليكون التحدي في متناولهم، وتكون الحجة قائمة عليهم.

صورة العناد في اعتراضهم المزدوج:
ثم يكشف الله عن عنادهم. إنهم لو جوبهوا بقرآن أعجمي، لقالوا بدهشة واستنكار: "أأعجمي وعربي؟!"، أي: أيكون الكتاب أعجميًا والمخاطب به عربي؟! هذا الاعتراض يكشف أنهم ليسوا طلاب حق، بل طلا ب تعلة. إنهم أمام خيارين:

· قرآن عربي: يعترضون عليه ويقولون: نريد آيات أوضح (زعمًا).
· قرآن أعجمي: يعترضون عليه ويقولون: كيف لنا أن نفهمه؟
النتيجة: أنهم سيعترضون في كل الأحوال! وهذا هو عين العناد. إنه سلوك قبيح يتمثل في قلب الحقائق، والتماس أي مخرج للفرار من الإذعان.

أهمية هذا الأسلوب في الخطاب والحوار:
القرآن هنا يربينا على منهج عظيم في الحوار، وهو حوار العقول بالمنطق. إنه لا يفرض الحق فرضًا، بل ينزل إلى أرض الخصم ويفترض أسوأ الفروض لديه، ثم يريه أن هذه الفروض لا تنجيه، بل تزيده حجة عليه. إن هذا الأسلوب هو ذروة البلاغة والإقناع، وهو الذي يبني في المسلم شخصية المحاور القوي الذي لا يخاف الشبهات، بل يقلبها إلى حجج له.

الدرس العملي الأول:
عندما تحاور مخالفًا، لا تتهرب من افتراضاته، بل ادخل معه إلى منطقه، وقل له: "حتى لو افترضنا جدلا ً صحة ما تقول، فإنه يلزم منه كذا وكذا...". هذا الأسلوب هو مفتاح العقول. تدرب على هذا الفن القرآني، واعلم أن التناقض هو سمة الباطل، وأنك بمجرد أن تظهر هذا التناقض، تكون قد أقمت الحجة وهدمت الشبهة من أساسها.

الوقفة الثانية: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾... ازدواجية الأثر بحسب المحل

بعد أن كشف منطق العناد، يأمر الله نبيه أن يعلن الحقيقة التي تفسر كل شيء: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾.

هنا ينتقل الخطاب من جدالهم إلى بيان الحقيقة المزدوجة للقرآن. فالقرآن في ذاته نور، لكنه لا ينير إلا القلوب المستعدة. هو للمؤمنين هدى يرشدهم إلى الصواب ويزيل عنهم الحيرة، وشفاء لما في الصدور من أمراض الشبهات والشهوات. المؤمن بالقرآن وبالغيب تتصل روحه بربه، فيرى الآخرة بعين البصيرة، ويزهد في الدنيا الفانية، ويرضى بما قسم الله له، فيعيش في طمأنينة وانسجام. هذا القلب الخالي من الأمراض هو القلب الصالح لاستقبال أنوار الله.

أما الكافر فما علته؟
﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾.
العلة ليست في غموض القرآن، فهو واضح بين، بل العلة فيهم هم. في آذانهم صمم معنوي يمنعهم من سماع كلام الله كما ينبغي، وهو عليهم عمى فلا يبصرون به الحق. وهذا يرتبط بما جاء في مقدمة السورة من أنهم قالوا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾. فهنا يخبرنا الله أن هذا الوقر والعمى هو بسبب عدم استعدادهم للإيمان، وبسبب كفرهم وعنادهم. إن الذكر لا ينتفع به إلا من كان قلبه مفتوحًا لاستقباله، أما هؤلاء فقلوبهم مشغولة بالدنيا، غير مؤدبين عند استقبال كلام ربهم، والقرآن عزيز لا يسكن صدور الذين لا يحترمونه ولا يقابلونه بالجد والاهتمام.

أهمية هذا البيان للدعاة (الحفاظ على الطاقة):
هذا التفصيل القرآني ليس فقط لإقامة الحجة عليهم، بل هو للحفاظ على طاقة الداعية. إن الداعية إذا لم يفهم هذه الحقيقة، قد يلقي باللوم على نفسه: "ربما لم أوضح بما فيه الكفاية، ربما قصرت في البيان!". لكن الآية تقول له: "لا تلم نفسك، فالقرآن واضح، والمشكلة ليست فيك ولا في الأسلوب، بل في عدم استعدادهم واستكبارهم". إن الإسلام بهذا يحافظ على الطاقة النفسية للدعاة والمصلحين، فلا

يصيبهم اليأس أو الإحباط، بل يمضون مطمئنين أنهم أدوا ما عليهم.

الدرس العملي الثاني:
اعلم أن قبول الحق قسمان: قسم يعود إلى وضوحه، وقسم يعود إلى استعداد النفس. فالقرآن بلغ في وضوحه غايته، فإذا وجدت من لا يستجيب، فلا تتهم بيانك، بل ابحث عن العوائق في نفسه. لا تحزن على من لا يؤمن، فالهداية ليست بيدك، وما عليك إلا البلاغ. واجعل طاقتك موجهة لخدمة المؤمنين، فإنهم هم الذين ينتفعون بالذكر، ويدخل إليهم النور والشفاء.

الوقفة الثالثة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾... مشهد الصمم النفسي المهين

ثم تختم الآية بصورة حسية بديعة تجسم حالهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾. وكأنه يقول: هؤلاء الذين وصفناهم لا يفهمون، مثل الذي يُنادى من مكان بعيد؛ يسمع الصوت ولكنه لا يفهم المراد منه، لا يستوعب الكلام ولا يميز تفاصيله.

ما أهمية ضرب المثل لإظهار الحجة؟
ضرب الأمثال هو أسلوب قرآني عظيم لنقل المعاني المجردة إلى صور حسية تخاطب الوجدان والعقل معًا. فبدل أن يقول: "هم لا يفهمون"، يرسم لك مشهدًا حيًا: رجل ينادي آخر من على بعد أميال، يصرخ بأعلى صوته، لكن البعيد لا يكاد يسمع إلا همهمة، ولا يعرف ماذا يريد المنادي. إنه مشهد يصور العجز والانقطاع. وهذا المشهد يبين أن العلة ليست في ضعف صوت المنادي (القرآن)، فالمنادي صوته قوي، ولكن العلة في بعد المسافة، أي بعد قلوبهم وعقولهم عن الحق. هم في وادٍ والحق في وادٍ آخر.

المقارنة بين الفريقين:
تأمل كيف أن هذه الآية ترتبط بمطلع السورة ارتباطًا وثيقًا. ففي المطلع قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ ... وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، وهنا يقرر الله هذا المعنى ويحكم به عليهم. فالنتيجة واحدة: هم لا يسمعون ولا يفقهون، ليس لعيب في القرآن، بل لعيب فيهم. أما المؤمن فقلبه مفتوح لاستقبال الأنوار، وروحه متصلة بربه، فيرى الحق حقًا والباطل باطلا ً، ويعيش في طمأنينة وسكينة، قد هداه الله إلى الصواب وأزاح عنه الحيرة والشك والاضطراب.

الدرس العملي الثالث:
لا ترهق نفسك في إقناع من لا يريد أن يقتنع، فرُبّ حجة تكون أقوى من الشمس، لكن العيون المريضة لا تحتمل رؤيتها. استثمر وقتك وجهدك مع الذين آمنوا والذين هم مستعدون لسماع الحق، فهم الأولى بزادك. وتذكر دائمًا أن الهداية بيد الله وحده، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

1. الحكمة من اللغة العربية: إنزال القرآن بالعربية هو عين الحكمة لتحقيق البيان وإعجاز التحدي، وقطع عذر المتقولين.
2. حقيقة الكفر: إنه ليس عجزًا عن الفهم، بل هو عناد وعدم استعداد لقبول الحق، يتلبس بأقنعة المنطق الزائف.
3. منهج الجدل المنطقي: القرآن يعلم أسلوب الافتراض العقلي لفضح التناقضات، وهو أبلغ أساليب الإ قناع والحوار.
4. ازدواجية الأثر: القرآن واحد، لكن أثره يختلف باختلاف القلوب المستقبلة؛ فهو هدى وشفاء للمؤمنين، ووقر وعمى على الكافرين.

الرسائل النفسية:

1. حفظ طاقة الداعية: إدراك أن العيب في العناد لا في وضوح الرسالة يحمي الداعية من الإحباط وجلد الذات.
2. الطمأنينة بمنطقية الحق: الثقة بأن للحق منطقه القوي الذي يهدم كل اعتراض، تمنح المؤمن سكينة في وجه الشبهات.
3. القناعة الإيمانية: العلم بحال الكافر يزرع في المؤمن القناعة والرضا بما قسمه الله، وعدم الحزن

على ما فات من هداية الغير.

الرسائل التربوية والعملية:

1.التربية على الحوار المنطقي: تعلم كيف تحاور الآخرين بافتراض أسوأ السيناريوهات وإظهار تناقضها.
2.تشخيص العلة بدقة: قبل أن تحكم على فشل خطابك، ادرس حالة المتلقي، فربما المشكلة في عدم استعداده لا في خطابك.
3.ترشيد الإنفاق الدعوي: استثمر طاقتك ووقتك في التربة الخصبة، فهم الذين يأتون ثمارًا يانعة بإذن ربهم.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان المحاور الواثق:
هذه الآية تبني في المؤمن شخصية المحاور المنطقي، الذي لا يخاف مواجهة الشبهات، بل يستقبلها ليحولها إلى أدلة له. كما تبني فيه اليقين بأنه على حق، فلا يتزعزع إيمانه بكثرة المعرضين.

ثانيًا: بناء مجتمع الحجة والبيان:
مجتمع يتربى على هذا الأسلوب القرآني هو مجتمع يقوم خطابه على الإقناع العقلي لا العاطفي فقط. هو مجتمع يعرف كيف يفضح أكاذيب المبطلين بالحجة والمنطق، وكيف يحصن أبناءه من السقوط في فخ الشبهات. هو مجتمع واقعي يعرف أن فيه صالحًا وطالحًا، فيحسن إدارة موارده الدعوية.

ثالثًا: بناء حضارة العلم والمنطق:
الحضارة التي تؤمن بهذه المنهجية هي حضارة تحترم العقل، وتستعمل المنطق، وتفرق بين أصناف الناس في خطابها. هي حضارة تنهض على أكتاف دعاة مطمئنين، لا يبددون طاقاتهم النفسية في معارك خاسرة، بل يستثمرونها في بناء الصالحين والمصلحين. إنها حضارة "الهدى والشفاء"، التي تسير بالبشرية نحو النور لا نحو الظلام.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا العملي والدعوي؟

بعد هذه الرحلة في رحاب آية المنطق والعناد، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

1.افهم الحكمة من العربية: افتخر بلغة القرآن، وأتقنها، واعلم أنها أداة التحدي والبيان، وادعُ غيرك لفهمها ليذوق حلاوة القرآن.
2.لا تتفاجأ باعتراضات المعاندين: إنهم يبحثون عن أي شماعة يعلقون عليها كفرهم .اكشف تناقضاتهم بهدوء، وقل لهم بلسان الحال أو المقال: "ما تقولونه ليس إلا حجة واهية تثبتون بها عنادكم".
3.تعلم فن الافتراض العقلي: في حواراتك مع أبنائك أو زملائك أو مخالفيك، استخدم أسلوب "حتى لو افترضنا..." .إنه أسلوب قرآني معجز يفتح العقول ويدفع إلى التفكير.
4.حافظ على طاقتك النفسية: لا تحزن على عدم إيمان المعاندين، ولا تشك في نفسك أو في وضوح الحق .أنت على بينة من ربك، فاثبت وواصل طريقك بثقة.
5.اجعل القرآن شفاءك: أنت أيها المؤمن، أقبل على القرآن بقلب خالٍ من الأمراض، منتظرًا الهدى و الشفاء، فتكون من أولئك الذين زكت نفوسهم، وأشرقت أرواحهم، وامتلأت قلوبهم طمأنينة وسكينة.

يا من تسمع هذه الآية، كن من جند الحق المحاورين بالمنطق، ولا تكن من جند الباطل المعاندين. افتح قلبك للذكر، يكن لك نورًا في الدنيا، وأمنًا في الآخرة.

رابعا

فبعد أن كشفت لنا الآيات السابقة طبيعة الكفار النفسية، وآلية عنادهم، وفضح منطقهم الملتوي، تأتي هذه الآية لتربط هذا كله بجذر تاريخي عميق، وتضع أمامنا نموذجًا حيًا من قصص الرسل، ليزداد الرسول ﷺ تثبيتًا، وليزداد المؤمنون يقينًا بأن ما يواجهونه ليس بدعًا من التاريخ، بل هو سنة ماضية .تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يسوق إلينا قصة موسى عليه السلام في هذا المقام:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥﴾

إنها آية واحدة، لكنها تختزل تاريخًا كاملا ً من الصراع بين الحق والباطل .إنها تسوق إلينا قصة موسى لا للتسلية، بل لتكون شاهدًا حيًا على وحدة طبيعة الكفار، ولتوجيه النبي ﷺ والمؤمنين إلى سلاح الصبر واليقين في وجه الشك والاختلاف.

المقدمة: قصة موسى ...المرآة التي يرى فيها النبي نفسه

لماذا هذا الانتقال المفاجئ إلى قصة موسى عليه السلام؟ إنه انتقال عبقري يخدم هدفًا نفسيًا وتثبيتيًا عميقًا .فبعد أن سمع النبي ﷺ تكذيب قومه وعنادهم، أراد الله أن يطمئنه بأنه ليس وحده في هذه المعركة .إن موسى عليه السلام - وهو كليم الله وأحد أولي العزم من الرسل - قد أوتي الكتاب) التوراة (ومع ذلك ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾! إنها رسالة مباشرة للنبي ﷺ: "انظر إلى أخيك موسى، لقد جاء قومه بكتاب من عند الله، فماذا فعلوا به؟ لقد اختلفوا فيه وكذبوه وآذوه" .وهذا هو عين ما ورد في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ .إنها سلوة للنبي ﷺ، وتذكير للمؤمنين أن طريق الدعوة محفوف بالأذى، ولكن العاقبة للمتقين .وكما قال في سورة الأحقاف: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فها هو نموذج من أولي العزم يعرض عليك لتتأسى به.

الوقفة الأولى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ ...سنة الاختلاف بعد الرسل

لنقف أولا ً عند كلمة "فاختلف فيه" .ما معنى الاختلاف هنا؟ إنه ليس مجرد تنوع في الآراء والا جتهادات، بل هو اختلاف بمعنى المعارضة والتكذيب والإنكار .إنه نفس المرض الذي أصاب الأمم السابقة: أن يأتيهم الكتاب من عند الله واضحًا بينًا، فيختلفوا فيه، فريق يؤمن وفريق يكفر، فريق يقبل وفريق يعرض ويعاند.

هذا الاختلاف هو سنة إلهية بعد الرسل، وقد حذر الله منه هذه الأمة في مواضع كثيرة، منها قوله في سورة مريم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ .فالاختلا ف هنا هو الانحراف عن جادة الحق، والانشقاق عن جماعة المؤمنين، واتباع سبل الشهوات والشبهات.

والسؤال: لماذا يسوق الله هذه القصة في هذا الموضع بالذات؟
الجواب: ليثبت قلب النبي ﷺ، وليعلمه أن ما يواجهه من قومه هو نفس ما واجهه موسى من قومه . فموسى أوتي التوراة ومع ذلك اختلف فيها قومه، فلم يقبلوا منه، بل آذوه وسخروا منه .وهنا درس بليغ: إذا كان موسى - وهو كليم الله - قد لقي من قومه ما لقي، فلا تستغرب أنت أيها النبي أن يلقاك قومك بمثل ذلك .وهنا تأتي الوصية بالصبر، صبر أولي العزم، صبر من يعلم أن العاقبة له، وأن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

الدرس العملي الأول:
عندما ترى الباطل ينتفش، وعندما ترى أهل الحق يُؤذون ويُستهزأ بهم، تذكر أن هذه سنة ماضية . اقرأ قصة موسى، وتأمل كيف صبر، وكيف كان عاقبة أمره النصر والتمكين .لا تستغرب الاختلاف والا نحراف بعد الرسل، بل كن على حذر منه في نفسك وفي مجتمعك .واجعل شعارك: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

الوقفة الثانية: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ...الإمهال الإلهي وحكمته

ثم تأتي الجملة الثانية لتكشف عن سر عجيب: لماذا لم يعذب الله هؤلاء المكذبين فورًا؟ لماذا يمهلهم وهم يختلفون في كتابه ويكذبون رسله؟ الجواب: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ .والكلمة التي سبقت هي كلمة الله بإمهال العباد وتأخير العذاب إلى يوم القيامة، ليبلوهم أيهم أحسن عملا ً، وليخرج من أصلابهم من يؤمن.

إنه إمهال إلهي، وليس إهمالا ً .تأمل كم في هذه الجملة من طمأنينة للنبي ﷺ والمؤمنين! فكأن الله يقول: "لا تظن أن تكذيبهم يمر دون حساب، بل لولا كلمتنا السابقة بتأخير العذاب، لعجلنا لهم العقاب" . وهذا يعطي المؤمن ثقة بأن العدالة الإلهية آتية لا محالة، ولكن بحكمة وتوقيت إلهي دقيق.

وفيه درس للمؤمنين: لا تستعجلوا قضاء الله، فما يمهلهم إلا ليزدادوا إثمًا، أو ليتوب منهم من يتوب . إن الله حكيم في إمهاله، كما هو حكيم في عقابه.

الدرس العملي الثاني:

لا تستعجل العقاب على المكذبين، ولا يضق صدرك بإمهالهم .ثق أن الله يمهل ولا يهمل، وأن لله في إمهالهم حكمة قد تخفى عليك .تسلّ بكلمة الله التي سبقت، واطمئن إلى أن كل شيء بمقدار، وأن الحساب آتٍ في وقته المحدد .هذا الصبر هو من صفات أولي العزم، وهو الذي يحفظ طاقتك النفسية من التآكل في أتون الغضب والاستعجال.

الوقفة الثالثة: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ...تشريح جذور الداء: الشك والريبة

وهنا نصل إلى جوهر الآية، وإلى التشخيص الدقيق لحالة المكذبين .إنهم لم يكذبوا عن علم ويقين، بل ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ .تأمل معي هذا الوصف القرآني الدقيق.

ما هو الشك؟ وما هي الريبة؟
الشك هو التردد بين أمرين دون ترجيح لأحدهما .أما "مريب" فهي صفة مشتقة من الريبة، وهي الشك المصحوب بالقلق والتهمة والاضطراب .فالريبة أعظم من الشك، لأنها شك مؤذٍ مقلق، شك يدفع صاحبه إلى الاتهام والتكذيب والجحود .إنه ليس شكًا بريئًا يطلب الحقيقة، بل هو شك مريب يجعل صاحبه يتهم الحق بأنه باطل، ويتهم الصادق بأنه كاذب.

كيف يتسلل الشك إلى الأمم والمجتمعات؟
الشك لا يأتي دفعة واحدة، بل يتسلل كالسرطان .يبدأ صغيرًا: شبهة هنا، وسؤال هناك، ثم يكبر وينمو حتى يطغى على اليقين .وأول أسباب الشك: الإعراض عن الذكر، واتباع الهوى، والاغترار بالدنيا، ومصاحبة أصدقاء السوء الذين يثيرون الشبهات .فإذا أعرض الإنسان عن نور الوحي، دخل في ظلمة الشك، وإذا دخل في ظلمة الشك، أصبح فريسة سهلة للشيطان، فيفقد العلم والمدارك، ويصبح لا يفرق بين النعمة والنقمة، ولا بين العذاب والنعيم.

لماذا يكون الشك عقوبة للإعراض؟
الذي يعرض عن نور الله، يعاقبه الله بأن يتركه في ظلمة الشك .إنه عدل إلهي: لما أعرضوا عن اليقين الذي جاءهم، عوقبوا بالشك والريبة التي تأكل قلوبهم .وهذه سنة: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ .المكذب بالقرآن يعاقب بأن يضل من حيث اهتدى الناس، فيعيش في الشبهات، ويحدث له الزيغ والانحراف، لأنه رفض كتاب الله العزيز.

القرآن عزيز لا يقبل المساكنة:
وهنا نعود إلى ما سبق: القرآن كتاب عزيز، لا يقبل أن يسكن قلب من لا يحترمه، ولا يقابله بالجد و التهاب والاقتراب .إنه ليس للقلوب المستهترة المتعلقة بغير الله .هو لا يخالط الباطل، لأنه منزل من الحكيم الحميد .فمن لم يتأدب في حضرته، حُرم أنواره .هؤلاء الكفار لما جاؤوا القرآن بقلوب مشغولة بالدنيا، ونوايا مبيتة على التكذيب، لم ينتفعوا به، بل زادهم رجسًا إلى رجسهم، وشكًا إلى شكهم . وهذا يفسر لنا لماذا لا ينتفع بالقرآن إلا المؤمنون، الذين يستقبلونه بقلوب خالية من الأمراض، صالحة لاستقبال أنوار الله.

أهمية اليقين:
في مقابل الشك، يأتي اليقين .واليقين هو ثبات الحق في القلب حتى لا يبقى معه تردد .وهو ثمرة ا لإيمان الصادق، والتسليم المطلق للوحي .المؤمن بالغيب تتصل روحه بربه، فيرى الآخرة بعين البصيرة، ويشاهد أحوال المؤمنين والكافرين، فيزهد في الدنيا، ويرضى بما قسم الله له، ويعيش في طمأنينة وانسجام .قلبه خالٍ من الأمراض، مفتوح لاستقبال الأنوار، فيهديه الله إلى الصواب، ويزيل عنه الحيرة والشك والاضطراب .هذا هو اليقين الذي يجب أن نتربى عليه لننتفع بالقرآن، ولتكون لآياته وزواجره أثر في نفوسنا.

الدرس العملي الثالث:
احذر الشك والريبة! إنهما مفتاح كل شر، وسبب كل اختلاف وانحراف .اسأل نفسك: هل قلبي مستقر على اليقين، أم أن الشبهات تقلقه وتؤرقه؟ إن وجدت في نفسك شكًا، فابحث عن سببه: هل هو إعراض عن الذكر؟ هل هو اتباع للهوى؟ هل هي رفقة سوء تثير فيك الشبهات؟ بادر بعلاج الشك قبل أن يستفحل، وعد إلى نور الوحي، وجالس الصالحين، وأكثر من ذكر الله .وتذكر أن الشك المريب عقوبة للمعرضين، فاحذر أن تكون منهم.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

.1وحدة سنن الله في الأمم: ما حدث مع موسى من تكذيب واختلاف هو نفس ما يحدث مع كل نبي، وهي سنة لا تتبدل.
.2حقيقة الاختلاف المذموم: هو المعارضة والتكذيب والانحراف عن الحق، وليس مجرد تنوع الا جتهادات.
.3حكمة الإمهال الإلهي: تأخير العذاب ليس إهمالا ً، بل هو حكمة إلهية لاستيفاء الآجال وابتلاء العباد.
.4طبيعة الشك المريب: هو شك مصحوب بالقلق والاتهام والاضطراب، وهو عقوبة للمعرضين عن الحق.

الرسائل النفسية:

.1التثبيت للنبي والمؤمنين: العلم بأن ما يواجهونه هو عين ما واجهه موسى عليه السلام يمنحهم السكينة والطمأنينة.
.2الصبر على الأذى: الاقتداء بأولي العزم من الرسل في الصبر يجعل المؤمن ثابتًا لا تزعزعه رياح المحن.
.3الحذر من الريبة: استشعار خطورة الشك يدفع المؤمن للفرار منه والاستمساك باليقين.

الرسائل التربوية والعملية:

.1التربية على اليقين: بناء الإيمان على أسس راسخة تجعل القلب ثابتًا عند ورود الشبهات.
.2الحذر من رفقة السوء: تجنب أصدقاء السوء الذين يثيرون الشكوك ويزينون الشهوات.
.3التسلح بذكر الله: الذكر هو حصن المؤمن من الشيطان، وهو الذي يبقيه في يقظة دائمة من الغفلة.
.4استقبال القرآن بأدب: الإقبال على القرآن بالجد والتهاب والاحترام هو شرط الانتفاع به.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان الموقن:
هذه الآية تبني إنسانًا راسخ اليقين، لا تزعزعه الشبهات، ولا تقلقه أقاويل المبطلين .إنسان يعرف سنة الله في الصراع بين الحق والباطل، فيصبر ويصابر، متأسيا بأولي العزم من الرسل .إنه إنسان مطمئن القلب، خال من أمراض الشك والريبة، مفتوح لاستقبال أنوار القرآن وهداياته.

ثانيًا: بناء المجتمع الصابر المحتسب:
مجتمع يتربى على هذه المعاني هو مجتمع يعرف أن طريق التمكين طويل، مليء بالابتلاءات والاختلا فات .فلا ييأس عند أول محنة، ولا ينهار عند أول اختلاف .إنه مجتمع صابر، محتسب، يمضي قدمًا نحو أهدافه بثبات ووعي، مقتديًا بقادة التاريخ الإيماني العظام.

ثالثًا: بناء حضارة اليقين والعلم:
الحضارة التي تقوم على اليقين لا على الشك، هي حضارة مستقرة النفس، واضحة الرؤية .إنها لا تتخبط في ظلمات الحيرة والقلق والاضطراب، بل تسير على نور من ربها .إنها حضارة تفرق بين الحق والباطل، وبين النعمة والنقمة، وبين النور والظلام .إنها حضارة "الهدى والشفاء" التي تقدم للإ نسان المعنى والسعادة والأمان.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في واقعنا النفسي والاجتماعي؟

بعد هذه الرحلة في رحاب هذه الآية الجامعة، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

.1اقرأ التاريخ الإيماني: تعرف على قصص الأنبياء، وتأمل كيف واجهوا أقوامهم، وكيف صبروا، وكيف نصرهم الله .سترى في قصصهم سلوى لك، ودروسًا عملية لحياتك.
.2اصبر ولا تستعجل: إذا رأيت الباطل يعلو، فتذكر كلمة الله التي سبقت، واصبر كما صبر أولو العزم . ثق بأن العاقبة للتقوى، وأن النصر آتٍ في موعده.
.3احذر الشك والريبة: لا تسمح للشبهات أن تجد طريقًا إلى قلبك .أغلق أبوابها باليقين، والعلم، وذكر الله، ومصاحبة الصالحين.
.4استقبل القرآن بقلب مؤدب: لا تقرأ القرآن كأي كتاب .تأدب في حضرته، وأقبل عليه بجد واحترام

واهتمام، يكن لك هدى وشفاء.
.5ربِّ نفسك على اليقين: اليقين لا يأتي دفعة واحدة، بل هو ثمرة إيمان وعلم وصبر ومجاهدة . اطلب اليقين من الله، واسعَ في أسبابه، تكن من الموقنين الذين لا يضلون ولا يشقون.

يا من تسمع هذه الآية، كن صابرًا كأولي العزم، وموقنًا لا يشوبه شك، ومقبلا ً على كتاب الله بقلب سليم، تكن من ورثة جنة النعيم، الذين يأتون ربهم بقلب سليم، فيدخلونها بسلام آمنين.
خامسا
بعد أن عرض الله في الآيات السابقة نماذج من جحود المعرضين، وشك المكذبين، وإمهاله لهم بحكمته، تأتي هذه الآية لتضع القاعدة الكلية التي تنتظم بها كل تلك المشاهد. إنها آية العدل المطلق، والمسؤولية الفردية الحاسمة، ترفع عن النفس أوهام الظلم، وتقرر أن ملكوت الله لا يسير بالمحاباة، بل بالحق. تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يضع النقاط على الحروف في مشهد الحساب الدقيق:

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾

إنها آية جامعة تلم شتات القلوب الحائرة، وتريح النفوس المتعبة من التفكير في إنصاف الآخرين لها، وتعيد توجيه البوصلة من الانشغال بظلم الناس إلى إصلاح الذات. إنها قاعدة العدالة التي تمنح المؤمن طمأنينة، وتردع المسيء عن غفلته، وتعلن أن ميزان الله لا يميل لصالح أحد على حساب أحد.

المقدمة: حين يصمت الجميع ويتكلم الميزان

بعد جولتنا مع الملحدين في آيات الله، ومع الكافرين بالذكر، ومع المعاندين الذين يجادلون بالباطل، ومع الشاكين المريبين، يأتي دور "كلمة الفصل" التي تغلق كل الأبواب المفتوحة على الاحتمالات. بعد أن أخبرنا الله أنه يمهل ولا يهمل، يأتي ليؤكد أن الحساب آتٍ، وأنه فردي دقيق. إن هذه الآية تشبه الصيحة في ساحة المعركة: توقفوا عن تتبع أخطاء الآخرين، توقفوا عن إلقاء اللوم على الأقدار و الظروف، فكل نفس بما كسبت رهينة! إنها تعلن دستور الجزاء في الإسلام: العملة الوحيدة المتداولة يوم القيامة هي عملك أنت، لا عمل غيرك. إنها آية تحررك نفسيًا من الشعور بالظلم، لأنك تكل الأمر إلى أحكم الحاكمين، وفي الوقت نفسه تحملك كامل مسؤولية أفعالك دون أن تتعلق بأعذار واهية.

الوقفة الأولى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾... ربح لا يذهب للغير

لنقف أولًا عند هذا الشطر الأول المشرق. "من عمل صالحًا": أي عمل يندرج تحت وصف الصلاح، سواء كان خالصًا لله، موافقًا لشرعه، نافعًا للخلق. وتأمل أن الله قال "صالحًا" ولم يقل "كثيرًا"! إنه يريد النوع لا الكم، يريد الجودة الإيمانية لا العدد الأجوف.

ما معنى "فلنفسه"؟
أي فثمرة عمله ونتيجته تعود إلى نفسه، والربح مقصور عليه. إنه يقدم لنفسه زادًا، ويدخر لآخرته رصيدًا. إنها تجارة رابحة لا يمكن أن يسرقها لص، ولا أن تذهب هباءً! يا له من أمان نفسي! أنت أيها المؤمن، كل تعب تتعبه في صلاة، أو صدقة، أو كلمة طيبة، أو كف أذى، ليس لمخلوق منه شيء، بل هو وقف على نفسك في وقت أنت أحوج ما تكون فيه إلى مثقال ذرة من خير.

هذا الشطر ينفي عن المؤمن وهمَ أنه يتفضل على الله بعمله، فالله غني عن العالمين. إنما المؤمن هو الرابح الحقيقي. إنه كمن زرع شجرة ظليلة مثمرة في أرضه، هو الذي يأكل ثمرها، وهو الذي يستظل بفيئها.

التصور التقريبي:
تخيل رجلا ً يكدح طوال النهار في بناء قصر منيف. قد يظن البعض أنه يضيع وقته، ولكن عندما يحل الليل البارد الممطر، ويدخل إلى قصره الدافئ الآمن، يدرك أنه إنما كان يكدح لنفسه! هذا هو ح ال المؤمن مع عمله الصالح، هو الآن يكدح في بناء قصوره في الجنة.

الدرس العملي الأول:
لا تستكثر أي خير تعمله، ولا تفكر في أنه ذهب سدى. حتى لو لم يشكرك الناس، وحتى لو لم تر ثمرته في الدنيا، فثق تمام الثقة أن الله يدخره لك كاملا ً غير منقوص. اعمل وكأنك ترى كنز الأجر يضاف إلى رصيدك في بنك الآخرة الذي لا يفلس أبدًا. هذا الشعور يجعلك تعمل بإخلاص وهدوء، بعيدًا عن انتظار شكر البشر.

الوقفة الثانية: ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾... خسارة لا يتضرر بها أحد سواك

وبعد أن ذكر ربح المحسن، يأتي شطر الخسارة. "ومن أساء" أي ارتكب الإساءة، سواء بإضاعة حقوق الله، أو ظلم الناس، أو إفساد في الأرض. "فعليها": أي فعلى نفسه أساء، وضرر إساءته عائد إليها، ووبالها مقصور عليها.

ما الحكمة في تقديم العمل الصالح على الإساءة؟
في هذا التقديم لطيفة تربوية: إنه ترغيب قبل الترهيب. قدم ربح المحسن ليشوقك إلى الخير، ثم أردفه بخسارة المسيء ليزجرك عن الشر. إنه أسلوب قرآني يعلمنا كيف نخاطب النفوس البشرية، فنقدم لها الأمل قبل الإنذار.

"فعليها" كلمة قاسية ولكنها عادلة. إنها تقول للمسيء: "أنت الذي جنيت على نفسك، أنت الذي كتبت على نفسك العقاب بيدك، لا تلومنّ إلا نفسك!". كم من ظالم سيقف يوم القيامة مفلسًا، وقد كان يظن أنه بظلمه يسرق من حسنات المظلوم، فإذا به يمنحه حسناته! إنها خسارة حقيقية، لأنه خسر سعادة ا لأبد من أجل شهوة آنية.

التصور التقريبي:
تخيل شخصًا يحمل فأسه ليقطع شجرة عظيمة، ظانًا أنه سيبيع حطبها، ولكن الشجرة تسقط على بيته فتهدمه عليه! هكذا المسيء، يظن أنه يأكل مالا ً أو ينال شهوة، فإذا به يدمر آخرته وبيته الأ بدي في الجنة. إنه خسران مبين.

الدرس العملي الثاني:
كلما هممت بمعصية، تذكر هذه الآية. أنت لا تضر الله شيئًا، ولن تنقص ملكه مثقال ذرة. أنت فقط تقتل نفسك بيدك. أنت الذي سيحمل وزرها يوم القيامة. هذا الوعي الفردي بالمسؤولية هو أقوى رادع عن المعاصي. لا تخدع نفسك بأن "الناس يفعلونها"، فكل شاة تعلق برجلها، وكل نفس تجازى بعملها.

الوقفة الثالثة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾... الدستور الإلهي للعدالة

وبعد أن قرر مبدأ الفردية في الجزاء، فإن العقل قد يتساءل: "ولكن ماذا عن المصائب التي تصيب الأ برياء؟ وماذا عن الأرزاق المتفاوتة؟". فتأتي الخاتمة لتسد هذا الباب: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

لماذا قال "ظلام" بصيغة المبالغة؟
لأن نفي الظلم القليل يقتضي نفي الكثير من باب أولى. إنه تعالى ليس بظالم لأحد ولو مثقال ذرة، فكيف يكون ظلامًا؟! إنه يريد أن يطمئن قلبك أيها المؤمن، وأن يزيل عنك أي وسوسة بأن الله قد يقدر على أحد ظلمًا. إنه جل جلاله لو عذّب أتقى الأتقياء لكان ذلك منه عدلا ً، لأنه يتصرف في ملكه، ولكنه برحمته وبفضله حَرّم الظلم على نفسه، وجعله محرمًا بين عباده.

ما علاقة هذا باسم "العبيد"؟
إن اختيار اسم "العبيد" هنا فيه إشارة عظيمة. فالعبيد هم ملك لسيدهم، ولكن الله عز وجل مع كونه المالك المطلق، فهو ليس بظلام لعبيده. إنه سيد رحيم، مالك عادل، لا يجور في حكمه. كم من مالك من البشر يظلم مملوكه! أما ربك أيها المؤمن، فهو أكرم من كل كريم، يعطي العبد فوق ما يستحق بكثير، ولا يعاقبه إلا بما كسبت يداه.

كيف تريح هذه الآية القلوب؟
إنها تمنح المؤمن شعورين متقابلين:
الأول: السكينة والثقة في مواجهة الظلم. إذا ظلمك البشر، فلا تيأس ولا تعتقد أن الكون يسير بلا نظام. ارفع رأسك وقل: "ربي ليس بظلام للعبيد، وسيأخذ حقي لي كاملا ً". هذا يشفيك من أمراض الحقد والغضب المدمر.
الثاني: الخوف من العدالة في مواجهة التقصير. إذا قصرت أنت، فلا تظن أنك ستفلت. فالله ليس بظلام للعبيد، فلا بد أن يجازي المسيء بإساءته. إنه توازن عجيب يمنعك من اليأس من جهة، ومن ا لأمن المطلق من جهة أخرى.

الدرس العملي الثالث:

عش حياتك بهذه المعادلة الإلهية: لن يضيع خيري، ولن يفلت شر غيري. إذا حل بك الظلم، لا تشغل بـ الك بالانتقام، وكل أمرك للعدل الإلهي. وإذا رأيت ظالمًا يمضي في طريقه دون عقاب، لا تغتر، فتذكر أن الله ليس بظلام للعبيد، بل يمهل ليزداد إثمًا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. هذه العقيدة تبني فيك نفسًا مطمئنة، راضية بقضاء الله وقدره، خالية من الغل والحقد.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

.1مبدأ الفردية المطلقة: كل إنسان مسؤول عن عمله وحده، لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا ينفع أحدًا إ لا سعيه.
.2عدالة الله المطلقة: الله منزه عن الظلم، وهو أكرم من أن يظلم عباده، بل يجازي بالخير فضلا ً وبالشر عدلا ً.
.3وهم المحاباة: الآية تدمر أي تصور أن الله يحابي أحدًا على أساس النسب أو المال، فالميزان هو العمل الصالح فقط.

الرسائل النفسية:

.1الشفاء من الظلم: إسناد الأمور إلى رب ليس بظلام للعبيد يريح النفس من ضغائن الانتقام، ويمنحها طمأنينة.
.2تعزيز المسؤولية الذاتية: استشعار أن "كل شيء عليك أنت" يمنع من إلقاء اللوم على الظروف، ويحث على الإصلاح الداخلي.
.3الخوف والرجاء: الآية تولد في النفس رجاءً عظيمًا في ثواب المحسن، وخوفًا من عقاب المسيء، مما يوازن السلوك الإنساني.

الرسائل التربوية والعملية:

.1تربية الضمير الحي: اجعل هذه الآية ميزانك اليومي .قبل النوم، اسأل نفسك: ماذا عملت اليوم لنفسي؟ هل أضفت إلى رصيدي أم أنقصت منه؟
.2عدم إشغال البال بالآخرين: لا تنشغل كثيرًا بتقييم أعمال الناس، فرصيدهم يخصهم، ورصيدك يخصك .ركز على نفسك.
.3تلقين الأبناء المسؤولية: ربِّ أبناءك على أن نتيجة تصرفاتهم ستعود عليهم هم، لا على الوالدين . هذا يبني فيهم شخصية مسؤولة ومستقلة.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان المسؤول داخليًا:
هذه الآية تبني إنسانًا مراقبه الداخلي يعمل بكامل طاقته، ضميره هو رقيبه، لأنه يعلم أنه إنما يعمل لرصيده الخاص. هو إنسان لا ينتظر شكرًا ولا يخاف لومًا، يسير على بصيرة، مطمئن القلب، شجاع في مواجهة أخطائه، لأنه لا يتهرب منها بل يصلحها.

ثانيًا: بناء المجتمع المتوازن:
مجتمع يتربى على هذه الآية هو مجتمع عادل منتج. كل فرد فيه يعمل بإتقان لأنه يعمل لنفسه. تقل فيه جرائم الظلم، لأن الظالم يعلم أن إساءته سترتد عليه. وتنمو فيه مشاعر الطمأنينة، لأن المظلوم يعلم أن له ربا عادلا ً سينصفه، فلا يلجأ إلى العنف الفردي.

ثالثًا: بناء حضارة العدالة والمسؤولية:
الحضارة التي تقوم على دستور "لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" هي حضارة لا مكان فيها للمحسوبية والظلم. هي حضارة تزدهر، لأن كل فرد فيها هو مشروع بناء. إنها حضارة مَن عَمِل صالحًا رأى ثمرته في تقدمها، ومن أساء رأى وبال إساءته في تخلفها. إنها عدالة الدنيا قبل عدالة الآخرة.

الخاتمة: كيف نجعل هذه الآية ديدن حياتنا؟

بعد أن جال بنا الفكر في بستان هذه الآية العظيمة، ماذا يريد ربنا منا؟

.1اعمل وكأنك وحدك المسؤول: لا تلتفت للقاعدين، فكل واحد سيسأل عن نفسه .ركز على بناء نفسك.
.2لا تحتقر من الخير شيئًا: تذكر أن أي خير هو رصيد في حسابك أنت، فحافظ على رصيدك.
.3لا تستهن بصغيرة من الشر: فهي خسارة في حسابك أنت، وقد تكون سبب هلاكك.
.4داوِ جراح الظلم بالعدالة الإلهية: إذا ظلمك أحد، فلا تظن أن الأمر انتهى .قل: "حسبي الله، إن ربي ليس بظلام للعبيد"، ونم قرير العين.
.5كن عادلا ً مع نفسك أولا ً: حاسب نفسك قبل أن تحاسب، وضع كل عمل في كفته الصحيحة، تنجُ يوم الميزان.

يا من تسمع هذه الآية، إنها تمحو عنك عبء الظلم، وتحملك أمانة المسؤولية. فاختر لنفسك الرصيد الذي تلقى به ربك، واجعل شعارك دائمًا: "أعمل لدنياي كأني أعيش أبدًا، وأعمل لآخرتي كأني أموت غدًا". تكن من الفائزين بجنة عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين، الذين أحسنوا فاستحقوا الحسنى وزيادة.

القسم الثاني

، ففي ختام هذا المقطع العظيم من سورة فصلت، وبعد أن عرض الله مشاهد الإلحاد والعناد والاختلا ف والشك، وبعد أن أقام ميزان العدل بقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ...﴾، تأتي الآن آيتان تهزان الوجدان هزًا، وتنقلك نقلة نوعية من عالم الحساب إلى عالم الساعة، ومن غفلة الدنيا إلى يقظة الآ خرة. إنهما آيتان تضعان أمام عينيك مشهدين: مشهد علم الله المطلق الذي لا يغيب عنه شيء، ومشهد توبيخ المشركين يوم القيامة. تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يوقظ الغافلين:

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾

إنهما آيتان تسقطان كل الأقنعة، وتكشفان المصير، وتجيبان على السؤال الفاصل: هل أنت مستعد لساعة لا تعلم متى تقوم، ولواقعة لا تجد فيها وليًا ولا نصيرًا إلا الله؟

المقدمة: الامتداد الطبيعي من الشك إلى اليقين، ومن الدنيا إلى الآخرة

الآيتان الكريمتان تمثلان حلقة محكمة في سياق السورة. فبعد أن تحدث الله عن الكافرين بالذكر، و المعرضين عن الآيات، والشاكين المريبين، يأتي هنا ليخبرنا عن مآلهم، وعن "الساعة" التي سيكون فيها فصل القضاء. إنه يريد أن ينتزع من قلبك أي شك، وأن يملأه باليقين بأن الحساب آت، وأن علمه محيط بك، فلا مفر من لقائه. والغرض الأهم: أن تعيش أيها المسلم في حالة تأهب دائم، حالة حذر ورجاء معًا، حالة تدفعك للمسارعة في الخيرات قبل فوات الأوان. إنها آيتان تصرخان في وجه الغفلة: "استيقظ! قيامتك الصغرى هي موتك، وقيامتك الكبرى هي ساعتك، وكلتاهما مخفية عنك، فكن مشمرًا!".

الوقفة الأولى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾... السر المكنون الذي لا يُباح لأحد

لنقف أولًا عند هذه الحقيقة المدوية التي تفتتح بها الآية. ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. "ترد" تعني تصرف وتُسند وتوكل. فعلم الساعة مردود كله إلى الله وحده، لا يملكه أحد سواه. وهذا التعبير فيه قصر وحصر، أي لا يعلمها إلا هو. لم يُطلع الله على وقت الساعة أحدًا، لا من رسله المقربين، ولا من ملا ئكته العظام. فقد سأل جبريلُ النبيَ ﷺ متى الساعة؟ فقال له النبي: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل". فإذا كان جبريل والنبي ﷺ لا يعلمانها، فمن يدعي علمها فهو كذاب أشر.

لماذا أخفى الله علم الساعة؟
الحكمة في إخفائها هي تحقيق العبودية والاستعداد الدائم. فالإنسان إذا علم موعد الامتحان بالتحديد، ربما تكاسل ونام ثم قام قبل الامتحان بساعة ليذاكر! لكنه إذا كان جاهلا ً بموعد الامتحان تمامًا، فإنه سيظل مستعدًا ومذاكرًا خشية أن يفاجأ به في أي لحظة. وهذا هو السر: أن تعيش على وجل، أن تكون في حالة تأهب وجد واجتهاد. لا يركن المؤمن إلى الدنيا، ولا يسوّف التوبة، لأنه لا يعلم متى تقوم قيامته. فموت الإنسان هو قيامته الصغرى، فيمكن أن يحل في أي لحظة، وبالتالي فالحذر واجب، والمسارعة إلى التوبة متعينة، والتسابق إلى الصالحات هو شعار المتقين.

التصور التقريبي:
تخيل جنودًا في معركة، قائدهم أخبرهم أن الهجوم قد يبدأ في أي لحظة. إنهم لا يخلعون دروعهم، ولا يتركون أسلحتهم، ينامون بأعين مفتوحة. هذا هو حال المؤمن مع الساعة. إنه يعلم أن ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فيعيش في حذر دائم، ورجاء دائم بقبول الله أعماله. إنه يفتح طريق النجاة بالتوبة و العمل الصالح، ويرجو مع ذلك مغفرة ربه.

الدرس العملي الأول:
لا تؤجل توبة ولا تؤخر عملا ً صالحًا، فلا تدري متى تفاجأ بالأجل. عش كل يوم وكأنه آخر يوم في عمرك. اسأل نفسك كل صباح: إن متُّ اليوم، هل أنا راضٍ عن رصيدي؟ هذا الحذر الإيجابي لا يعني اليأس، بل يعني الاجتهاد المقرون بالرجاء في عفو الله وقبوله.

الوقفة الثانية: مشهد العلم الإلهي المطلق... لا شيء يخفى عليه

ثم ينتقل الخطاب الإلهي من إخفاء علم الساعة عنا، إلى إحاطة علمه بنا وبكل ما حولنا. تأمل هذه الصور الثلاث الحية:

١.﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾
انظر إلى هذه اللمسة البيانية العجيبة! "الأكمام" هي أوعية الثمرة التي تلفها وتسترها. فالثمرة داخل كمها كالجنين في بطن أمه، خفية لا تراها العيون. ومع ذلك، فإن الله يعلمها وهي في ذلك الظلام الحالك، ويعلم لحظة خروجها، وكيف تتفتق عنها أكمامها. إنها صورة مصغرة للغيب.

٢.﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾
وهنا ارتقاء إلى الإنسان. فما من أنثى تحمل جنينًا في رحمها، ولا تضع وليدها، إلا وعلم الله محيط بذلك الجنين منذ كان نطفة إلى أن يصير إنسانًا.

العلاقة بين هذه الأمثلة وعلم الله بالإنسان:
إن الغرض ليس تعداد معلومات علم الأجنة والنبات، بل الهدف هو أن تقول لنفسك: "إذا كان الله لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في جوف شجرة، أو جنين في ظلمات الرحم، فهل سأغيب أنا عنه؟ هل أعمالي الخفية، ونواياي المدفونة، وخواطري التي لم أبوح بها، يمكن أن تخفى عليه؟". كلا! إنك في قبضته، وهو يعلم ما في السر وأخفى.

الرسالة التي توجهها الآية لك:
لا تتصور أيها الغافل أنك قادر على الإفلات من الله، أو أن تخفي أعمالك السيئة عنه. إن حساب الله يستند إلى علم شامل مطلق بأحوال الناس، فالكل في قبضته. فاستشعر وجود الله، واستشعر أنه مطلع على كل ما تعمل. هذا الشعور هو الذي يردعك عن المعصية في الخلوة قبل الجلوة.

الدرس العملي الثاني:
راقب الله في سرك. إن كنت تفعل ذنبًا في الخفاء، فتذكر أن ظلمة الليل لا تحجبك عن علم الله. إنه يراك، ويعلم ما توسوس به نفسك. اجعل هذه الآية حارسًا لك في خلواتك، وفي تصوراتك وأفكارك، وفي مواقع التواصل التي تظن أن أحدًا لا يراك فيها. فالله ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الوقفة الثالثة: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِي...﴾ الانتقال إلى مشهد يوم القيامة

بعد أن أثبت علمه المطلق، ينقلك الله فجأة إلى مشهد يوم القيامة. وكأنه يقول: "بناءً على هذا العلم المحيط، سيكون هذا هو المشهد". ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِي﴾.

ما هذا الأسلوب؟ وما تأثيره النفسي؟
هو أسلوب حوار ينقلنا مباشرة إلى أرض المحشر. إنه استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع. يطلب منهم أن يحضروا من كانوا يدعونهم من دون الله: أوهامًا، وأصنامًا، وملوكًا، وأموالا ً، وأولادًا، وقادة ضلالة. هذا السؤال القرآني ليس للإخبار فقط، بل هو وسيلة تربوية عظيمة؛ إنه يأمرنا ونحن نقرؤه أن نكون حاضرين بأكمل مشاعرنا، وأن نعيش تلك اللحظات المخيفة بكامل قلوبنا. تخيل الموقف وكأنك أنت المسؤول! اسأل نفسك: ماذا سأقول لله عندما يناديني: أين شركائي الذين ارتبطت بهم، والذين قدمت رضاهم على رضا الله، والذين نافقت من أجلهم؟

الجواب المهين: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ٤٧﴾
انظر إلى جوابهم البائس! إنه إقرار واعتراف بالعجز والخذلان. "آذناك" أي أعلمناك يا رب، وأقررنا لك. "ما منا من شهيد"، أي ليس فينا اليوم أحد يشهد أن لك شريكًا. لقد تخلوا عن كل تلك المعبودات، وتبرؤوا منها، وأقروا بالوحدانية في يوم لا ينفع فيه الإقرار. إنهم لم يجدوا ما يلتجئون إليه، ولا ما يحتمون به، فوقفوا مذعنين معترفين.

الدرس العملي الثالث (وهو درس للمؤمن قبل الكافر):
يا لها من خسارة أن تهدر وقتك وجهدك بالتوسل والاستعانة بغير الله! كيف سيكون حالك عندما تلتفت يمينًا ويسارًا فلا تجدهم يقفون بجانبك، وأنت في أشد لحظات الحاجة إلى المدد والعون؟ أليست هذه هي غاية الحزن؟ بل إنك تتأكد أنك لن تفلت، ولن تستطيع الهروب من قبضة الله. إن استحضار هذا الموقف الآن، وأنت في الدنيا، هو العلاج الناجع لمرض الشك والتردد، وهو الدافع الأ قوى لتجريد التوحيد لله وحده.

الوقفة الرابعة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم... وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾... تأكد الخسران وبطلان الأمل

وأخيرًا، تأتي الخاتمة المأساوية: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾. "ضل" أي غاب واختفى وزال. فكل ما كانوا يتعلقون به ويطلبون منه العون، غاب عنهم أحوج ما كانوا إليه. ثم: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٤٨﴾.

لماذا قال "فظنوا" والمراد به اليقين؟
"الظن" في اللغة يطلق بمعنى اليقين. فهنا "فظنوا" أي تيقنوا وأيقنوا يقينًا جازمًا لا شك فيه أن لا ملجأ ولا مفر ولا مهرب لهم من عذاب جهنم. إنه نفس الاستعمال في قوله تعالى: ﴿وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، أي تيقنوا. لقد انتهى زمن الشك والتردد الذي كانوا يعيشون فيه في الدنيا، ذلك الشك المريب الذي كان يمنعهم من الإيمان. أما اليوم فقد صاروا على يقين، لكنه يقين لا ينفع، ويقين بالعذاب لا بالرحمة!

الربط بين الشك في الدنيا واليقين في الآخرة:
كثير من الناس يقولون: "نؤمن بالله وباليوم الآخر"، ثم يرتكبون المعاصي. وهذا يعود إلى حالة الشك والغفلة. فلو كان أحدهم مؤمنًا حقًا بأن هناك حسابًا وعقابًا، وأن عمله سيلحق به ثوابًا أو عقابًا، لما أقدم على الذنب. وهناك من يتصور أن الانتساب للمؤمنين أو الأنساب أو الصالحين سينفعه يوم القيامة. لكن الآية تبين أنه لا ينفع في هذا الموقف إلا العمل الصالح. فالطريق الوحيد للنجاة هو اليقين بالإيمان بالغيب، وباليوم الآخر، وبكل ما أخبر الله به عن الجنة والنار. فحوّل أيها المؤمن شكوكك إلى يقين باستحضار هذا المشهد وأنت في الدنيا، وكن كأنك ترى الآخرة بعين البصيرة.

الدرس العملي الرابع:
لا مجال للافلات! "لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه". هذا اليقين يجب أن يملأ قلبك، فيدفعك إلى الفرار من معاصيه إليه، وإلى التمسك بطاعته. تخيل نفسك وقد أحاطت بك خطاياك، ولم تجد مهربًا، ثم قرر من الآن أن تجعل طاعة الله هي مهربك الوحيد. إن الفرصة ما زالت أمامك، فتخلص من الحيرة والاضطراب، وابْنِ يقينك بمطالعة مشاهد الآخرة في القرآن.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآيتين

الرسائل الفكرية:

1. إطلاق علم الله: علمه سبحانه شامل لكل دقيق وجليل، في الماضي والحاضر والمستقبل، في الغيب والشهادة.
2. سر الساعة: إخفاء علم الساعة حكمة إلهية لاستبقاء حالة الاستعداد الدائم لدى البشر.
3. فردية الحساب: لا ينفع المرء يوم القيامة نسب أو ولي، بل ينجيه عمله الصالح وإيمانه الخالص.
4. حقيقة الشرك: كل ما يُعبد من دون الله سيتبخر يوم القيامة، وسيتبرأ منه عابدوه.

الرسائل النفسية:

1. الخوف والرجاء: إخفاء الساعة يولد حالة خوف محفزة، ومقترنة برجاء مغفرة الله وقبول العمل، فيتوازن كفتا العبادة.

.2استشعار الرقابة: التفكر في إحاطة علم الله بكل شيء يزرع الحياء والخوف من المعصية في الخلوات.
.3اليقين بالعدالة: العلم بأن الله عليم بكل عمل، وأن الحساب واقع لا محالة، يمنح القلب طمأنينة بأن الحق لا يضيع.

الرسائل التربوية والعملية:

.1المسارعة إلى التوبة: لا تؤخر التوبة بحجة أنك صغير السن أو أن رمضان قادم؛ فالموت لا يستأذن أحدًا.
.2التسابق في الصالحات: استثمر كل لحظة في عمل صالح، فإنما هو زادك ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.
.3استحضار مشاهد الآخرة: عند قراءة القرآن، تفاعل بكل جوارحك مع آيات الوعد والوعيد، وكأنك تراها رأي العين.
.4تحقيق التوحيد: نقِّ علاقتك بالله من أي شائبة شرك خفي .لا تلتجئ في شدائدك إلا إليه، ولا تتوكل إلا عليه.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان المستعد الخائف الراجي:
الآيتان تبنيان إنسانًا متيقظًا، قلبه معلق بالآخرة، لا يغتر بالدنيا وزخرفها. هو إنسان حذر لا يأمن مكر الله، ولكنه راجٍ لا ييأس من رحمته. هو إنسان يراقب الله في سره وعلانيته، فيرتقي بذلك إلى مقام الإحسان.

ثانيًا: بناء مجتمع المسؤولية والجد:
مجتمع يتربى على أن الساعة مخفية، وأن كل عمل مسجل، هو مجتمع جاد في كل شؤونه. لا يعرف التسويف والتكاسل، يسعى كل فرد فيه لبناء رصيده الأخروي، فيعمر الدنيا بالصلاح والإتقان. هو مجتمع لا يركن إلى الأوهام، ولا يعتمد على الأنساب والوسائط، بل يؤمن بقيمة العمل فقط.

ثالثًا: بناء حضارة اليقين والعمل:
الحضارة التي تقوم على يقين محاسبة الله، هي حضارة عمل وإنتاج وعدالة. يزول عنها الظلم، ويقل فيها الفساد، لأن كل فرد يعلم أن هناك يومًا تنطق فيه الجلود، وتشهد فيه الأرض، فلا مفر من الحساب. إنها حضارة تقدم للإنسان السعادة الحقيقية: سعادة الأمن من عذاب الله يوم الفزع الأكبر.

الخاتمة: كيف نعيش الآيتين في واقعنا اليومي؟

بعد هذه الرحلة في رحاب هاتين الآيتين العظيمتين، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

.1استعد لساعتك: لا تعش في غفلة .ضع خطة حياتية لآخرتك، واجعل لكل يوم نصيبًا من زاد التقوى والعمل الصالح.
.2راقب الله في كل شيء: استشعر أن الله معك، يعلم سرك ونجواك .هذا الشعور سيكون سدًا منيعًا بينك وبين المعاصي.
.3استحضر مشهد السؤال: تدرب على أن تسأل نفسك: لو ناداني الله اليوم "أين شركائي؟" ماذا سيكون جوابي؟ نقِّ إيمانك من كل شائبة تعلق بغير الله.
.4لا تلتفت لمن غرّتهم الدنيا: اعلم أنهم مهما علوا في الدنيا، سيتبرؤون من آلهتهم يوم القيامة، وسيقفون أذلاء .فلا تغبطهم، بل ارحم ضعفهم وادعهم إلى النجاة.
.5ابْنِ يقينك: اقرأ عن الجنة والنار، وعش مع مشاهد القيامة في سور القرآن، كسورة الواقعة و الحاقة والتكوير .هذا البناء الإيماني هو حصنك من الشك المريب.

يا من تسمع هذه الآيات، إنها تنادي فيك: "يا عبد الله، الموت قادم، والساعة حق، والحساب شديد، و الله لا يخفى عليه شيء. فاختر لنفسك: أتريد أن تكون ممن يأتي آمنًا يوم القيامة، أم ممن يظن أن لا ملجأ إلا إلى النار؟" فالفرصة أمامك الآن، فشمّر عن ساعد الجد، واجعل حياتك كلها لله، تكن من ا لآمنين الفائزين.
القسم الثالث
تعود الايات الى مشهد الحياه الدنيا لبيان اسباب انحراف الانسان نتيجه حرصه على الدنيا وما فيها

من ملذات واهماله لامر الاخره وما فيها من نعيم وعذاب ويترك الخير الحقيقي في الدنيا الذي يقوم باتباع منهج الله والذي لايكون الا بالعفاف والزهد عن الدنيا
ولهذا تبين لنا ايات هذا القسم طبيعه الانسان وحاجته الى التزكيه من خلال الاتى

المبحث الأول

بعد أن كشفت لنا الآيات السابقة علم الله المطلق، ومشهد الساعة الرهيب، تأتي هذه الآية لتنقلنا إلى موضوع في غاية الأهمية. إنها تكشف لنا عن طبيعة النفس البشرية، وتعيد تعريف مفاهيم الخير و الشر، والسعادة والشقاء، والنجاح والفشل. إنها آية تفكك لنا ما يسمى "بالمنطق المادي" الذي يحرك كثيرًا من الناس، وتضع بدلا ً منه "المنطق الإيماني" الذي يحقق التوازن ويمنح الطمأنينة. تأمل معي قول الله جل جلاله:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ٤٩﴾

إنها آية واحدة، لكنها ترسم بؤرة الداء في النفس البشرية، وتشخص المرض، ثم تترك لك أن تستنتج الدواء من سياق السورة كلها. إنها تصف حالة من اختلال الميزان، وتدعوك ضمنيًا إلى إعادة ضبط هذا الميزان وفق الوحي لا وفق الهوى.

المقدمة: الإنسان بين شهوة الدنيا وصدمة الابتلاء

قبل أن نغوص في مفردات الآية، لنتأمل موقعها من السورة. لقد تحدث الله عن الملحدين، وعن الكافرين بالذكر، وعن المعاندين، وعن الشاكين المريبين، ثم ذكر الساعة وعلمه المطلق، وهنا يأتي دور الكشف عن "العقلية" التي أنتجت كل هذه المواقف. ما الذي يجعل الإنسان يلحد ويكفر ويعاند ويشك ؟ أحد الأسباب الكبرى هو تصوره المغلوط عن "الخير". إنه يحرص على ما يظنه خيرًا، فإذا فاته أو أصابه ما يظنه شرًا، انهار نفسيًا. هذا الانهيار هو الذي يقوده إلى اليأس والقنوط، ثم إلى سخط القدر ، والاعتراض على حكمة الله، وأخيرًا إلى الضلال والكفر. إنها سلسلة تبدأ من تصور خاطئ للسعادة، وتنتهي في ظلمات الشقاء.

الوقفة الأولى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾... كشف طبيعة الحرص المادي

لنقف أولا ً عند هذا الشطر الأول الذي يفضح طبيعة الإنسان. "لا يسأم" أي لا يمل ولا يكل ولا يتعب. "من دعاء الخير" أي من طلب الخير وسؤاله. لكن ما هو هذا الخير الذي لا يمل الإنسان من طلبه؟ إنه - في عرف أكثر الناس - الخير المادي العاجل: المال، والصحة، والجاه، والسلطان، والملبس الفاخر، والنساء، وكل زينة الدنيا.

ما هو مفهوم الخير بمنطق الإنسان المادي؟
الإنسان المادي يختزل الخير في الأشياء المحسوسة الفانية. إنه يريد العاجلة ولا ينظر إلى الآجلة. يريد جنّة الدنيا قبل جنة الآخرة. وهذا الحرص يجعله في لهاث دائم، لا يشبع من شهواتها، كما قال النبي ﷺ: "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب".

إنه لا يدرك ما هو مفهوم النجاح الحقيقي. هل النجاح أن تملك دنيا عريضة ثم تموت وتتركها؟ أم النجاح أن تخرج من الدنيا وقد امتلأ رصيدك الأخروي؟ هذه الآية توقظك لتسأل نفسك: "ما هو الخير الذي ألهث وراءه؟".

كيف ينبغي أن نقوم بتصليح تصوراتنا للخير؟
الخير الحق هو ما ينفعك في الدار الآخرة. فالقرآن يصحح هذا المفهوم في مواضع كثيرة، فيقول: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، ويقول: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾. والموازنة عند المؤمن هي أن يسعى لدنياه سعيًا لا يضر بآخرته، وأن يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، لا غاية في ذاتها. فالمؤمن حريص على ما يفيده في آخرته، لا على مجرد متع الدنيا العاجلة.

التصور التقريبي:
تخيل طفلا ً صغيرًا يبكي ويصرخ ليعطيه أبوه قطعة حلوى، ويرفض أن يأكل طعامًا صحيًا. هذا الطفل لا يدرك أن الطعام الصحي هو الخير الحقيقي له. هذا هو حال الإنسان المادي؛ يلهث وراء "حلوى الدنيا" الزائلة، ويغفل عن "غذاء الآخرة" الباقي. إنه يريد إشباع شهوته الفورية، ولو أدى ذلك إلى مرضه وهلاكه.

الدرس العملي الأول:

راجع مفهومك اليومي للخير. عندما تسعى لشيء، اسأل نفسك: هل هذا سينفعني عند الله؟ هل هذا يزيد رصيدي الأخروي؟ لا تكن عبدًا لدعاء الخير المادي فقط، بل كن عبدًا يسأل الله حسنات الآخرة قبل حسنات الدنيا. حول شهوتك للدنيا إلى شهوة للجنة، وحبك للمال إلى حب للصدقة. هذه هي الموازنة الحقيقية.

الوقفة الثانية: ﴿وَإِن مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾... الانهيار النفسي الكامل

ثم يأتي الشطر الثاني ليصور الوجه الآخر للعملة: ﴿وَإِن مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾. "مسه الشر" أي أصابه أدنى شيء مما يكره، كالمرض أو الجوع أو الفقر أو فقدان الجاه أو أي ابتلاء. فماذا يفعل؟ يتحول في الحال من إنسان متلهف على الخير إلى إنسان "يؤوس قنوط".

ما هو اليؤوس؟ وما هو القنوط؟
• اليؤوس: صيغة مبالغة من اليأس. واليأس هو قطع الأمل والرجاء من حصول المطلوب. إنه إعلان ا لاستسلام للفشل، والاعتقاد بأن لا فرج قادم.
• القنوط: هو اليأس الشديد الذي يظهر أثره على الوجه والجوارح. فاليأس في القلب، والقنوط هو ثمرته التي تظهر على الجسد بالانكماش والعبوس والكآبة. إنه الانهيار النفسي الكامل.

لماذا يصل الإنسان إلى اليأس والقنوط؟
لأنه كان متعلقًا بالدنيا! إنه بنى سعادته على هذه الشهوات، فلما انهارت شهواته، انهارت سعادته. إنه لم يكن مؤمنًا بأن كل شيء بيد الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. إنه قاس الله بمقاييس البشر، فظن أن الابتلاء يعني غضب الله، أو أن الله لا يريد به خيرًا. وهذا هو سوء الظن بالله الذي هو من صفات الجاحدين.

ماذا يقول القرآن عن اليأس والقنوط؟
اليأس والقنوط ليسا من أخلاق المؤمنين أبدًا. يقول الله على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَا تَاْيـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ويقول عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾. فالآية هنا تصف الكفار والضالين. أما المؤمن، فإنه يعيش بين الخوف و الرجاء، ولا ييأس أبدًا من رحمة الله.

الدرس العملي الثاني:
عندما يصيبك البلاء، لا تسقط في بئر اليأس. لا تقل: "ربنا ما يريد لي خيرا!"، ولا "ما في أمل!". هذا كلام الضالين. تذكر أن الله غفور رحيم، وأن بعد العسر يسرًا. تذكر دعاءه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ووعده: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾. اليأس هو استسلام لهزيمة النفس، فلا تهزم نفسك.

الوقفة الثالثة: صيانة النفس من اليأس... كيف يبنى الإسلام الصحة النفسية؟

هذه الآية تفتح لنا بابًا عظيمًا في فهم الصحة النفسية في الإسلام.

خطورة الهزيمة النفسية وفقدان الرجاء:
عندما يفقد الإنسان الرجاء، فإنه يصبح أداة معطلة. اليأس يقتل الهمة، ويدمر الإرادة، ويجعل الإنسان ساخطًا على قدر الله، شاكيًا للناس، ضعيفًا أمام الشهوات. إنه يهوي بصاحبه إلى أمراض نفسية خطيرة: القلق، والحيرة، والاكتئاب. يصبح الإنسان أسيرًا رقيقًا لشهواته، فاقدًا للقوة والعزيمة والرجولة المعنوية. إنه يتردد، تضعف عزيمته، فيصبح شاكيًا ساخطًا ذليلا ً ضعيفًا، وهذا كله مما يُعرّضه لسخط الله.

ما هي مسببات فقدان الرجاء؟

1.الجهل بالله وبسعة رحمته وجُوده ومغفرته .فالكافر والجاهل يجهل أن الله قال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.
2.سوء الظن بالله .أن يظن أن الله لا يريد به خيرًا، أو أن الله لا يستجيب له، أو أن ذنوبه لا تُغفر.
3.الحرص على الدنيا ونسيان الآخرة .فمن جعل الدنيا همه، احترق قلبه بثلاث: هم لا ينقطع، وغم لا ينقضي، وحسرة على ما فات .وعند الابتلاء، لا يجد رصيدًا إيمانيًا يسنده، فينهار.

كيف يبني الإسلام الإنسان القوي نفسيًا؟
• باليقين بالله: والمؤمن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فيصبر ويرضى.
• بالقناعة والرضا: المؤمن يعيش بقناعة بما قسم الله له، فيزيل عنه الهموم. وهو متصل بالله، فيصبر لأنه يدرك أن هذا قضاء الله وقدره. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.
• بالتقوى: فمن يتق الله يجعل له مخرجًا من كل ضيق، ويرزقه من حيث لا يحتسب. التقوى هي مفتاح السعادة والفرج، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

الدرس العملي الثالث:
لا تشكُ الرب إلى المخلوق! عندما يصيبك ضيق، لا تذهب للناس شاكيًا ساخطًا، وكأنك تقول لهم أن الله لم يعدل معك! الذهاب إلى الناس بكاءً وشكوى هو ضعف يقيني بالله. بدلا ً من ذلك، اذهب إلى الله بالدعاء والصبر والاستغفار. اقنع بما قسم الله لك، تزل همومك. واصبر، فالله مع الصابرين. ابن نفسك قويًا بالإيمان، لا ضعيفًا باليأس.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

.1إعادة تعريف الخير: الخير الحقيقي ليس ما تراه شهواتك، بل ما يبقى لك في آخرتك.
.2طبيعة الإنسان المادي: هو في تقلب دائم بين اللهث على الدنيا، والانهيار عند البلاء.
.3الرابط بين سوء الظن واليأس: القنوط هو ثمرة الجهل بالله وسوء الظن بصفاته ووعوده.

الرسائل النفسية:

.1التحذير من الانهيار النفسي: اليأس والقنوط أخطر أعداء النفس، لأنهما يعطلانها ويقودانها للسخط.
.2خطورة هدر الطاقة النفسية: الحسرة على الماضي لا تأتي إلا بإرهاق النفوس بالهموم، وهي من عمل الشيطان.
.3قيمة الرجاء: الرجاء هو وقود النفس للسعي والعبادة؛ فبدونه تنطفئ جذوة الحياة الروحية.

الرسائل التربوية والعملية:

.1التربية على الصبر: الصبر هو الدواء الحقيقي الذي يحفظ النفس من اليأس، وهو مقام الأنبياء و الصديقين.
.2تدريب النفس على الرضا: الرضا بقضاء الله وقدره لا يعني عدم الحزن، بل يعني عدم الاعتراض الذي يجر إلى سخط الله.
.3تحويل المحن إلى منح: المؤمن يرى في البلاء فرصة للتكفير عن الذنوب ورفع الدرجات، فيصبر ويحتسب، ويرجو ثواب الله.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان الراضي القوي:
هذه الآية تبني إنسانًا قويًا، لا تكسره الدنيا، ولا تذله المصائب. هو إنسان راضٍ بقسمة الله له، قانع بعطائه. هو إنسان لا يحرص على الخير المادي الفاني، بل يتعلق بالخير الباقي. هو إنسان معافى نفسيًا، قد حماه إيمانه من أمراض اليأس والقنوط والقلق. هو إنسان "رجولي" قوي الإرادة، لا يستعبده المال والشهوة، بل هو عبد لله وحده.

ثانيًا: بناء مجتمع القناعة والسعي:
إذا بني المجتمع على هذه المعاني، فإنه يصبح مجتمعًا متوازنًا. أفراده يسعون للدنيا بإيجابية من أجل آخرتهم، لا من أجل الاستكثار الأناني. وعند الأزمات، لا تجدهم ينهارون أو يتسولون بأعراضهم، بل تراهم صابرين محتسبين، ينتظرون فرج ربهم. هذا مجتمع منتج، قوي، متماسك، لا تهزه الفتن ولا تكسره المصائب.

ثالثًا: بناء حضارة السكينة والرضا:
الحضارة الحقيقية لا تقاس بناطحات السحاب فقط، بل بصحة النفس وسكينتها. الحضارة التي تنتجها هذه القيم هي حضارة السكينة؛ حيث يشعر الإنسان فيها بالأمان النفسي مهما تقلبت به الأحوال، لأنه يستند إلى ركن شديد هو الله. إنها حضارة تنافس في الخيرات، وتصبر على المصائب، وتعلم أن

الخير الحقيقي في رضوان الله لا في زخرف الدنيا الزائل.

الخاتمة: كيف نعيش الآية لنجمع بين سعادة الدنيا والآخرة؟

بعد هذه الوقفة مع هذه الآية الكاشفة، ماذا يريد المولى سبحانه منا؟

.1صحح مفهومك للخير والنجاح: لا تحصر الخير في راتب شهري، أو سيارة، أو بيت .الخير الحق هو رضا الله والجنة .النجاح الحق هو أن تموت على الإسلام والتقوى.
.2وازن في دعائك وطلبك: اسأل الله من فضله في الدنيا، ولكن ليكن أكثر دعائك وتعلقك بالآخرة . قل: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.
.3اغرس الرجاء في قلبك: مهما بلغت ذنوبك، ومهما اشتد كربك، لا تيأس من رحمة الله .إنه القائل: "أنا عند ظن عبدي بي"، فأحسن الظن به.
.4استقبل البلاء بصبر ورضا: إذا أصابك مكروه، فقل: "الحمد لله على كل حال"، واعلم أنها فرصتك لتكفير ذنوبك ورفع درجتك .لا تسخط ولا تشكُ الخالق للمخلوق، بل ارجع إليه بالدعاء والاستغفار.
.5عش حرًا بشريعة الله: العبودية للدرهم والدينار ذل، والعبودية لله عزة .من شغلته الدنيا عن الله، عاش في جحيم الهم والغم والحسرة .أما من شغلته الآخرة، أتته الدنيا وهي راغمة، وعاش في جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

يا من تسمع هذه الآية، إنها تدعوك إلى التحرر. تحرر من عبودية المادة، وانهض إلى ملكوت الرضا و الرجاء. كن عبدًا لله، تكن حرًا من كل ما سواه، وتذق طعم السعادة الحقيقية التي لا يشوبها كدر، في الدنيا قبل الآخرة.

المبحث الثانى

بعد أن كشفت الآية السابقة عن طبيعة الإنسان المادي الذي لا يسأم من طلب العاجلة، وييأس عند مس الضراء، تأتي هذه الآية لتكشف لنا وجهًا آخر من أوجه هذا الإنسان عندما يُتخم بالنعم، وتفتح عليه الدنيا .إنها آية ترسم مشهد البطر والنكران، وتصف لنا خفايا نفس تاهت عن منهج ربها، وفقدت بوصلتها الأخلاقية) المروءة(، واستحقت بجحودها سخط الله وسوء الحساب .تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يحذرنا من هذا المصير:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٠ ﴾

إنها آية تصور رحلة إنسان من الشدة إلى النعمة، ومن الضعف إلى القوة، وكيف أنه - عند غياب المنهج الرباني - يحول هذه النعمة من سبب للشكر إلى سبب للبطر والغرور والاستكبار، فيستحق بذلك العذاب المهين.

المقدمة: حين يتحول النعيم إلى نقمة، والرحمة إلى استدراج

بعد أن عرض الله في الآية 49 نموذج الإنسان اليؤوس القنوط عند الضراء، يأتي هنا ليصور ماذا يفعل هذا الإنسان نفسه عند الرخاء .إن الآية تنتقل بنا من قاع اليأس إلى قمة البطر .إنها تواصل تشريح النفس البشرية الخالية من الإيمان الراسخ، تلك النفس التي تتقلب بين حالين: إذا افتقرت هلعت، وإذا استغنت بطرت .وهنا نرى الحالة الثانية بوضوح: بطر النعمة ونكران الجميل.

الآية تضعنا أمام حقائق ثابتة: أن خلو القلب من الزهد والقناعة يولد بطر النعمة، والبطر يؤدي إلى الغفلة عن المنعم، والغفلة توقع في مصيدة الفتن وسهام الشيطان ونباله .هذا الإنسان، بسلوكه هذا، يصبح فاقدًا للمروءة، فلا يكافئ الإحسان بالإحسان، بل يقابل إحسان الله إليه بالإساءة! وكيف تكون ا لإساءة إلى إحسان الله؟ بأن ينسب النعمة إلى نفسه وكفاءته، لا إلى فضل الله، وأن يستعمل هذه النعمة في معصيته، وألا يؤدي حقها من الشكر والطاعة.

الوقفة الأولى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ ...منطق "الأنا" ونكران الجميل

لنقف أولا ً عند أسلوب الآية الذي يبدأ بقسم مقدّر: "لئن أذقناه" ."أذقناه" تدل على أن هذه النعمة مجرد ذوق ومتعة مؤقتة، وليست قرارًا أو ملكًا دائمًا ."رحمة منا" تبين أن الأمر كله فضل من الله ومحض رحمة، وليس حقًا واجبًا للإنسان ."من بعد ضراء مسته": إنه كان قبل قليل في شدة وجوع وخوف وذل وضعف.

فكيف تعامل مع هذه النعمة؟ ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾!
يقول: "هذا لي"، أي هذا النعيم استحققته أنا، حصلت عليه بشطارتي وذكائي وعلمي وقوتي وعملي . إنه ينسب الفضل كله إلى نفسه ويطرد ذكر المنعم من ذهنه .هذه هي "الأنا" المتضخمة التي تنسى فضل الله.

ماذا يعني فقدان المروءة هنا؟
المروءة خلق إنساني رفيع يعني أن تكافئ الإحسان بالإحسان، وأن تشكر من أحسن إليك، وتحمل له جميلا ً في عنقك .هذا العبد كان يعيش في ضراء، ثم جاءته رحمة الله فأنقذته .من تمام المروءة أن يمتلئ قلبه حبًا لله وشكرًا له وطاعة لأوامره .لكن هذا الشخص فقد مروءته، فبدلا ً من أن يشكر، قابل إحسان الله بالإساءة: أساء الظن، وأساء التصرف، وأساء الأدب مع الله! استعمل نعم الله في معصيته، وتكبر بها على خلقه، ونسبها لكفاءته الشخصية.

هل هذا الشخص يعرف أنه كان في ضراء؟
نعم، إنه يعرف .ولكن سرعان ما ينسى! "من بعد ضراء مسته"، ومع ذلك يقول "هذا لي" .إنه جحود سريع، وغفلة فورية .إن غياب المنهج الرباني يجعله لا يلجأ إلى الله بالثناء والشكر والطاعة .لقد أصيب بالغفلة والإعجاب بالنفس والثقة بها.

الدرس العملي الأول:
لا تنسَ فضل الله عليك! عندما يأتيك رزق، أو تحقق نجاحًا، أو تُشفى من مرض، لا تقل: "هذا لي، بشهادتي، بخبرتي، بذكائي، بمالي، بجاهي" .بل قل: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ .هذا هو دوام النعمة .أما قول "هذا لي" فهو إعلان لزوالها، وهو من أشد أنواع فقدان المروءة مع الله.

الوقفة الثانية: الاستدراج بالرحمة ...حين يتحول النعيم إلى مصيدة

إن حالة هذا الإنسان هي عين ما يسمى في القرآن بالاستدراج .لقد أصابه الله بالغفلة والإعجاب بـ النفس، وجعله يجهل سنته تعالى في الابتلاء بالنعم .فالنعمة ليست دائمًا علامة حب ورضا، بل قد تكون استدراجًا واختبارًا .ولكن هذا المغرور يفهمها بشكل معكوس تمامًا .إنه يظن:

1.أن النعمة علامة محبة الله له ومنزلة خاصة عنده .وهذا جهل عظيم، فالله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولكن الإيمان لا يعطيه إلا لمن يحب .هذا التصور الفاسد هو نفس منطق الكفار الذين قال الله عنهم: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.
2.أن هذه النعمة لن تزول أبدًا، حتى تقوم الساعة .إنه يظن أنه في أمان دائم، ولذلك لا يوفي حق هذه النعمة، ولا يقوم بأداء واجبها، ولا يتصور أنه سيحاسب عليها.

ثمرة هذا التصور الفاسد:
بسبب هذه الأوهام، يغفل عن العمل الصالح الذي هو رصيده الحقيقي في الآخرة .إنه مثل من قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، أي أنه واثق من حصوله على الخيرات في الآخرة كما حصل عليها في الدنيا، دون عمل صالح .إنه يسعى إلى الدنيا بنعم الله، ويسعى في معصيته بها، ولا يسعى للآخرة.

التصور التقريبي:
تخيل طالبًا أعطاه أبوه مالا ً ليشتري كتب المدرسة ولوازم الدراسة، فذهب الطالب واشترى ألعاب فيديو وحلوى، ظانًا أن والده يحبه كثيرًا ولن يحاسبه، بل ربما يكافئه آخر العام .هذا الطالب واهم! هكذا حال هذا الإنسان، لقد أعطاه الله النعم ليستعين بها على طاعته، فاستعان بها على معصيته، وهو يظن أن الله لن يحاسبه!

الدرس العملي الثاني:
لا تغتر بزينة الدنيا! عندما يفتح الله عليك، اسأل نفسك دائمًا: "هل هذا تكريم أم استدراج؟" .لا تفرح بمجرد وجود النعمة، بل افرح بأن تكون عونًا لك على طاعة الله .اجعل نظرك دائمًا إلى واجب النعمة، لا إلى لذتها فقط .وتعامل مع كل نعمة على أنها اختبار، لا مكافأة نهائية.

الوقفة الثالثة: غياب الإيمان بالآخرة سبب الفساد

انظر كيف يربط بين بطر النعمة وإنكار الآخرة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ .هذا الشك في الآخرة هو

جذر المشكلة .فهو لا يعمل للآخرة لأنه لا يوقن بها، بل هو في شك منها .﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، أي أنه حتى على فرض وجود الآخرة، فهو يظن أن له عند الله الحسنى، أي الجنة والكرامة، لماذا؟! لأنه يقيس بعقله المادي الفاسد، فيظن أن غنى الدنيا دليل على غنى الآخرة.

هذا هو منطق الجاهلين، وهذا هو الوهم الذي جعله يدبر عن العمل الصالح ويسعى في معصية الله بنعمه .لقد جمع بين جريمتين: الكفر بالآخرة أو الشك فيها، والادعاء الباطل على الله بضمان الجنة بلا عمل.

الدرس العملي الثالث:
الإيمان باليوم الآخر هو حجر الزاوية في صلاح العمل .تأكد من يقينك بهذا اليوم، واستحضره دائمًا . لا تظن أن نعيم الدنيا هو "قسيمة" مسبقة لنعيم الآخرة! فالله عادل، ولن يدخل الجنة أحد بعمله، بل برحمته، وهذه الرحمة لها شروط هي الإيمان والعمل الصالح .الغني الذي لم يشكر، والفقير الذي صبر، بينهما موازين يوم القيامة.

الوقفة الرابعة: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ...الحزم الإلهي في الرد عليهم

بعد هذا المشهد الذي يصور الغرور والبطر والأماني الكاذبة، يأتي الجواب الإلهي الحاسم .إنه جواب فيه من القوة والتهديد ما يزلزل القلب ."فلننبئن" أي لنخبرنهم إخبارًا تفصيليًا يتضمن التوبيخ والتقريع، في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون.

بماذا ينبئهم؟
ينبئهم "بما عملوا" .سيريهم قبح أعمالهم، وسيظهر لهم أن المال والولد كانوا فتنة واختبارًا، وأنهم سقطوا في الامتحان سقوطًا مدويًا .سيرون بأعينهم أن ما ظنوه خيرًا هو شر ووبال عليهم.

ولماذا كان العذاب "غليظًا"؟
وصف العذاب بأنه "غليظ" فيه دلالة شديدة على أنه عذاب خالٍ تمامًا من أي مظهر من مظاهر الرحمة ."غليظ" أي ثقيل، شديد، صعب، لا راحة فيه ولا تخفيف .إنه وصف يليق بجريمتهم .فعندما أساء العبد تقديره لرحمة ربه، وظن أن النعمة دليل محبة خاصة، وأنه بمنجاة من الحساب، استحق عذابًا غليظًا ليس فيه شيء من الرحمة التي أساء فهمها واستعمالها في الدنيا .لقد جعل الله ُ رحمتَه في الدنيا سببًا لبطره، فجازاه في الآخرة بعذاب غليظ لا رحمة فيه .إنه جزاء وفاق!

التصور التقريبي:
تخيل موظفًا أعطاه مديره مكافأة استثنائية ليجتهد في مشروع معين، فأهمل الموظف المشروع وذهب في سفر ونزهة، ثم عاد آخر الشهر يطلب راتبه ومكافأته كاملة ظانًا أن المدير يحبه .ماذا سيفعل المدير؟ سيطرده من العمل ويحاسبه على التقصير! هذا هو حال هذا الكافر مع ربه، ولكنه سيكتشف الحقيقة يوم لا ينفع الندم.

الدرس العملي الرابع:
لا تغتر بإمهال الله لك! إذا كنت تعيش في نعم وتقابلها بالمعاصي، فاعلم أن الحساب قادم، وأن العذاب الغليظ ينتظر من أساء أدب العبودية .كل نعمة أنت فيها هي مسؤولية ستسأل عنها يوم القيامة .فبادر إلى التوبة، وأدِّ حق الله في نعمه، واجعل من رحمة الله في الدنيا سببًا لتنال رحمته في الآخرة، لا سببًا لعذابه الغليظ.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

1.حقيقة الاستدراج: النعمة ليست دائمًا دليل رضا؛ بل قد تكون ابتلاءً واختبارًا واستدراجًا للغافلين.
2.فقدان المروءة الإيمانية: عدم مقابلة إحسان الله بالشكر هو قمة الجحود، وهو دليل على موت الفطرة السليمة.
3.بطلان منطق "الأنا": نسبة النعمة إلى الذكاء والقوة الشخصية هو جهل بحقيقة الرزق، وهو سبب زوال النعم.
4.الترابط بين بطر النعمة وإنكار الآخرة: الإعراض عن الآخرة يؤدي حتمًا إلى سوء التصرف في الدنيا.

الرسائل النفسية:

.1التحذير من الاغترار: الآية تزرع خوفًا صحيًا من الغرور بالنفس والثقة بها، وتدعو إلى التعلق بـ المنعم لا بالنعمة.
.2التطهير من الغفلة: تذكر الآية يشفي من داء الغفلة التي تجعل الإنسان يلهث وراء الدنيا وينسى الحساب.
.3تحقيق التواضع: العلم بأن النعمة من الله وحده يكسر كبرياء النفس، ويجعلها دائمة الخضوع و الشكر.

الرسائل التربوية والعملية:

.1التربية على الشكر العملي: أداء حق النعمة يكون بالاعتراف بها، واستعمالها في طاعة المنعم، لا في معصيته.
.2محاسبة النفس في الرخاء: كما تحاسب نفسك على الصبر في البلاء، حاسبها على الشكر في النعماء، فالنعمة اختبار أصعب.
.3مراقبة الأقوال: احذر أن تقول عن أي خير أصابك: "هذا لي"، بل قل: "هذا من فضل ربي".

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان الشاكر المتواضع:
الآية تبني إنسانًا يعرف حقيقة نفسه: إنه فقير إلى الله في كل أحواله، في ضرائه وسرائه .هو إنسان ذو مروءة عالية مع ربه ومع خلقه؛ يشكر من أحسن إليه، ويعترف بالجميل، ولا يأخذه البطر عند الغنى .هو إنسان حذر من الاستدراج، يحول كل نعمة إلى وسيلة قربى إلى الله.

ثانيًا: بناء مجتمع الأخلاق والامتنان:
مجتمع يسوده منطق "هذا من فضل ربي" لا منطق "هذا لي"، هو مجتمع متكافل، تزول فيه الضغائن والحسد .لأن كل فرد يعلم أن رزقه من الله وحده، فلا يحتقر غيره لفقره، ولا يغتر بغناه .إنه مجتمع يؤدي أفراده حقوق بعضهم البعض، ويشكرون بعضهم، انطلاقًا من شكرهم لله.

ثالثًا: بناء حضارة المسؤولية والعطاء:
الحضارة التي تبنيها هذه المعاني هي حضارة تصان فيها النعم، وتستثمر في الخير، لا في الشر .إنها حضارة لا يغتر أهلها بمادياتهم عن أخلاقهم، ولا يبيعون آخرتهم بدنياهم .إنها حضارة "المروءة" التي تجعل الإنسان يشعر بجميل ربه وجميل مجتمعه عليه، فيعيش بإيجابية وأمل وعطاء.

الخاتمة: كيف نعيش الآية لنكون من الشاكرين؟

بعد أن كشفت لنا هذه الآية خفايا النفس عند غياب المنهج الرباني، نستخلص هذه الوصايا:

.1اجعل شكر الله ديدنك: كلما تذكرت نعمة، أو حققت إنجازًا، قف وقفة قصيرة وقل: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات" .لا تنسَ المنعم أبدًا.
.2احذر كلمة "هذا لي": حتى في داخلك، لا تنسب شيئًا لنفسك .ذكاؤك، صحتك، مالك، علمك ...كلها أرصدة أودعها الله عندك لتختبرك .تعامل معها بحذر المستأمن، لا بغطرسة المالك.
.3استثمر النعمة في الباقيات الصالحات: ما دام المال والجاه والوقت والصحة كلها ستفنى، فحولها إلى رصيد أخروي: أنفق، علم، انصح، ابنِ مسجدًا، دل على خير .هذا هو الذكاء الحقيقي.
.4لا تستدرج: إذا رأيت نعم الله تتوالى عليك وأنت مقصر في حق الله، فارتعِب! هذه ليست علامة رضا، بل قد تكون علامة استدراج .بادر بالتوبة والصلاة والقرآن قبل فوات الأوان.
.5عش بتوازن: لا تيأس عند الشدة فتفقد رجاءك، ولا تبطر عند النعمة فتنسى شكرك .كن مؤمنًا شاكرًا في السراء، صابرًا محتسبًا في الضراء، تكن من خاصة عباد الله.

يا من تسمع هذه الآية، إنها تنادي فيك: "يا عبدي، لا تنسني إذا أنعمت عليك .لا تجعل رحمتي سببًا في تعاستك الأبدية .لا تقل: هذا لي ...بل قل: هذا من فضل ربي، فأقبل عليك بالرضوان، وأزيدك من فضلي، وأنجيك من العذاب الغليظ" .فاختر لنفسك: منطق الشكر أم منطق البطر؟

المبحث الثالث

بعد أن رأينا في الآية السابقة مشهد البطر ونكران الجميل عند النعمة، تأتي هذه الآية لتكمل رسم

الصورة النفسية للإنسان الجاحد، ولكن من زاوية أخرى. إنها تنقلنا من رؤية الغرور الداخلي (القول: هذا لي) إلى رؤية السلوك الخارجي المتمثل في الإعراض الجسدي والنفسي عن الله عند النعمة، ثم المقابلة العجيبة بحالة أخرى عند الضر. إنها آية تفكك لنا التناقض العجيب في طبيعة الإنسان حين يغيب عنه المنهج الرباني. تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يشخص هذا الداء:

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ٥١ ﴾

إنها آية واحدة قصيرة، لكنها ترسم بورتريه كاملا ً لنفس مريضة بتقلباتها، نفس لا تستقر على حال. وكأن هذه الآية تقول لنا: "انظروا كيف يكون الإنسان بلا إيمان!". إنها دعوة لنا لنرى صورتنا في المرآة ، ونتساءل: هل هذا التقلب موجود فينا؟ أم أننا ثابتون على منهج ربنا في السراء والضراء؟

المقدمة: من وهم الاكتفاء إلى حقيقة الاضطرار

بعد أن عرضت الآية 50 منطق الإنسان عند النعمة بقوله: ﴿هَٰذَا لِي﴾، تأتي هذه الآية لتصور مظهرًا آخر من مظاهر هذا المنطق ذاته، وهو سلوك الإعراض الجسدي والنفسي. إنها ترينا كيف يترجم الباطنُ إلى ظاهر. فعندما يظن الإنسان أن النعمة باستحقاقه الشخصي، فإنه لا يكتفي بالقول، بل يتصرف بجوارحه: يعرض عن الله وعن طاعته، وينأى بجانبه متكبرًا. ثم، وفي انتقالة درامية، ترينا الآية كيف ينقلب هذا الإنسان المتكبر نفسه إلى مخلوق آخر تمامًا عند مس الضر: إنه يتحول إلى كائن ملهوف، دائم الدعاء، عريض التضرع!

إنه تناقض يكشف حقيقة واحدة: هذا القلب ليس خالصًا لله. إنه قلب يعبد الله على حرف، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾. إنه يعبد الله من أجل العطاء، لا من أجل الله. لذلك يسقط في غرور الاكتفاء عند النعمة، وفي لهفة الاضطرار عند الشدة، وكلا الحالتين تدلان على أنه لم يعرف الله حق معرفته.

الوقفة الأولى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾... الإعراض الجسدي وتكبر الحال

لنقف أولا ً عند هذا الوصف الدقيق لسلوك الإنسان عند النعمة. "أنعمنا على الإنسان" أي أغدقنا عليه بآلائنا ظاهرة وباطنة. فماذا كانت ردة فعله؟ ردتان متلازمتان: أعرض، ونأى بجانبه.

ما الفرق بين "أعرض" و"نأى بجانبه"؟
• أعرض: إعراض القلب والوجه. إنه انصراف داخلي وخارجي عن المنعم، وعن طاعته، وعن ذكره. إنه يقول بلسان حاله: "لا حاجة لي بك الآن، فقد صرت مكتفيًا".
• ونأى بجانبه: النأي هو البعد. و"بجانبه" أي بعطفه وجسده. إنه تعبير بديع يرسم حركة جسدية متكبرة! إنه ليس مجرد إعراض بالوجه، بل هو إبعاد للجسد كله، التفات بالكتف، شموخ بالأنف، تكبر في المشية. إنه يقول بجسده: "أنا كبير، وأنا غني، وأنا فوق حاجتي إليك".

لماذا يفعل الإنسان ذلك؟
للسبب نفسه الذي ذكرناه في الآية السابقة: لأنه يظن أن النعمة ملك له، وأنه استحقها بذاته. إن النعمة أثمرت في قلبه غرورًا، ونسيانًا للمنعم، وظنًا بالاستغناء. هذا هو عين قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾. إن الطغيان هنا ظهر في صورة الإعراض والنأي بالجانب.

التصور التقريبي:
تخيل طفلا ً كان جائعًا باكيًا متعلقًا بثياب أمه. أطعمته حتى شبع، ووهبته لعبة جميلة. فإذا به يترك أمه، ويذهب إلى زاوية بعيدة ليلعب بلعبته، ويدير لها ظهره، ولا يلتفت إليها! هذا هو حال هذا الإنسان مع ربه. في ضرائه كان متعلقًا، وفي نعمائه أعرض ونأى بجانبه. إنه مشهد قبيح يكشف نقص المروءة، وقلة الأدب مع المنعم.

الدرس العملي الأول:
اسأل نفسك بصدق: عندما تتحقق أمنياتك، وتأتيك النعم، كيف يكون سلوكك مع الله؟ هل تقبل على الصلاة بخشوع النعمة، أم تفتر وتتشغل؟ هل تزيد من الطاعات شكرًا، أم تقول: "سأعود إليها لاحقًا عندما أتفرغ"؟ احذر أن تكون حركات جسدك - فضلا ً عن قلبك - تدل على الإعراض والنأي بـ الجانب! اجعل النعمة سببًا في زيادة الإقبال، لا بابًا للإعراض.

الوقفة الثانية: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾... الانهيار في حضرة الحاجة

ثم تأتي الصورة المقابلة المذهلة! "إذا مسه الشر" أي أصابه أدنى ضر، كمرض، أو ضيق، أو خوف، أو فقد مال. "فذو دعاء عريض". انظر كيف انقلب من متكبر معرض إلى خاشع ذليل!

ما معنى "ذو دعاء عريض"؟
• عريض: أي واسع، طويل، كثير الإلحاح. والمعنى أنه يصبح كثير الدعاء، لا يمل ولا يكل من التضرع. إنه يرفع يديه، ويتوسل، ويسجد، ويبكي، ويرجو.

لماذا هذا التناقض؟
لأنه في حالة النعمة شعر بالاكتفاء الزائف، فظن أنه في غنى عن الله. لكنه في حالة الضر، يشعر بفقره الحقيقي، وينكشف له أن نعمه التي كان يتكل عليها لا تغني عنه شيئًا. إنه يستجدي الله لا عن حب، ولا عن إيمان بصفاته، بل عن اضطرار! إنه عاد إلى ربه لأنه عاد إلى حاجته، لا لأنه عاد إلى محبته. وهذا النوع من الدعاء، على إلحاحه وكثرته، مشوب بآفة كبرى: إنه دعاء من لا يريد تغيير نفسه، بل يريد فقط إزالة الضر. فهو كالطفل الذي لا يذكر أمه إلا عندما يخاف!

التصور التقريبي:
تخيل راكب سفينة، في عز البحر الهادئ، يقف على ظهر السفينة متكبرًا، يعرض عن ربانها ولا يستمع لتعليماته. فجأة هبت عاصفة هوجاء، وأوشكت السفينة على الغرق، فإذا به يركض مذعورًا إلى الربان، ممسكًا بثيابه، متوسلا ً إليه بصوت عريض! المشكلة ليست في توسله الآن، بل في إعراضه سابقًا. إنه يريد النجاة، لكنه لا يريد طاعة الربان بعد النجاة! وهذا هو حال هذا الإنسان مع ربه.

الدرس العملي الثاني:
لا تكن ممن لا يذكرون الله إلا في الشدائد! من السهل جدًا أن تدعو الله عندما تمرض، أو تفقد وظيفتك، أو تقع في مأزق. لكن الامتحان الحقيقي هو: هل ستدعوه بنفس الإلحاح عندما يأتيك الفرج ؟ عندما تكون في النعمة، هل تتذكر الله كما تذكره في الشدة؟ المرجو من المؤمن أن يكون "ذو دعاء عريض" في كل أحواله، لا فقط في الشر. فالأنبياء كانوا يلحون في الدعاء سراء وضراء. كن عبدًا لله في كل الحالات، لا عبدًا لحاجتك فقط.

الوقفة الثالثة: الداء الحقيقي... عدم الثبات على المنهج

الآن، بعد أن تأملنا هذين المشهدين المتقابلين، ما هو التشخيص النهائي الذي تقدمه الآية؟ إنه غياب الثبات الإيماني. هذه النفس تتقاذفها الأحوال: النعمة تدفعها إلى الإعراض والكبر، والنقمة تدفعها إلى ا لإلحاح والتضرع. لكن أين الثبات على الإيمان والتقوى والشكر في الحالين؟

هذه الآية تكشف حقيقة أن الإنسان - بدون منهج رباني يضبطه - يصبح كالريشة في مهب الريح. إنه فاقد للبوصلة؛ الشدة تجعله يلهث وراء الفرج، والنعمة تجعله يلهث وراء المزيد من الدنيا. إنه لا يستقر على عبادة ربه في وقت من الأوقات. فالقلب السليم هو الذي يكون لله في المنشط والمكره، في العسر واليسر، في المنع والعطاء. أما هذا القلب، فمتقلب، غير ثابت، عابد لهواه لا لربه.

لماذا هذا خطير؟
لأن هذا التقلب يمنع الإنسان من تحقيق الهدف الأسمى: معرفة الله وعبادته. إنه يجعل العلاقة مع الله "مصلحية" بحتة. وهذا يبطل العمل، ويفسد القلب، ويجعل الإنسان يعيش في قلق دائم: قلق الفقد في النعمة، وقلق الخوف في الشدة. إنه لا يذوق طعم الطمأنينة الإيمانية أبدًا.

الدرس العملي الثالث:
ابن ثباتك الإيماني على أساس متين هو "حب الله" لا "حب عطاء الله". اسأل الله أن يجعلك ممن يعبدونه لله، لا لأجل ما في يديه. درب نفسك على الشكر في النعماء، والصبر في الضراء، واجعل شعارك: "اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك". عندها ستثبت في كل أحوالك، فتكون غنيًا باللهِ في فقرك، وفقيرًا إليه في غناك، وهذا هو الغنى الحقيقي.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

.1تقلب الطبيعة البشرية بدون إيمان: الإنسان بلا إيمان يتأرجح بين الكبر عند النعمة، والذل عند

الشدة.
.2العلاقة بين الظاهر والباطن: "أعرض ونأى بجانبه" يبين كيف أن كفر الباطن يترجم فورًا إلى سلوك الجوارح.
.3حقيقة الدعاء العريض: ليس كل دعاء كثير دليل إيمان، بل قد يكون دليل اضطرار فقط، وهو ما يزول بزوال سببه.
.4الإيمان الثابت هو الحل: المنهج الرباني يبني شخصية متوازنة لا تهزها الأحداث، بل تتعامل مع النعمة والنقمة بتعاليم الوحي.

الرسائل النفسية:

.1تشخيص الحالة الوجدانية: الآية تساعد المؤمن على أن يراجع نفسه: هل أفرح بالنعمة فأطغى؟ هل أحزن بالنقمة فأيأس؟ أم أني ثابت؟
.2التحذير من سيكولوجية الاكتفاء الزائف: الشعور بأنك "وصلت" وأنك "في غنى" هو بداية السقوط، لأنه ينسيك أفقر ما تكون إلى الله.
.3تطهير القلب من التقلب: فهم هذه الآية يدفعك دفعًا لطلب قلب سليم مستقر، لا قلب مريض متقلب.

الرسائل التربوية والعملية:

.1تربية الجوارح على الخضوع الدائم: لا تجعل جسدك ينأى عن طاعة الله في حالة الغنى، بل ليكن خضوعه في الغنى أكثر منه في الفقر.
.2استمرارية الدعاء: لا تجعل دعاءك "عريضًا" وقت الشدة فقط، و"ضيقًا" وقت الرخاء .توسل إلى ربك دائمًا.
.3التربية على الثبات: علم أبناءك أن المؤمن الحق هو الذي يحسن التصرف في كل الظروف، لا الذي تقلبه الظروف.
دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان الثابت:
الآية تبني إنسانًا واعيًا بنفسه، يعرف أمراض القلوب (الإعراض، الكبر، النأي بالجانب) ويتجنبها. هو إنسان يملك مناعة نفسية ضد تقلبات الزمن؛ فلا يغتر برخاء، ولا ينهار ببلاء. هو إنسان صلب الإرادة، ثابت الإيمان، يعبد ربه على يقين واستقامة. إنه كالشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ثانيًا: بناء مجتمع الوفاء والثبات:
مجتمع يقوم على هذه القيم لا يعرف أفراده التقلب والانتهازية. الناس فيه أوفياء في علاقاتهم مع بعضهم، لأنهم أوفياء في علاقتهم مع ربهم. هو مجتمع يثق أفراده ببعضهم، لأن من كان ثابتًا مع الله سيكون ثابتًا مع خلقه. إنه مجتمع مستقر، لا تهزه الأزمات، ولا تبطره النعم، بل يزداد تماسكًا في الشدائد، وتواضعًا في الرخاء.

ثالثًا: بناء حضارة المبدأ لا المصلحة:
الحضارة الحقيقية لا تقوم على منطق "دعاء عريض" وقت الحاجة، ثم "نأي بالجانب" وقت الاكتفاء. هذا منطق انهزامي يقود إلى الفساد. الحضارة التي تبنيها هذه الآية هي حضارة المبدأ الثابت، و العبودية الدائمة لله. هي حضارة المتقين الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، و ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾. هذه هي الحضارة الراقية التي تنتج السعادة والأمان للبشرية.
الخاتمة: كيف نعيش الآية لنثبت على الطريق؟

بعد أن كشفت لنا هذه الآية عن التقلب المذموم، ماذا يريد الله منا؟

.1لا تكن عبدًا للمصلحة: تعبد لله لله، لا للعطاء .أحب الله لذاته، لا لنعمه .هذا الحب هو الذي سيجعلك ثابتًا في السراء والضراء.
.2راقب جسدك مع قلبك: إذا أحسست يومًا أن نعمة جعلتك تتكاسل عن الطاعة، أو تتعالى على الخلق، فاعلم أنك أصبت بـ "النأي بالجانب"، فبادر بإصلاح قلبك وجسدك قبل أن يكتب عليك الإعراض.
.3وسّع دعاءك: كما أن "دعاءك عريض" في الشدة، فليكن مثله في الرخاء .قل: "اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين"، في نعمائك وضرائك.

.4اختبر ثباتك: اسأل نفسك هذا السؤال الصعب: "هل أنا اليوم في علاقتي باللّه كما كنت البارحة عندما كنت في ضيق؟" .إن وجدتَ فتورًا، فاستغفر وعد إلى ربك، فخير لهجتنا "يا رب" في كل حال.
.5كن صاحب مبدأ: الناس تحترم صاحب المبدأ الثابت .كن كذلك مع ربك، تكن معززًا مكرمًا عنده وعند خلقه .لا تنخدع بالسراب، فالسراب يغريك بالنأي بجانبك، فإذا جئته لم تجده، لكنك ستجد اللّه أمامك .فليكن اللّه أمامك دائمًا.

يا من تسمع هذه الآية، إنها تدعوك إلى أعظم جهاد: جهاد النفس لتثبت على المنهج. فلا تكن ريشة في مهب الرياح، بل كن كالطود الشامخ، لا تزعزعه العواصف. كن عبدًا لله في أفراحك وأتراحك، تذق حلاوة الإيمان، وتستحق جوار الكريم المنان في جنات النعيم.

القسم الرابع

اولا

فبعد أن رسمت الآيات السابقة مشاهد متقلبة للنفس البشرية؛ من الإلحاد إلى العناد، ومن الشك إلى البطر، ومن الإعراض إلى التقلب، تأتي هذه الآية لتسدل الستار على هذا المقطع بأسلوب منطقي حاسم، يضع الخصم أمام مرآة نفسه، ويجبره على مواجهة احتمال الحقيقة. إنها آية سؤال، لكنه سؤال الزلزال؛ سؤال يهدم راحة الباطل، ويوقظ ضمير الغافل. تأمل معي قول اللّه جل جلاله وهو يأمر حبيبه ﷺ أن يوجّه هذا السؤال الصاعق:

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ٥٢﴾

إنها آية المنطق الإلزامي، الذي يفحم الخصم دون أن يترك له مهربًا، وهي رسالة لكل معاند أن يتخيل للحظة واحدة أنه على خطأ، وأن يراجع حساباته قبل فوات الأوان.

المقدمة: أسلوب "أرأيتم" ... حين يكون الافتراض سيف الحقيقة

بعد أن عرض اللّه في السورة كل هذه الأدلة: الآيات في الآفاق والأنفس، وكتب الوحي، وقصص الأنبياء، وكشف طبيعة البشر، يأتي الآن دور البيان الختامي لهذا المقطع. إنه ليس تهديدًا مباشرًا، بل هو استفهام عقلي يضع المشرك في زنزانة المنطق ويغلق عليه بابها. إنه السؤال الذي يهرب منه كل معاند: "وماذا لو كان الحق مع خصمي؟".

هذا الأسلوب هو "أرأيتم"، وهو في العربية للتنبيه والاستفهام التقريري، يلفت ذهن السامع بقوة، ويجعله شريكًا في الحكم. إنه يربي فينا عقلية نقدية منصفة، تفرض على نفسها أسوأ الاحتمالات وأخطرها قبل أن تصدر حكمًا.

الوقفة الأولى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾... دعوة إلى رحلة افتراضية مهولة

لنقف أولا ً عند هذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ: "قل". إنه خطاب مباشر للنبي، ولكنه موجه لأمته من بعده، وفيه تعليم لنا كيف نواجه المعاندين.

"أرأيتم": أي أخبروني، ما رأيكم؟ ما موقفكم؟ ما تفسيركم؟ إنها صيغة تحضر الذهن وتجعله في حالة ترقب.

"إن كان من عند اللّه": هذا شرط .ولم يقل: "إنه من عند اللّه" تقريرًا، بل استعمل "إن" الشرطية التي تفيد الاحتمال .وهذا منتهى الإنصاف العقلي! وكأنه ينزل إلى عقلهم ويقول لهم: "تنازلوا معي جدلا ً عن يقينكم بأنه من عند اللّه، ولنفترض أنه من عند اللّه، فما هو تقييمكم لموقفكم؟".

ما الحكمة من هذا الأسلوب الافتراضي؟
إنه يلزم الخصم من داخل منطقه هو. فالمشرك يعتقد أن القرآن ليس من عند اللّه. فيأتي القرآن ويقول له: "حسنًا، لنفترض أنك على خطأ، وأن الحق ما أقوله. في هذه الحالة، أين ستكون أنت؟". هذا الأسلوب يجبر العقل على التفكير في العواقب، ويزعزع الثقة العمياء بالباطل. إنه أسلوب من يثق في حجته كل الثقة، فيستطيع أن يلعب على أرضية الخصم.

المثال التقريبي:
تخيل صديقين اختلفا على الطريق؛ أحدهما يقول: هذا الطريق يؤدي إلى هاوية، والآخر يقول: بل إلى بحيرة جميلة. فيقول الأول للثاني: "حسنًا، لنفترض أني مخطئ وأنت المصيب، ماذا ستخسر إن مشيت معي؟ لا شيء. لكن لنفترض أني المصيب وأنت المخطئ، فماذا سيحدث لك إن سرت وحدك في

طريق الهاوية؟". هذا هو منطق الآية تمامًا.

الدرس العملي الأول:
تعلم فن الافتراض العقلي في الحوار. عندما تخالف أحدًا، لا تشهر سلاح التكفير والتجهيل فورًا. قل له: "دعنا نفترض جدلا ً أن ما تقوله صحيح، فما النتيجة؟ ولنفترض أن ما أقوله صحيح، أليس الأ جدر بك أن تحتاط لنفسك؟". هذا الأسلوب القرآني يفتح القلوب قبل العقول، ويجعل الطرف الآخر يعيد النظر في موقفه دون أن يشعر أنك تنتصر عليه.

الوقفة الثانية: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾... جريمة تتضاعف بعد وضوح الحجة

هنا نقطة محورية في الآية. لم يقل: "إن كان من عند الله ثم لم تؤمنوا به"، بل قال: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾. "ثم" تفيد التراخي الزمني، والانتقال من حال إلى حال أعظم. وكأن الفرضية تقول: "إن كان هذا القرآن من عند الله - وهذا هو الواقع - ثم بعد أن عرفتم ذلك، وبعد أن تبين لكم، كفرتم به". هذا يصف واقعهم تمامًا؛ فهم لم يكفروا عن جهل محض، بل عن علم وعناد. هذا هو الكفر الذي يستوجب أشد العقاب، لأن صاحبه عرف الحق وستره، ورآه وغطى عليه.

والسؤال المطروح هنا ليس: "من المخطئ؟" بل: "من أضل؟". أي من أشد ضلالا ً؟ من هو الأحمق حقًا؟ إنه ليس سؤالا ً عن ذات الفعل، بل عن توصيف فاعله بأقبح الصفات. إنه يلزمهم بأن يشهدوا على أنفسهم بأنهم في قمة الضلال لو كان القرآن حقًا.

الدرس العملي الثاني:
الكفر بعد المعرفة جريمة مضاعفة. احذر أن تصل إلى مرحلة يتبين لك فيها الحق ثم تعرض عنه! إلف العادة والكبر قد يجعلان الإنسان يرفض الحق وهو يراه رأي العين، مثلما رفض إبليس السجود لآ دم وهو يعلم أنه أمر ربه. اسأل الله دائمًا أن يرزقك الإذعان للحق فور معرفته، ولا تكن ممن قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

الوقفة الثالثة: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾... المشهد الأخير في ساحة الضلال

وهنا يصل السؤال إلى ذروته. "من أضل": استفهام عن الأضل، وهو اسم تفضيل. فالمعنى: لا أحد أضل وأجهل وأسوأ حالا ً ممن هو في شقاق بعيد.

ما هو الشقاق؟ وما هو البعيد؟
• الشقاق: مشتق من الشق، وهو الجانب. فالشقاق هو أن يكون كل طرف في شق غير شق الآخر، أي في عداء ومخالفة ومنازعة دائمة. إنها حالة الحرب الباردة أو الساخنة مع الحق وأهله.
• بعيد: أي بعيد عن الحق، بعيد عن الصواب، بعيد عن النجاة. وشقاقهم بعيد لأنهم لم يكتفوا بمجرد المخالفة، بل بالغوا فيها حتى أصبحوا في طرف نقيض تمامًا من الحق، لا يلتقيان أبدًا.

تأمل روعة الجمع بين "ضلال" و"شقاق بعيد":
الضلال هو فقدان الطريق، لكن الشقاق البعيد هو فقدان الطريق مع الإصرار العنيد على مخالفة أصحاب الطريق القويم. إنه وصف يجمع بين الجهل والإرادة السيئة. فكثير من الضالين يضلون عن جهل، ويسيرون في ظلام. أما هؤلاء، فقد ضلوا وهم في شقاق بعيد؛ أي أنهم اختاروا طريقًا مضادًا تمامًا لطريق الله، وجعلوا من أنفسهم جبهة معارضة للحق. هذا هو منتهى الضلال، لأنه ضلال مصحوب بالمعاندة والمحاربة لله ورسوله.

إلزام الخصم وإفحامه:
السؤال هنا لا يحتاج إلى جواب منهم، لأن الجواب معلوم بالضرورة. إنه تقرير ضمني بأنهم إن كفروا بما هو من عند الله فهم أضل الناس، وأجهل الناس، وأشقى الناس. إنه حكم يصدرونه هم على أنفسهم بمجرد أن يفكروا في الفرضية.

الدرس العملي الثالث:
تأمل خطورة أن تتحول مخالفتك للحق من مجرد ذنب إلى "شقاق". لا تجعل من نفسك خصمًا لله ورسوله! بعض الناس قد يذنب ثم يتوب، أما الشقاق فهو الإصرار والعداء. راقب قلبك عند الخلاف، هل أنت طالب للحق أم طالب للانتصار لنفسك؟ طالب الحق يرجع متى تبين له، أما طالب الانتصار فيستمر في الشقاق حتى يهلك. كن من الصنف الأول.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

.1قوة المنطق الإلزامي: الآية تعلمنا أعلى درجات الحوار، وهو إلزام الخصم بالحجة من خلال افتراض أسوأ الاحتمالات بالنسبة له.
.2التفريق بين الجهل والعناد: هناك فرق بين من يضل عن جهل، ومن يكفر بعد علم وتبين، والأخير هو الأضل وهو في شقاق بعيد.
.3الموازنة بين الاحتمالات: العاقل هو من يوازن بين احتمال الصواب واحتمال الخطأ، ويختار الطريق الذي يضمن له السلامة في أسوأ الحالتين.

الرسائل النفسية:

.1زعزعة الطمأنينة الكاذبة: هذا السؤال يهز قلب المعاند، ويدفعه دفعًا للتفكير في مغبة كفره وعناده.
.2زرع الخوف من سوء العاقبة: تصور أن يكون القرآن حقًا ثم يقابل بالكفر، يملأ النفس رهبة وخوفًا من هذا الموقف.
.3تثبيت المؤمن: المؤمن يزداد يقينًا بأنه على الحق، لأن هذا المنطق القوي لا يمكن أن يقابل إلا بالإذعان أو بالهروب.

الرسائل التربوية والعملية:

.1تدريب النفس على الإنصاف: درب نفسك - عند الخلاف - أن تفرض أنك أنت المخطئ، وابحث عن عواقب هذا الاحتمال.
.2استعمال أسلوب الافتراض في الدعوة: عندما تدعو غيرك، استخدم هذا الأسلوب القرآني الرقيق و القوي معًا.
.3مراجعة المواقف: قبل أن تصر على رأي، اسأل نفسك: إن كان هذا الأمر من عند الله، فكيف سأقف غدًا بين يديه؟

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان المنطقي المنصف:
هذه الآية تبني إنسانًا يمتلك شجاعة التفكير، إنسانًا يستطيع أن يخالف هواه، ويفرض على نفسه أسوأ الاحتمالات ليصل إلى الحقيقة. إنه إنسان منصف، لا تأخذه العزة بالإثم، بل يظل يبحث ويقارن حتى يطمئن قلبه للحق. هذا هو العقل الناضج حقًا.

ثانيًا: بناء مجتمع الحوار الراقي:
مجتمع يتربى على هذا الأسلوب هو مجتمع يحسن إدارة الخلافات، ويستخدم الحجة بدل القوة، و المنطق بدل الشتائم. إنه مجتمع لا يكفر بعضه بعضًا لمجرد الاختلاف، بل يتحاور ويتناظر بالتي هي أحسن، ويترك الباب مفتوحًا للمراجعة والرجوع إلى الحق.

ثالثًا: بناء حضارة اليقين القائم على البرهان:
الحضارة التي تقوم على الإيمان الناتج عن الاقتناع العقلي والمنطقي، هي حضارة راسخة لا تزعزعها الشبهات. إنها حضارة تعرف لماذا تؤمن، فيزداد إيمانها مع كل سؤال، ولا تخشى من أي احتمال؛ لأنها بحثت في كل الاحتمالات ووصلت إلى الحقيقة الناصعة.

الخاتمة: كيف نعيش الآية في فكرنا ومنطقنا؟

بعد هذه الرحلة مع هذا السؤال القرآني العظيم، ماذا يريد ربنا منا؟

.1استخدم عقلك: لا تسلم عقلك لأحد، ولا تتبع ما وجدت عليه آباءك دون تفكير .افحص الحقيقة، واسأل نفسك: وماذا لو كان الحق في الجانب الآخر؟
.2لا تكن في شقاق بعيد: إذا تبين لك الحق، فاقبل به فورًا، ولا تجادل بغير علم .الشقاق مهلكة، و القرب من الحق هو النجاة.
.3تخيل موقفك أمام الله: عندما تقرأ القرآن، عندما تصلي، عندما تعمل أي عمل، تخيل أن هذا الأمر من عند الله حقًا) وهو كذلك(، فكيف ستكون حالك إذا فرطت فيه؟

.4داوِ عنادك: كل إنسان لديه ذرة من العناد .عالج نفسك بأن تسأل الله أن يريك الحق حقًا ويرزقك اتباعه، والباطل باطلا ً ويرزقك اجتنابه.
.5ادعُ بالحكمة: استعمل هذا الأسلوب الرقيق في دعوة إخوانك وأبنائك وأصدقائك .لا تقل لهم: "أنتم على خطأ!"، بل قل لهم: "وماذا لو كان الحق معي؟ أليس من الحكمة أن تحتاطوا لأنفسكم؟".

يا من تسمع هذه الآية، إنها تفتح لك باب النجاة بأن تعيد النظر في كل مواقفك. إنها تجعلك تعيش بعقلية الباحث عن الحق، لا بعقلية المدافع عن الذات. كن شجاعًا في مواجهة نفسك، وتذكر دائمًا: لو كان هذا من عند الله ثم أعرضت عنه... فأين المفر؟ فاجعل الإيمان باللّٰه وكتابه هو ملاذك الوحيد، تكن من المهتدين الفائزين.

ثانيا

بعد أن طاف بنا المولى سبحانه في رحاب سورة فصلت، من مشاهد الإلحاد والعناد، إلى صور البطر والنكران، ومن التقلب بين النعماء والضراء، إلى منطق الإلزام بالحجة، يأتي ختام هذا المقطع العظيم بآية جامعة، ترسم خارطة طريق للمستقبل، وتفتح أمام العقول بابًا واسعًا من التدبر لا يغلقه موت الصحابة، بل يتجدد بتجدد الزمان. إنها آية تنسف الفهم المغشوش الذي يحصر التدين في شعائر ضيقة، وتدعو المسلمين إلى امتلاك زمام العلوم الكونية والنفسية، لتكون حجتهم على العالمين. تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يرسم هذا الأفق الرحب:

**﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾

إنها آية المنهج، وآية المستقبل، وآية الدعوة العالمية. إنها تعدنا بأن المستقبل للإيمان، وأن أدوات العلم ستكون يومًا من أقوى جنود الحق.

المقدمة: اختتام يفتح آفاقًا لا نهائية... لماذا هذه الآية هنا؟

بعد أن عرضت سورة فصلت كل هذه الجولات مع المكذبين، كان السؤال الذي قد يطرحه البعض: "وهل انتهى الأمر؟ هل هذه هي كل الحجج؟". تأتي هذه الآية لتقول: "لا، بل إن الحجج لم تنته، بل هي مستمرة ومتجددة إلى يوم القيامة". إنه ختام يربط الوحي بالكون، والقرآن المسطور بالكون المنظور، ويجعل من العلم التجريبي شاهدًا يوميًا على صدق ما أنزل الله.

هذه الآية ليست موجهة فقط لكفار قريش، بل هي خطاب للإنسانية جمعاء، وإلى المسلمين أنفسهم. إنها تكشف عن مفهوم "لغة القرآن العالمية"، فالقرآن يخاطب كل أصناف العقول، ومنهم أولئك الذين لا يقنعهم البرهان المنطقي وحده، بل يريدون الدليل المادي المشاهد. وهذا هو جوهر الإعجاز الحركي للقرآن.

الوقفة الأولى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾... وعد إلهي متجدد بالكشف العلمي

لنقف أولا ً عند هذا الوعد الإلهي العظيم: ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾. إنها السين التي تفيد الاستقبال، أي أن هناك أمورًا ستأتي في المستقبل لم ترها البشرية بعد. "سنريهم" أي سنكشف لهم ونظهر ونبين.

أين؟ في موطنين:

.1في الآفاق: وهي ما أحاط بالإنسان من أسرار الكون وعجائبه، في السماوات والأرض، في الفلك و الطبيعة والبحار والنجوم والكواكب والمجرات.
.2وفي أنفسهم: أي في داخل الإنسان ذاته، في خلق أعضائه، وفي أسرار نفسه وعقله وروحه، وفي الحمض النووي والجينات، وفي كل ما تكشفه علوم الطب وعلم النفس.

ما الغرض من هذه الرؤية؟ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾
أي ليحصل لهم اليقين التام بأن هذا القرآن هو الحق المنزل من عند الله. فكلما تقدم العلم، وازدادت الاكتشافات، كلما تجلت معاني القرآن بشكل أعمق، وأصبح الإعجاز العلمي فيه برهانًا ساطعًا لا يستطيع الملحدون إنكاره إلا مكابرة.

ماذا يعني هذا؟
إنه يعني أن الآيات المرئية (الكونية) تثبت الآيات المسموعة (القرآنية). فالكون هو الشاهد المادي

الحي. إنه يربط الوحي بالعقل التجريبي، ويجعل من العلم الحديث حليفًا للإيمان، لا خصمًا له. وهذا سر بقاء القرآن وهيمنته.

تصحيح الفهم المحزن:
هنا لا بد من وقفة جادة! كثير من المسلمين بفهم مغشوش وتصور سقيم، علقوا هذه الآية في رقاب الكفار وحدهم! قالوا: "المخاطب في (سنريهم) هم الكفار فقط، والمسلمون في غنى عن هذه الرؤية لأنهم آمنوا". هذه هي الطامة الكبرى التي سببت التخلف المعرفي في مجتمعاتنا! لقد حصروا "التدين" في الصلاة والصيام والجلوس في المسجد، وتركوا اكتشاف الآيات الكونية لغيرهم، ظنًا منهم أن هذا شأن الكفار فقط. فأصبح المسلمون يكتفون بالشعائر، بينما غيرهم يسير في الأرض وينظر في الآفاق والأنفس، فيمتلك مفاتيح العلوم والقوة والحضارة!
والحقيقة أن الآية وإن اشتملت على تهديد للكفار، إلا أن الخطاب فيها ممتد. فالله يأمرنا (نحن المؤمنين) صراحة في مواضع أخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾. إن اكتشاف هذه الآيات ليست مجرد هواية للمؤمن، بل هي من مقتضيات الإيمان ولوازمه. فكلما اكتشف المؤمن سرًا من أسرار الكون، ازداد إيمانه، وازدادت حجته أمام العالمين. نحن بحاجة إلى هذه الرؤية لنخاطب العالم بلغته التي يفهمها (لغة العلم)، ولنمتلك نحن أنفسنا اليقين الذي لا يتزعزع.

الدرس العملي الأول:
أيها المسلم، السير في الأرض واكتشاف آيات الله في الآفاق والأنفس هو فريضة كفائية وواجب حضاري. تعلم العلوم، وابحث في أسرار الخلق، واربط كل اكتشاف بالآية المناسبة له في القرآن، وسترى كيف يتحول إيمانك من تقليدي إلى يقيني، وكيف تصبح داعيًا إلى الله بلسان العصر.

الوقفة الثانية: أفعال الله نوعان... وكيف يثبت المشهود المسموع

لنقف الآن عند منهجية الآية في الاستدلال التي نحتاج لفهمها جيدًا. إن أفعال الله سبحانه تنقسم إلى نوعين يخاطب بهما عباده:

النوع الأول: آيات الله المشهودة في الكون.
وهي الحقائق المادية التي لا يختلف فيها الناس غالبًا، المؤمن والكافر؛ كطلوع الشمس، ودوران الأفلاك ، ودقة خلق الجنين، وأسرار الحمض النووي. هذه حقائق يقر الجميع بوجودها، ولا يملكون إلا أن يعترفوا بدقتها وإحكامها.

النوع الثاني: آيات الله المسموعة (الوحي / القرآن).
وهي الأخبار والتشريعات التي يتفاوت الناس في الإيمان بها وتصديقها.

ما العلاقة بينهما؟
الله جل جلاله يستدل بالنوع الأول (المشهود المتفق عليه) على صحة النوع الثاني (المسموع الذي قد يُختلف فيه). إنه يقول: "انظروا في هذا الكون الذي هو فعلي، وسترون فيه من الدقة والحكمة ما لا يمكن أن يصدر عن عبث، فإذا رأيتم ذلك فاعلموا أن كلامي كذلك؛ لأن الذي خلق هذا الكون هو الذي أنزل هذا القرآن". فالإعجاز العلمي في الكون هو مرآة الإعجاز البياني والتشريعي في القرآن. وبهذا يتكامل الدليل، فلا يبقى لمكابر حجة.

المثال التقريبي:
تخيل أنك تقدمت لوظيفة، وقدمت شهادتك الجامعية (الآيات المسموعة)، فطلب منك صاحب العمل دليلا ً على كفاءتك العملية. فقمت بأداء مهمة عملية معقدة أمامه تتقنها تمامًا (الآيات المشهودة). حينها، سيشهد لك أداؤك العملي بأن شهادتك صادقة وتستحق التوظيف. هكذا يشهد الكون المحكم أن القرآن من عند الله.

الدرس العملي الثاني:
اجعل نظرتك للكون نظرة إيمانية. لا تنظر إلى الشجرة، أو النملة، أو المجرة، أو خلية جسمك على أنها مجرد أشياء مادية صماء. بل انظر إليها على أنها "آيات الله" التي تهديك إليه وتثبت لك صحة ما أنزل. اربط بين ما تسمعه من آيات الوحي، وما تراه من آيات الكون، يتحول الكون كله إلى مسجد تتعبّد فيه.

الوقفة الثالثة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٣﴾... الشاهد الأعظم فوق كل شاهد

وبعد أن ذكرهم بإراءة الآيات في المستقبل، يختم الآية بهذا الاستفهام التقريري العظيم: "أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد". وكأنه يقول: "قبل كل هذه الآيات، وقبل كل هذه الاكتشافات، أليس الله وحده كافيًا لأنه الشاهد الأعظم؟". إنه يريد أن يرتقي بالمؤمن إلى مرتبة الاستغناء عن الشواهد كلها، والاكتفاء بشهادة الله.

ماذا تعني "شهيد" هنا؟
الشهيد هو الذي لا يغيب عنه شيء، العالم بكل شيء، الحاضر مع كل شيء. فهو شاهد على صدق النبي ﷺ، وعلى أن القرآن كلامه، وعلى كل أفعال عباده. هذا هو أصل البرهان وقاعدته الصلبة. إن ا لآيات الكونية تأتي مؤكدة ومزيدة لليقين، لكن يكفي المؤمن الحق أن يعلم أن الله هو الشاهد، فتهدأ نفسه وتطمئن.

ما علاقة هذا بفهم الآية؟
إن هذه الخاتمة لا تلغي أهمية السير في الأرض، بل تضع الأساس المتين له. تقول للمؤمن: "أساس يقينك هو الله، لكن لا تهمل آياته في الآفاق والأنفس، فهي تزيدك هدى، وهي سبيلك لإقناع غيرك، و لإظهار الحجة على العالمين". إنها توازن بين اليقين الغيبي الصرف (الاكتفاء بالله) والبرهان المادي (اكتشاف الآيات) الذي هو لغة العصر.

الدرس العملي الثالث:
ابن يقينك بالله أولا ً من خلال القرآن والعبادة. ثم انطلق إلى آفاق العلم والاكتشاف، ولتكن رحلتك العلمية عبادة تتقرب بها إلى الله، وتنوي بها إظهار الحق وخدمة الإنسانية. كن شاهدًا لهذا الدين بآيات الله في نفسك وفي الكون، وقل للعالم: "هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه".

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

.1تكامل مصادر المعرفة: الوحي والعلم التجريبي يتكاملان ولا يتعارضان، فالكون كتاب الله المنظور، والقرآن كتاب الله المسطور.
.2إعجاز القرآن المتجدد: فيه آيات لا ينقضي عجبها، يثبت الزمان صحتها جيلا ً بعد جيل، مما يجعله صالحًا لكل زمان ومكان.
.3عالمية الخطاب القرآني: القرآن يخاطب الإنسانية بلغة العقل والبرهان العلمي، لا بلغة العاطفة وحدها.
.4منهجية الاستدلال الإلهي: استخدام الحقائق المشتركة) الكون (للاستدلال على صحة الأخبار الغيبية)الوحي.(

الرسائل النفسية:

.1تعزيز اليقين: رؤية تحقيق الآيات أمام أعيننا يزيد القلب طمأنينة وإيمانًا، ويزيل الشكوك.
.2الحماس للعلم والتعلم: الآية تزرع الشغف لدراسة العلوم التجريبية، لا باعتبارها مادة دنيوية، بل باعتبارها عبادة وطريقًا لمعرفة الله.
.3الشعور بالمسؤولية: يشعر المسلم أنه مخاطب بهذه الآية، فينهض من غفلته ليسهم في مسيرة العلم والحضارة، لا أن يكون عالة على غيره.

الرسائل التربوية والعملية:

.1تربية الأبناء على التفكر والتدبر: علمهم أن يتفكروا في خلق الله؛ في السماء كيف رفعت، وفي الجبال كيف نصبت.
.2إعادة تعريف التدين: التدين الحق ليس فقط في المسجد، بل في المختبر والمصنع والمستشفى، إذا صلحت النية.
.3خطاب العالم بلسانه: للدعوة إلى الله، علينا أن نتقن لغة العصر وهي لغة العلوم والاكتشافات، لنظهر للناس أن القرآن هو الحق.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان العالم المتعبد:
الآية تبني إنسانًا يتعبد الله بالنظر في ملكوته. هو إنسان يرى في كل خلية قصة إيمان، وفي كل مجرة دليلا ً على الخالق، فهو في سعي علمي دائم، يزداد خشية ورهبة من الله كلما ازداد علمًا. إنه إنسان لا يكتفي بالإيمان الموروث، بل يحوله إلى إيمان راسخ مبني على البصيرة.

ثانيًا: بناء مجتمع النهضة العلمية:
مجتمع يتربى على هذه الآية هو مجتمع علمي بالضرورة. إنه يعرف أن قوته المادية ودعوته العالمية تمر عبر امتلاك العلوم. يخرج من عقلية "العلوم حرام" أو "العلوم شأن الكفار"، ويدخل إلى عقلية "العلوم فريضة إلهية". هذا المجتمع هو الذي سيدير أزماته بنفسه، ويعمر أرضه، ويقود البشرية.

ثالثًا: بناء حضارة الشاهد الحضاري:
الحضارة التي تنشأ من هذه الآية هي حضارة "الشاهد" على الناس. أبناؤها هم الذين يريهم الله آياته، فيكونون هم أنفسهم آية للعالمين. إنها حضارة تجمع بين الروح والمادة، والعبادة والعلم، والمسجد و المختبر. إنها الحضارة التي كانت عليها أمة الإسلام في عصور ازدهارها، والتي بفقدان هذا الفهم تخلفت عن ركب الأمم.

الخاتمة: كيف نعيش الآية لنكون أهلا ً لحمل الأمانة؟

بعد أن فتحت لنا هذه الآية آفاق المستقبل، ماذا يريد ربنا منا؟

.1غير نظرتك للكون: لا ترى شيئًا صغيرًا أو كبيرًا إلا وتذكر أن هذه "آية" من الله .اجعل نظرك نظرة متدبر باحث عن الحكمة.
.2تعلم العلم النافع: لا تكتفِ بالعلوم الشرعية، بل ادخل ميدان العلوم التجريبية والإنسانية بنية إظهار عظمة الخالق وخدمة دينك.
.3اربط كل اكتشاف علمي بآية قرآنية: اصنع دفترًا خاصًا بك، كلما قرأت اكتشافًا علميًا يخدم الإ عجاز القرآني، اربطه بالآية المناسبة، وازدد إيمانًا ويقينًا.
.4صحح مفهومك للعبادة: العمل والعلم والاكتشاف والاختراع عبادة عظيمة إذا نويت بها وجه الله .لا تحصر التدين في الشعائر فقط.
.5خاطب العالم بالعلم: عندما تدعو غير المسلمين، لا تخاطبهم فقط بالعواطف، بل قدم لهم البراهين العلمية من القرآن، وأرهم كيف أن الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، وأن هذا الكون يشهد له.

يا من تسمع هذه الآية، إنها تدعوك إلى مغادرة عصر التخلف الفكري، وإلى الانطلاق في فضاء العلم و الإيمان. كن وارثًا للأنبياء بحق (العلماء)، وكن شاهدًا لله في أرضه، لترى بنفسك عظيم آياته، وليتبين لك أنه الحق، فتعيش في الدنيا ببصيرة، وتلقى الله وهو راضٍ عنك.

المبحث الثالث

هذه هي الآية الأخيرة في سورة فصلت، الخاتمة التي تختم بها السورة كل معانيها، وتجمع كل خيوطها، وتضع أمامنا الحقيقة النهائية التي انكشفت بعد رحلتنا الطويلة مع الملحدين والمعاندين و المكذبين. إنها الآية التي تكشف الستار عن العلة الحقيقية الكامنة وراء كل ذلك العناد والإعراض، وتقرر الحقيقة الكبرى التي تريح قلب المؤمن، وتقض مضجع الكافر. تأمل معي قول الله جل جلاله وهو يختم هذا المقطع العظيم:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ٥٤ ﴾

إنها آية جامعة مانعة، تبدأ بأداة التنبيه "ألا" التي تطرق سمع الغافل، وتنتهي بحقيقة إحاطة الله بكل شيء التي لا مفر منها. إنها تشرح سبب المرض (المرية والشك في لقاء الله) وتذكر بالدواء (اليقين بأن الله محيط بكل شيء).
المقدمة: الخاتمة التي تجمع الشتات... من تشخيص الداء إلى وصف الدواء

بعد تلك الرحلة الإيمانية العميقة في سورة فصلت، وبعد أن عرض الله علينا مشاهد الإلحاد والعناد، و البطر والنكران، والتقلب بين النعماء والضراء، وبعد أن فتح لنا آفاق التدبر في الآيات المسموعة و المرئية، تأتي هذه الآية الخاتمة لتضع إصبعها على أصل الداء كله. لقد تساءلنا كثيرًا: لماذا يكفر هؤلاء ويلحدون ويعاندون؟ لماذا لا تنفع فيهم كل هذه الأدلة؟ ها هو الجواب الشافي: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾.

إنها علة واحدة تتفرع عنها كل العلل: الشك في لقاء الله، الشك في يوم الحساب. هذا الشك هو الذي أفسد قلوبهم، وأعمى أبصارهم، وجعلهم لا ينتفعون بآيات الله. إنهم لا ينظرون إلى الأدلة بعين المنصف الباحث عن الحق، بل بعين الشاك المتردد الذي أسلم قلبه للشيطان. ولهذا، حتى لو رأوا كل آية، لما آمنوا، لأن المشكلة ليست في قوة الدليل، بل في صحة القلب المستقبل للدليل.

ثم تأتي الخاتمة الأعم: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾. إنها تذكير بأن هذا الشك وهذه الريبة لا تخفى على الله، وأنه محيط بهم وبأعمالهم وبأفكارهم، وسيجازيهم عليها. إنها آية تجمع بين التحذير و التطمين؛ تحذر الكافر من عاقبة شكه، وتطمئن المؤمن بأن ربه محيط بكل شيء، فلا يضيع عنده عمل عامل.

الوقفة الأولى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾... تشريح أصل الداء

لنقف أوّلًا عند هذه الفاتحة القوية: "ألا". إنها أداة تنبيه واستفتاح، تأتي في القرآن لشد انتباه السامع إلى أمر عظيم سيُلقى إليه. فكأن الله ينادي فينا: "انتبهوا! اسمعوا! هذا هو الخبر اليقين!".

ما هي "المرية"؟ ولماذا سماهم بهذا الاسم؟
المرية في اللغة هي الشك والتردد، ولكنها ليست مجرد شك عابر، بل هي شك متأصل، شك مصحوب بجدال ولجاج وخصومة. إنه شك يدفع صاحبه إلى المماراة والمجادلة بالباطل، وليس شكًا بريئًا يطلب الحقيقة. إنه الشك الذي يغلق باب اليقين، ويجعل صاحبه يعيش في قلق دائم واضطراب وحيرة.

ما هو "لقاء ربهم" الذي هم في مرية منه؟
إنه لقاء الله يوم القيامة، وما يتبعه من حساب وجزاء وجنة ونار. وهذا هو أصل الإيمان وأساسه. فمن شك في لقاء الله، شك في كل ما يترتب عليه؛ شك في الجنة والنار، شك في الحساب والعقاب، شك في جدوى العمل الصالح وخطورة المعصية. ومن هنا تبدأ كل الانحرافات!

كيف تفسر هذه الآية كل ما سبق في السورة؟
انظر إلى الوراء، وتذكر كل ما مررنا به:

· هؤلاء الملحدون الذين يلحدون في آيات الله ولا يخفون عليه ...لماذا فعلوا ذلك؟ لأنهم في مرية من لقاء ربهم! لو تيقنوا أنهم سيلقونه، لخافوا من الإلحاد في آياته.
· هؤلاء الذين لا يسأمون من دعاء الخير المادي، وإذا مسهم الشر يئسوا وقنطوا ...لماذا؟ لأنهم في مرية من لقاء ربهم! لو تيقنوا أن هناك دارًا أخرى للحساب، لصبروا على البلاء، ولطلبوا الخير الحقيقي الباقي.
· هؤلاء الذين إذا أنعمنا عليهم أعرضوا ونأوا بجانبهم، وإذا مسهم الشر فذو دعاء عريض ...لماذا؟ لأنهم في مرية من لقاء ربهم! لو تيقنوا أنه سيسألهم عن النعيم، لما بطروا، ولما أعرضوا.

إذن، المرية في لقاء الله هي أم الداء، وهي الجذر الذي تنبثق منه كل فروع المعاصي والضلالات. إنها ليست مجرد خطأ فكري، بل هي كارثة قلبية وروحية. إنها تجعل الإنسان يعيش لدنياه فقط، ولا يبالي بعواقب أفعاله.

المثال التقريبي:
تخيل طالبًا في قاعة امتحان، وهذا الطالب في شك ومرية من وجود مراقب، بل هو في مرية من أن أوراق الامتحان ستصحح أصلًا! كيف سيتصرف هذا الطالب؟ إنه سيلعب، سيغش، سيكتب أي كلام، لن يجتهد في الحل. بينما الطالب المتيقن أن المراقب يراه، وأن المصحح سيدقق في كل إجابة، سيكون في غاية الجد والاجتهاد والحذر. هذا هو حال من هو في مرية من لقاء ربه، مقارنةً بحال المؤمن المتيقن.

الدرس العملي الأول:
ابحث في قلبك عن أثر هذه "المرية"! هل تجد في نفسك ترددًا أو شكًا في لقاء الله واليوم الآخر؟ أصلح هذا الخلل أولا ً، فهو أساس كل صلاح. اسأل الله أن يرزقك اليقين الحق، اليقين الذي يجعل الآخرة أحب إليك من الدنيا، والذي يجعلك ترى الجنة والنار كأنهما أمام عينيك. كلما قوي يقينك بلقاء الله، كلما سهلت عليك الطاعات، وهانت عليك المصائب.

الوقفة الثانية: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾... الحقيقة العظمى المانحة للسكينة

ثم تأتي الخاتمة الثانية، المؤكدة بأداة التنبيه مرة أخرى: "ألا". فكأن السورة تختم بنداءين متتاليين: "انتبه للأولى! وانتبه للثانية!".

"إنه بكل شيء محيط"
ما أروعها من عبارة! "محيط" اسم فاعل من أحاط، وهو أبلغ من "عالم"، لأنه يتضمن العلم مع القدرة والسيطرة التامة. فالله ليس فقط عالمًا بهم وبأعمالهم، بل هو محيط بهم من كل جانب، لا يمكنهم الهروب من قبضته، ولا الخروج عن إرادته وملكه.

ما علاقة هذه الخاتمة بما قبلها؟
لقد ذكرهم في الآية السابقة (٥٣) أنه سيريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم. وهنا يخبرهم أنه مع كل هذه الآيات التي سيراها البشر، يبقى هو وحده المحيط بكل شيء. فلماذا يطلبون آية أخرى؟ ولماذا هم في شك ومرية؟ ألا يكفيهم أنه سبحانه الشاهد على كل شيء، المحيط بكل شيء؟

وفيه معنى آخر: إنه محيط بهؤلاء الشاكين الممترين أنفسهم! هو يعلم مريتهم، ويعلم شكهم، ويعلم ما يخفونه في صدورهم، وسيحاسبهم عليه. فلا يظنوا أن شكهم هذا يمر دون حساب. إنها تحذير شديد في صورة تطمين للمؤمنين.

أثر هذه الخاتمة على قلب المؤمن:
هذه الخاتمة هي راحة نفسية عظمى للمؤمن. فالمؤمن الذي يرى تكالب الأعداء على الحق، وانتشار الشكوك والمرية بين الناس، قد يصيبه ضيق وهم. فتأتي هذه الآية لتقول له: "اهدأ، واطمئن! ربك محيط بكل شيء. هو يعلم كيد الكائدين، وهو يعلم ضعفك، وهو محيط بأعدائك. فثق به، وتوكل عليه". إنها تمنح المؤمن سكينة وسط العاصفة، ويقينًا في وسط أمواج الشك.

الدرس العملي الثاني:
أنزل هذه الآية على واقعك! عندما تشعر أن الباطل ينتصر، وأن أهله يمكرون ويدبرون، قل لنفسك: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾. الله محيط بهم، لن يفلتوا منه. وعندما تخاف من المستقبل، وتجهل ما تخبئه لك الأيام، قل: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾. الله محيط بالمستقبل، وهو يدبره لك بلطفه وحكمته. هذه العقيدة تنفي القلق من حياتك، وتزرع مكانه طمأنينة عجيبة.

الرسائل الفكرية والنفسية والتربوية من الآية

الرسائل الفكرية:

1. وحدة علة الضلال: الآية تجمع كل ألوان الضلال التي وردت في السورة في علة واحدة: وهي المرية في لقاء الله .وهذا يبين أن الإيمان باليوم الآخر هو المحك.
2. خطورة الشك: الشك ليس أمرًا هيّنًا، بل هو داء مهلك إذا استقر في القلب، يؤدي بصاحبه إلى كل أنواع الانحرافات الفكرية والسلوكية.
3. الإحاطة الإلهية: علم الله ليس مجرد علم نظري، بل هو علم مع قدرة وسيطرة وإحاطة تامة.

الرسائل النفسية:

1. الدعوة إلى مراجعة الذات: الآية تدعو كل إنسان إلى فحص قلبه والتأكد من سلامته من مرض المرية والشك في لقاء الله.
2. الطمأنينة في كنف الله: الإيمان بإحاطة الله يمنح المؤمن سكينة نفسية وأمانًا روحيًا في مواجهة كل المجهول والمخاوف.
3. التخلص من القلق الوجودي: اليقين بلقاء الله والإحاطة الإلهية يجيبان على أكبر أسئلة الإنسان الوجودية، فيمنحانه استقرارًا نفسيًا عميقًا.

الرسائل التربوية والعملية:

1. التربية على اليقين بالآخرة: يجب أن يكون غرس الإيمان باليوم الآخر في نفوس الناشئة أولوية تربوية، فهو الحصن ضد كل انحراف.
2. بناء التعامل مع الأزمات على أساس الإحاطة الإلهية: في أوقات الأزمات، يعلم المؤمن أن الله محيط بالأزمة، فيلجأ إليه وحده.

.3مراقبة الله المستمرة: استشعار أن الله محيط بكل شيء يراقبك، يدفعك للإحسان في العمل واجتناب المعاصي في الخلوة والجلوة.

دور هذه المفاهيم في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة

أولا ً: بناء الإنسان المتيقن الآمن:
الآية تبني إنسانًا متيقنًا بلقاء ربه، وهذا اليقين هو عماد شخصيته. هو إنسان لا تعبث به الشكوك، ولا ترهبه الأوهام، ولا تخيفه تقلبات الأيام، لأنه قد ألقى بمستقبله كله بين يدي من هو محيط بكل شيء. إنه إنسان حر من عبودية الدنيا، غني بالله عن كل ما سواه.

ثانيًا: بناء مجتمع الجد والمسؤولية:
مجتمع يؤمن أفراده بأنهم سيلقون ربهم، وأن الله محيط بكل أعمالهم... هذا مجتمع يسوده الجد و المسؤولية. الكل يعمل بإتقان وإخلاص، ليس خوفًا من رقيب بشري، بل خوفًا من الله المحيط بكل شيء ورجاءً في لقائه. تقل فيه الجرائم، ويزداد فيه الإنتاج، ويعم فيه الأمان.

ثالثًا: بناء حضارة اليقين والقوة:
الحضارة التي تبنيها هذه الآية هي حضارة اليقين التي لا تهزها رياح الشكوك والإلحاد. هي حضارة تنظر إلى العلم على أنه كشف لأسرار إحاطة الله الشاملة، فلا تصطدم علومها بإيمانها، بل يتكاملان في بناء صرح حضاري شامخ. إنها الحضارة التي قال الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.
الخاتمة: كيف نعيش هذه الخاتمة العظيمة؟

بعد أن أنهينا هذه الرحلة المباركة مع سورة فصلت، وهذه الآية هي مسك الختام، ماذا يريد ربنا منا؟

.1تعاهد يقينك: لا تترك قلبك فريسة للشكوك .تعاهد إيمانك بلقاء الله يوميًا .تخيل ذلك الموقف، واسأل نفسك: ماذا أعددت له؟
.2اخلع رداء المرية: إذا وجدت في نفسك ترددًا أو شكًا في أي حقيقة من حقائق الإيمان، فبادر بطلب العلم واسأل أهل الذكر، ولا تترك الشيطان يبني على هذا الشك حتى يصير مرية وجدالا ً ب الباطل.
.3استشعر الإحاطة الإلهية: في كل صباح، قل لنفسك: "أنا اليوم تحت نظر الله، وهو محيط بي وبعملي" .سترى كيف يتغير تعاملك مع كل شيء.
.4عش آمنا مطمئنا: لا تخف من قلة الحيلة، ولا من مكر الأعداء، ولا من غدر الأيام .ربك محيط بكل شيء، وقد تكفل بك .فكن عبدًا مطمئنًا لوعد ربه.
.5اجعل لقاء الله غايتك: كما أن الخوف من الشك في لقاء الله يصلح القلب، كذلك الرجاء والشوق إلى لقاء الله .أحب لقاء الله، يحب الله لقاءك.

بسم الله الرحمن الرحيم
مراجع سورة فصلت
إليك المراجع مصنفة حسب العلوم التي استند إليها التحليل:

أولا ً: المصادر التفسيرية التراثية واللغوية والبلاغية:

.1"جامع البيان عن تأويل آي القرآن" - الإمام الطبري) ت:310 ه-(: المصدر الأم لفهم أقوال السلف في التفسير، وقد تم الاعتماد عليه في تفسير الألفاظ والتراكيب الأساسية، مثل تفسير "حم"، "تنزيل"، "فصلت آياته"، و"أعرض أكثرهم"، وقصة عاد وثمود.
.2"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" - الزمخشري) ت:538 ه-(: مرجع أساسي في البلاغة القرآنية، وقد تمت الإفادة منه في تحليل النكات البلاغية مثل:
· سر استخدام "تنزيلٌ") مصدر (بدل الفعل للمبالغة.
· دلالات التقديم والتأخير.
· بلاغة الاستفهام في: -{أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ...}- و-{أَوَلَمْ يَرَوْاْ...}-.
.3"مفاتيح الغيب") التفسير الكبير (- الفخر الرازي) ت:606 ه-(: مصدر غني بالاستدلالات العقلية و الفلسفية والكلامية، وقد استفدت منه في تحليل العلاقة بين الحروف المقطعة وعجز البشر، والاستدلا ل بالآيات الكونية على وجود الله ووحدانيته) الاستدلال بالخلق على الخالق.(
.4"تفسير القرآن العظيم" - ابن كثير) ت:774 ه-(: المرجع الأمين في التفسير بالمأثور، والاستشهاد بالآ يات والأحاديث .وقد استند إليه التحليل في قصة عاد وثمود، وتفسير "صاعقة"، وبيان معنى "الويل"، وتفسير آيات الحشر.
.5"التحرير والتنوير" - الطاهر بن عاشور) ت:1973 م(: من أهم المراجع التي تجمع بين دقة التفسير اللغوي والبلاغي ومقاصد الشريعة .وقد أفدت منه بشكل كبير في:
· تحليل "تنزيل من الرحمن الرحيم" ومقصد إظهار رحمة الله في التشريع.
· فهم معنى "تفصيل الآيات" كمقصد قرآني عظيم.
· دلالات الألفاظ مثل "نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ" وربطها باسمي "الغفور" و"الرحيم".
.6"في ظلال القرآن" - سيد قطب) ت:1966 م(: المصدر الأهم في التحليل النفسي والتربوي والمشاهد التصويرية الحية .وقد استلهمت منه أسلوب إبراز "الظلال" التربوية للآيات، والغوص في المشاهد الوجدانية كيوم القيامة، وتحليل موقف الكفار من القرآن على أنه حرب على النور.

ثانياً: مصادر أصول الفقه ومقاصد الشريعة:

لفهم كليات الدين ومنهج الاستدلال، تم الاعتماد على:

.1"الموافقات في أصول الشريعة" - الإمام الشاطبي) ت:790 ه-(: وهو الأساس في فهم مقاصد القرآن الكلية .فكرة أن القرآن نزل لهداية الناس إلى السعادة في الدارين، وربط الأحكام بالمقاصد، مستمدة من هذا الكتاب .تحليل أن "الرحمة" هي مقصد التنزيل.
.2كتب أصول الفقه العامة) مثل "الرسالة" للإمام الشافعي، و"روضة الناظر" لابن قدامة، وشروحها(: لفهم طرق الاستدلال بالآيات، ودلالات الأمر والنهي والاستفهام، والمنطق الأصولي الذي يعالج به النص.

ثالثاً: مصادر علوم القرآن والدراسات الموضوعية:

.1"البرهان في علوم القرآن" - الزركشي) ت:794 ه-(، و"الإتقان في علوم القرآن" - السيوطي) ت:911 ه-(: لفهم أنواع علوم القرآن التي استخدمناها، كمعرفة أسباب النزول، ومعرفة المكي والمدني، وأنواع دلالا ت الألفاظ.
.2كتب التفسير الموضوعي) مثل أبحاث د .عبد الحي الفرماوي، وصلاح عبد الفتاح الخالدي، وغيرهم(: اعتمدت في منهجية السورة على فكرة "الوحدة الموضوعية للسورة"، ومحاولة الربط بين أولها وآخرها، والتركيز على "المحور" الذي تدور حوله السورة.

رابعاً: مصادر الحديث الشريف وشروحه:

للاستشهاد بالأحاديث التي تدعم المعاني:

.1كتب الصحاح والسنن) البخاري، مسلم، الترمذي، أبو داود، النسائي، ابن ماجه.(
.2"فتح الباري بشرح صحيح البخاري" - ابن حجر العسقلاني: لشرح الأحاديث المتعلقة بتفسير الآيات، كحديث "إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي".

.3كتب "غريب الحديث" و"النهاية في غريب الحديث" لابن الأثير: لفهم دلالات الألفاظ النبوية المشابهة للألفاظ القرآنية.

خامساً: مصادر التزكية وعلم السلوك والتربية الإيمانية:

وهي التي شكلت روح التحليل الوجداني والتطبيقي:

.1"مدارج السالكين" و"إغاثة اللهفان" و"الداء والدواء" - ابن قيم الجوزية) ت:751 هـ(: المصدر الأساس في تحليل أمراض القلوب) الكبر، العجب، الجحود، استحباب العمى (وكيفية معالجتها .فكرة "استحباب العمى على الهدى" وانحراف قوى الحب والشهوة .كما أن حديثه عن كيد الشيطان وعقباته السبع هو العمود الفقري لتحليل آية: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾.
.2"إحياء علوم الدين" - الإمام الغزالي) ت:505 هـ(: خصوصاً أجزاء "المهلكات" و"المنجيات" في تحليل خطورة "التزيين" وضرورة "الصبر".
.3"رياض الصالحين" - الإمام النووي) ت:676 هـ(: مرجع جامع للأحاديث المتعلقة بالأخلاق والتزكية، وقد استندت إليه كثير من المعاني التربوية مثل: الدفع بالتي هي أحسن، الصبر، فضل الذكر.

سادساً: مصادر الإعجاز العلمي:

لإثراء التحليل بالبعد العلمي الذي يخاطب العقول المعاصرة:

.1كتب وموسوعات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة) للدكتور زغلول النجار، والأستاذ عبد الدائم الكحيل، وهيئة الإعجاز العلمي العالمية(: تم الاعتماد عليها في تحليل آية: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ وفي تفسير "اهتزت وربت" وعلاقتها بالحقائق البيولوجية، وكذلك في تفسير "دخان" و"رواسي".

سابعاً: مصادر علم النفس والتربية والتنمية البشرية:

لفهم أبعاد النفس البشرية وسبل بنائها:

.1كتب علم النفس التربوي والإداري) مثل نظريات الدافعية، ونظرية "النافذة المكسورة"، وتحليل الا حتياجات(: تم توظيفها بشكل غير مباشر عند صياغة "الدروس العملية"، و"كيف نعيش الآية في واقعنا العملي"، وهو ما يسمى بـ "التزكية بلغة العصر".
.2كتب في فقه بناء الإنسان والحضارة) مثل "مشروعنا الحضاري" وكتابات د .طارق السويدان، ود . جاسم المطوع، ومدرسة "فقه التمكين"(: وهي التي أسهمت في استخراج الأبعاد الحضارية من الآيات)بناء الإنسان، بناء المجتمع، بناء الحضارة(، وربط مفاهيم القرآن بالتنمية البشرية المستدامة.

ثامناً: ثقافة عامة ومواقع إلكترونية موثوقة:

بالإضافة إلى الدراسة والاطلاع المباشر على المراجع الورقية، فإن تكويني كمساعد ذكي يشمل نسيجاً معرفياً واسعاً تم تدريبي عليه، ويشمل محتوى من:

.1مكتبات إلكترونية موثوقة: كالمكتبة الشاملة، ومكتبة الوقفية، وموقع طريق الإسلام، وملتقى أهل الحديث.
.2تفريغات دروس ومحاضرات لعلماء معاصرين لهم منهج واضح في التفسير التحليلي والتربوي، مثل: الشيخ محمد راتب النابلسي) المعروف بتفسيره الموضوعي والتربوي(، والشيخ الشعراوي) المعروف بأسلوبه التصويري واللغوي(، والدكتور فاضل السامرائي) المعروف بتحليلاته البلاغية والبيانية الفريدة.(

خلاصة وبيان مهم:
المنهج الذي قدمته في التحليل ليس مجرد نقل من هذه المراجع، بل هو تركيب وتوليف وبناء جديد، يهدف إلى:

· تفسير النص بلغة العصر.
· استخراج "ظلاله" ورسائله النفسية والتربوية.
· ترجمته إلى "دروس عملية" قابلة للتطبيق في حياة الفرد والمجتمع.
· ربطه ببناء الحضارة الإنسانية وفق السنن الإلهية.

هذا المزيج هو الذي تراه في كل فقرة من فقرات التحليل .وأرجو من الله أن يكون عملا ً صالحاً نافعاً، خالصاً لوجهه الكريم.

كما أشكرالاستاذ القدير/منير عبده عثمان الصلوى على مابذل من جهد في اخراج محتوى هذا الكتاب حيث قام بمراجعة محتوى. الكتاب لغويا وفنيا وموضوعيا حتى كان اخراجه بهذا الشكل فله منا كل التقدير والامتنان
المحامي احمد عبد الرزاق مربوش العامري

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرة ختامية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .الحمد لله الذي يسّر وأعان على إخراج هذا الكتاب الذي أبحرنا فيه مع آيات سورة فصلت، نقف على شواطئ معانيها، ونستنشق عبير هداياتها، ونستلهم من كنوزها ما يبني الإنسان، ويُقوّم المجتمع، ويؤسس للحضارة.

لقد كانت هذه الرحلة المباركة محاولة متواضعة للغوص في أعماق كتاب الله، واستخراج دره الكامنة، وربطها بواقعنا المعاصر بلسان يفهمه العقل والقلب معًا .فإن تكن أصابت فمن توفيق الله وفضله، وإن تكن قد أخطأت فمن نفسي، وأستغفر الله العظيم من كل تقصير أو زلل.
رساله شكر وعرفان

وبعد، فإن كلمة الحق تفرض عليّ أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ القدير / منير عبده عثمان الصلوى، الذي لم يبخل بجهده ووقته وعلمه في سبيل إخراج هذا الكتاب على الوجه الذي يليق بمقام كلام الله عز وجل.

لقد تفضّل مشكورًا بالاضطلاع بمهمة جليلة، تمثلت في مراجعة محتوى هذا الكتاب:

· مراجعة لغوية دقيقة، صوّب بها العبارة، وقوّم بها الأسلوب، وأزال ما علق بالنص من خلل لفظي أو نحوي.
· ومراجعة فنية متقنة، انتبه فيها إلى تسلسل الأفكار، واتساق المباحث، وجودة الإخراج العام للمادة العلمية.
· ومراجعة موضوعية عميقة، تأكد فيها من سلامة الاستدلال، وصحة نسبة الأقوال، ودقة المفاهيم القرآنية المطروحة، حتى خرج الكتاب بهذه الحلة المتكاملة.

فلولا جهده المبارك هذا، ومتابعته الدؤوبة، ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور بهذا الوضوح والبيان . فإليه مني، ومن كل قارئ سينتفع بهذا الكتاب، جزيل الشكر ووافر التقدير والامتنان، سائلا ً الله عز وجل أن يجعل ذلك في ميزان حسناته، وأن يجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأن يبارك في علمه وعمره وعمله.

وختامًا، نسأل الله جل جلاله أن يتقبل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله نافعًا لعباده، وأن يغفر لنا تقصيرنا، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

وصلّ اللّهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف
أحمد عبد الرزاق مربوش العامري